

الأمر بدراسة التاريخ في القرآن

الكريم دراسة موضوعية

محمد السيد حسن محمد

أكاديمية تفسير للدراسات القرآنية

ذو القعدة ١٤٤١هـ

يوليو ٢٠٢٠ م

اسم الكتاب : الأمر بدراسة التاريخ في القرآن الكريم
المؤلف : دراسة موضوعية
رقم الإيداع : محمد السيد حسن محمد
الرقم الدولي :



2+01068638377



2+012044605077

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية،

أما حقوق الملكية الفكرية والآراء، والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.



﴿ فَأَقْصِرِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]

شكرو تقدير

وشكر لذي منة واجب، ومدحة لذي فضل لمدوحة، وثناء على من دل على خير هو حق له خالص.

وحمدا لله أن وفق إخوة لدلالة خير لإخوانهم، وشحذا لهمهم، نشرا لعلم كتاب الله مولانا ومولاهم، وهو من خير العلوم وأفضلها.

ومنه كان اعتراف بفضلهم في النفوس، أردت أن أشيع منه ولو جزءا من أجزاء، وآثرت أن أنشر منه ولو بعضا من أبعاض، عرفانا لجميل صنيعهم، وتنويها لفضل إرشادهم.

ومنه كان شكرهم، فشكر الله سعيهم، وأجزل ماثبتهم، إخوانا لنا في أكاديمية تفسير المباركة. وكان استمداد بركتها من بركة كتاب الله تعالى، إذ به نالوا شرف المقام وعلو القامة.

إِهْدَاء

وأهدى ثمرة هذا الجهد المتناهي تواضعا إلى كل من علمني علما، أو أفدت منه خلقا حميدا، أو استرشدت سبيل خير دلني عليه، أو أعانني بنصح وقف عليه.

كما أنه مهدي إلى كل باحث عن حق يبتغيه، وهو كذلك مسدى إلى كل راغب في علم يقتنيه، وإلى كل داع إلى الله ويتقيه، أو معلم خيرا، أو قد كف شرا.

إقرار

وأقر أن عملا كهذا قد أعان الله تعالى على إخراجه بصورته التي بين أيدينا، وأن سفرا كهذا الذي قد وفق الله تعالى للقيام به، وهو فضله وتوفيقه وعونه، وما كان له أن يتم بهذا الإخراج في زي قشيب كهذا الذي يراه كل حصيف، وكمثل هذا الذي ألفاه كل عبد منيف، إلا لعلم الله تعالى أن كاتبه لم تسمح له قريحته، ولم تخول له أنفته، إلا أن يكون من صباغة ذهنه صافيا ضافيا، وإنما كل استرشاد أسنده لصاحبه فهو حق له، وهو دين علي أن أقوم به، فالعلم سلسله متواترة، وحلقاته متواصلة، وهذه من بركاته، وتلك من حسناته.

ملخص البحث

وقد كان لأمر التاريخ في القرآن العظيم جولات عديدة، وقد ألفيته عميقا عمق بحر لا ساحل له، كثير الصدقات، غزير الملح واللطائف والعظات، فأردت أن أسلك سبيلا وسطا في بيان سننه تعالى وهديه في أمم قد خلت، وأن سننه تعالى ذاك نابع من موضوعية قرآنية عز نظيرها، بلا التفات إلى شخص بعينه، وبلا نظر إلى فرد بشخصه، إلا أن يكون دينا لله تعالى أراد الله من عبده أن يكونوا عليه، ومتقربين به إليه.

ومنه كان الزاد حافلا بكل زاد ممكن في بيان عاقبة كل فعل، وفي ذكر جزاء كل فصيل، موضوعا واحدا، وفصلا واحدا، وقولا واحدا، بنظام محكم دقيق، لا تخلله هنة من ميل، ولا تعيبه خصلة من هوى، فميزانه قسطاس، وعدله مطلق رقيق، وميزانه مشرق براق، لا يخطئه هوى، ولا يرديه ردى!

وكان منه بيان أن العاقبة الحسنی للمتقين، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. بعد إذ قد ذكرت موجبات الفلاح، وأسباب الصلاح، ومنه أيضا وقفت وقفات عديدة، في شرح أسباب الخذلان، وذكر نعوت البهتان، لما قد رأيته من غلبة أهل باطل، ولما قد استشعرته من كثرة كل قول عاطل، فالزمت البيان، وأحكمت البنيان، ذكرا وشرحا وتفصيلا، في أسباب الفساد، وموجبات الإفساد، والاعوجاج، والبطلان، والضياع!

وذلكم كله قد حكيت، كيما يحذر كل لب رشيد، وكيما يظفر كل مبتغ سديد، أن يرقى مطالع الخيرات، وأن يصعد مشارق النور والهدايات، براء من الخطيئات، وخلاصا من المهلكات، ونفرة من كل البليات، التي يمكن أن يصابها عبيد مسكين، غرته الأمانى،

حتى أردته بين أمواج بحر متلاطمة، تقذفه هناك مرة، وترمي به هنالك كرة، فأسعفته لها
بيانا كيما يكون على بينة من أمره، وكيما لا يهلك، كما قد هلك الأولون، ممن ناصبوا
الدعوات العداوات، ووقفوا لها بالمرصاد والخصومات!

وكان من جميل أن أثنى بذكر صور العذاب، بعد إذ كنت قد عنونت بموجبات الهلاك؛
كيما تتضح الصورة أكثر لامعة، وكيما تبين البراهين أوفر ساطعة، فتعمل عملها في
القلوب إخافة، وتصنع صنيعها في الأفئدة تحذيرا، وتقود نفوسا تنبيها وترهيبا فإن قوما
لا يحيئون إلا ترجيبا وتهدادا وتهديدا وتهويلا!

ومنه لتبرأ نفوس من تعظيم لكل باطل، وتسعى سعيها حثيثا وراء كل سبيل يهدي إلى
الحق وإلى طريق مستقيم، طمعا في النجاة، ورجاء الفوز، وابتغاء الهدى، وأجل الرشاد.

وكان من شأن ذلك ذكر قصص، وتناول أخبار، مما حفل به الكتاب، ومما ازدان به
فصل الخطاب، وما ذاك إلا لعظة واعتبار، وما كان إلا اتباعا لسبيل الله تعالى الواحد
القهار، فرارا من طريق المتفلتين، وبراءة من طريق الهالكين، ذلك لأن سبيله تعالى واحد
لا اثنان، وذلك لأن هداه تعالى كل لا تجزئة فيه، وذلك لأن سبلا لإبليس اللعين متواترة
تواتر شر بأهله، كيما يهوا في مصيدة سيدهم وإمامهم الذي أعلن البراءة منهم يوم لا
ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقد أردت، وقد أكدت، وقد أسندت، وقد أصلت، وقد فرعت، هنا مرات، وهنالك
أضعافها، إمعانا في البيان، وإزكاء لروح الذكر، ومناطات الالتزام، كيما تكون عقدا
فريدا تزدان به حسناء بحسنها حسنا، كتبر يتلأأ شمسا قد رآها، أو قمرا إذا تلاها!

والله الهادي والموفق إلى كل هدى يرضيه، وهو المسؤول وحده أن يجنبنا كل ضلالة ولو
واحدة، وأن يلهمنا رشده كله، فلا تبقى منه بقية إلا وبها قد أنعم على عبيده المساكين،
وكان من عدادهم كاتبه، وكان من ضعافهم قائله.

المقدمة

الحمد لله المنان الوهاب، فطر خلقه على دينه، وبرأ نسمة على ملته، وجعل من عباده الخنفاء، وتلك من رحمته، وجعل منهم مردة أشقياء، وتلك من حكمته، وكان الناس من ههنا قد افترقوا فريقين، فريقا هدى، وفريقا حق عليهم العذاب، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. وكان الناس على مر التاريخ من ههنا قسمين، وفريقا نبذوا الشرك والشركاء، فأصبحوا به هم الخنفاء، وفريقا آخر استدبروا الحق والتوحيد، فكانوا بذلك هم التعساء الأشقياء.

والقرآن الحكيم الذي هو جبل الله المتين، قد عالج هؤلاء وهؤلاء، في مسيرة هي طول مكث نزوله على رسول الله محمد ﷺ، مختصرا تاريخا طويلا، بلغ آلافا من السنين، وأمثالها من الدهور، وذلك مما جعله كتابا حاكما على سائر الكتب، وذلك مما حدا به أن يكون ضابطا لمسيرة البشرية عبر تاريخها المديد، في عبارة هي من أبلغ الكلام بيانا، وفي حبك من التنزيل هو من أعجز التعابير معناه ومبناه، حتى استوى على كرسي الإعجاز والبلاغة، مما بلغ به حدا لا يوصف قدرا من التأثير في قارئه، وفاعلية في تاليه، فأفرد به عن سائر الكتب، وتمايز فيه عن جميع ما نظم.

ومنه فإن القرآن الكريم قد أعطى اهتماما واسعا في نظمه الكريم للحدث التاريخي، وأمر بالإفادة منه. ذلك أن التاريخ هو كتاب لأحداث الأمم الماضية، غثها وثمينها، حلوها ومرها، كفرها وإيمانها، ومنه لزممت الإشارة إلى ذلك، وبيان موقع الأمر بالإفادة من هذا القصص أو ذاك في مسيرة الأمم، وخاصة فيما يتعلق بأمر التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد، وخاصة أيضا أن أما غابرة كثيرة قد تنكبت هدي ربها، فأذاقها الله تعالى لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

ذلك لأنها سنته تعالى فيما برأ وخلق. وصدق الله تعالى ربنا الرحمن إذ قال: ﴿ وَضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَادَّاقَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

ومنه أيضا يلفت النظر إلى أن دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن المجيد وجب ألا تكون في
معزل عن الحنيفية. إذ هي مراد الله تعالى من العبيد، ووجب أن تكون منزلة على هذا
الواقع المرير الذي تحياه الأمم بعيدة عن منهج الله تعالى ربها الرحمن، كيما تفيد الأسرة
العالمية، ولعلها أن تؤوب، ولعلها أن ترجع.

ذلك لأنني رأيت فريقا من الناس قد صدق عليهم قول الله تعالى ربنا الرحمن ﴿ أَمْ تَحْسَبُ
أَنَّا أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]

ذلك لأن أمر المعاش وحسب، هو ذاك الذي كان همهم، بغض النظر عن تحصيله من
حرام كان في جله كذلككم أو كله إن شئت، وحتى راحت هذه الأمم الغفيرة متنكبة
هدي ربها، فأحلت ما حرم، وحرمت ما أحل، وناهضت ثلة من المؤمنين أبوا إلا أن
يكون الدين كله لله تعالى.

وباعتبار أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص في درجته الأولى، فمنه كانت إشارته إلى
القصص فيه إجمالا، ولم يرد فيه من تفصيل سوى ما يخدم المسألة الأم في الإسلام، وهي
إسلاس القياد لله تعالى رب العالمين، ومن ثم تركت مسائل التفصيل ليناولها الجيل بعد
الجيل على مدار التاريخ.

ومنه كانت العبرة أمرا أوليا لسرد أمر قرآني أو إيراد قصصي يخدم مسألة الدين، وكونه
لله تعالى وحده، لتخليص البشرية من شركها، كيما تسمو بعقيدتها، فيكون لها السبق
دينا ودنيا، ويكون لها الفوز في كليهما أيضا.

ولهذا قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]. أي لذوي العقول القادرة على استخلاص المغزى من قراءتها للتاريخ.

وكأنه كان من قراءة الأوامر الربانية الواردة في كتاب الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ما يشي إلا كونها هادية للإنسان ألا يقع في براثن الهوى والشرك والضلال، والله تعالى يريد بالإنسان الخير أبداً.

ومنه فقد تعدى اللفظ القرآني عموماً، والأمر منه خصوصاً من كونه كان موجهاً إلى واقعة بعينها، ومن ثم إلى أفرادها، إلى كونه وقد أضحى قاعدة كلية ذات شأن، ليكون مدار الشرع إيجابياً كما هو العهد به أبداً.

وبمعنى آخر ما خرج تأسيساً عليه من قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، وهي قاعدة كلية أصولية لها أهميتها العظمى في فهم الأدلة والبراهين، وطريقة تنزيلها على كل واقع مماثل لما عليه قد نزلت، كيما ينظر إلي الدليل من وراء لفظه، كونه يريد توجيه الأمر إلى كل من يصلح أن يكون الخطاب موجهاً إليه، وتلك قاعدة هامة في التصور الإسلامي لأوامر الله تعالى.

فأوقفنا ذلكم على الغاية العظمى من مجيء أمر قرآني أو آخر من قصصه ودلالته للاعتبار لا على مستوى الشخوص الذين نزل فيهم النص فحسب فتلك مسلمة، وإنما ليشمل الجميع بخطابه، وليعم الكل بأمره، ومنه أيضاً كانت المعجزة الكبرى في كون هذا الكتاب هادياً ونصيراً، كما أنها معجزة أخرى من كونه كان آخر خطاب لله متلوا أنزله على رسوله ﷺ، منذراً للثقلين إنسا وجنا.

ومنه يستشهد القرآن ببعض الوقائع التاريخية والملاحم الزمانية، ويجعل بعضا من تلك الأحداث التاريخية دليلا على صدق القرآن أو النص القرآني. ومن ثم دليلا على صدق رسوله محمد ﷺ، إذ لم يكن حاضرا لواحد منها طيبة!

ومنه ما جاء في شأن فرعون الذي أغرق في ملاحقته لنيي الله موسى عليه السلام في البحر، وهو الذي أشار القرآن الكريم إلى أنه سيجعله آية لمن خلفه كما قال تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

ومنه قوله تعالى أيضا ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤].

حيث لم يكن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بجانب غربي الجبل إذ فرض الله تعالى أمره، وإذ قضى الله تعالى عليه شرعه، فيما ألزمه من توحيده، وفيما فرضه من توحيده، ولما لم يكن شاهدا حصول ذلك، وقد أنبأه مولاه، فدل على عظيم اهتمام بالأمر، ذلك لأنه الدين، ودل على كريم اهتمام بالمأمور أيضا، ذلك لأنه نبيه، وذلك لأنه صفيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَيْهِمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]

ومنه كانت هذه محاولة لحشد ما جادت به نفسي بيانا لبحث مسائل متعلقة بتاريخ أمم قد سبقت، وجاء ذكرها في الذكر الحميد، مما ستشرق شمسه بعد قليل، إسعادا لقارئ فهم، وإهداء لمطلع كريم.

ودراسة هذه الأخبار، ومعالجة تلك الملاحم والقصص، وما يصاحبها من أحداث، كونها قد جاءت في ثوبها المعطر بالجمال، والتي تالأت في حسننها المرصع بالجلال، إذ هي نصوص قرآن مبین، نزل به الروح الأمين، على قلب رسول الله محمد ﷺ، ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، إذ يجب ألا تكون هذه الملاحم والقصص والأحداث في معزل عن العلاقة الوثيقة بين كل حدث تاريخي وبين دين الله تعالى الذي هو التوحيد.

فإن هذا الذي جاء في القرآن المجيد، ويعالجه بصورة التي تنبئ عن إعجاز عجيب، فإنما كان خدمة لأمر التوحيد ومعالجته وتوضيحه وتفسيره، كيما تتألفه القلوب والأفئدة، وكيما يكون هاديا مقبولا، وكيما يسري في عروق البشر كدمائهم سواء بسواء، فبه يكون العيش الحقيقي، ومعه يكون الفوز الأبدي، وبغيره نقيضه، وبدونه نظيره، فتأمل!

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]

عملي في هذا البحث

وعليه؛ فقد كانت متابعات النصوص غايتي، وقد ألفت رصدها مهمتي، استغراقا في علاجها، قرآنا كريما تفسيرا، أو حديثا شريفا دراية ورواية، أو علما لصاحبه، أو قولاً لقائله، وكشفا عن مصادرها الكثيرة المتألثة في قمر ليل أنار كونا واسعا فسيحا، فكان منه كذلك نورها!

ولا يحسن كريم أنه عمل يسير، فليبيب كمثلته يعرف كيف بجثا عن معنى مراد لآية من أي الذكر المجيد، مع كثرة الناقلين في باب المعاني، ومع وفرة القائلين في علم المباني، ومع تعداد المفسرين والشارحين، إذ كيف يخرج بقول تطمئن له نفسه، وإذ كيف يختار مذهبا يرق له قلبه، أو يميل إليه عقله؟!!

وهذه واحدة!

وإذ كيف به أمام سند تعددت موارده، وإذ به كيف عند حديث قد كثرت مصادره؟
فحسيف كحصافته يعرف نصبا قد أصاب من عالج حديثا شريفا، كونه عن رسول الله ﷺ، سندا أو متنا.

ومنه فقد حاولت جاهدا ألا أذكر إلا حديثا صحيحا قد أمعن الحفاظ حوله بيانا، لأنه
من الوحي الكريم، وليس يجوز إلا ذكر وحي قد أتانا عن رسولنا ثابت الدلالة في
سنده، بين في متنه.

وقول بغير ذلكم هو قول على الله تعالى بغير علم ومن ذا يطيقها؟!

وهذه ثانية!

وتوثيق قول لكاتبه أمر ناجع، وعمل سائع، لكنه الآخر يعوزه اطمئنان، إذ هل حقا قد
صدر مثل ذاك قول عن (فلان)؟ وإذ هل حقا قد جاء مثل ذلكم نقل عن (علان)؟ وإذ
هل حقا يمكن أن تكون صلاحيته للاستدلال به في هذا الموطن صراحة؟ وإذ هل يمكن
أن يسد جانبا معالجا له، ومبيننا له، ومفصحا عنه؟!

ومنه فلما قد رأيت نصوصا خادمة لمراي، ولما أن قد حصلت على أدلة مؤيدة لمساعي،
قد نقلها الأغيار الفضلاء، وقد حرصت غايتي وجهدي ألا أنقلها إلا عن مصادرها الأم
الحقيقية، وذلكم عمل كبير، إذ يعوزه بحث وفير، وهو دأب جليل، ولم آل جهدا في
التوثيق، ولم أترك بابا في ذلكم إلا طرقته، ولم أسلك لذلك سبيلا إلا وفقت فيه فضلا
منه تعالى ورحمة وهبة ومنحة وعطاء منه سبحانه!

وهذه الثالثة الخاتمة!

والله الهادي والموفق، وهو المستعان وحده، وعليه التكلان، وإليه المصير.

أهداف البحث

وعليه فقد كانت أهداف دراستي أن أقف بقارئ كريم على قول فصل لا يعوزه توثيق أكثر مما وثقت، ليخرج بارقا لامعا ساطعا مشرقا منيرا مضيئا، أو هكذا أردت له، وإلا فكل عمل ابن آدم يؤخذ منه ويرد، إلا صاحب الهدى السديد، وإلا قائل القول الرشيد محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان منه أن أجول جولات يبرز فيها اهتمام الكتاب الكريم والذكر المجيد في معالجة صفحات التاريخ على اختلافها، ومع تباين أصحابها، ومع ذلك فقد أداها خير الأداء، بحيث لم يتبق في نفس منصف قول ليس ربي قد قاله، وبحيث لم يترك لآخر شبهة إلا وقد أماط لثامها، فخرج كتابه القرآن العظيم فيه الهدى والنور، والرشد والخبور، داعيا إلى الهدى كله، وباديا كالنور أجمعه! أو كأنه النور نفسه!

وما أنوار الكون كله إلا كمشكاة واحدة من نوره!

لأنه هو نفسه نور!

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وإن لم يكن لبحثي هدف سواه، لكان قد كفاه!

إذ ولما كان القرآن المجيد هو معيننا الأول، لأنه القول الفصل، ولأنه الحديث الصدق في كل معنى من معاني الصدق، مما عرفته البشرية، أو قد غاب عنها، إلا والقرآن كان له منه الحظ الأوفر، والنصيب الأتم الأكمل الأكثر، والقسط الأعز الأغزر!

ومنه أيضا فقد كان لبيانه أعظم الأثر في شحذ همم القاصدين للخير والهدى والزكاء والرشاد، وقد أضحى لأثره حتى في قلوب الكافرين مقعدا، هم يعلمونه أكثر مما قد علمناه نحن عنهم.

وذاك أمر متواتر قد نزلت فيه آيات بينات، وتضافرت عليه أحاديث خير البريات رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ليس مجالنا الآن لها ذكرا، فنطوي صفحتها إلى أن يشرق يوم يأذن الله تعالى فيه ببرهانه.

أهمية البحث

وعليه أيضا تبدو أهمية ما تسطره يداي، لتشرف عند الكلام حول كتاب ربها، ولتسعد حال الحديث عن نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

إذ ليس في الوجود كله هام كأهمية قرآننا، وإذ ليس في الكون كله ذو أثر كأثر كتابنا! أو قول كقول محمد رسول الله ونبيه ونبينا صلى الله عليه وسلم.

ومنه يكون كل عمل خادما له، ويضحى كل قول مبينا عنه، وذا شرف عظيم لقائله، كما أنه يكون سبب رعاية وإكلاء لكاتبه!

وخاصة الخصوص لما أن يكون معقودا عزم امرئ مثلي أن ينحو بالكتاب منحنا عاليا، سامقا، ساميا، شاهقا، شامخا، مطاولا عنان السماء رفعة وقامة، لما قد نال شرف الانتساب للقرآن المجيد وعلومه، ولما قد حالفته إشادة البحث فيه، والكلام عنه كهاد إلى رشد، وعامل في خيره، وكساهر في تلاوته، وكقائم على قراءته، مما قد جعله باثنا عن تقاعس أو تقصير، ومما قد نفى عنه تراخيا أو فتورا، أو تكاسلا أو إغفالا أو توانيا أو تفريط.

مشكلة البحث

ولما أن كان القرآن خاتماً للكتب، ولما أن كان الذكر الحكيم حاكماً على ما سواه، ولما أن كان الكتاب المجيد قد حوى في آيه العظام ذكراً لتاريخ طويل طول الزمان كله على امتداده ضارباً في القدم مذ أن خلق الله تعالى خليقته، ومذ أن برأ الله تعالى نسمة!

وكان منه إذن ذلكم الخيال الواسع المديد، وكان منه ذلكم التراكم التاريخي التليد، وذاك المجال الرحب السهل السبط الصقيب، وأنى يمكن أن يسبر عبيد ضعيف كمثلي غوره، وكيف يمكنه لذلك إحاطة، ولو من طرف خفي؟!

إذ ماذا سوف يأخذ باحث؟!

وإذ ماذا سوف يترك دارس؟!

فعند كثرة الموضوعات، وأمام غزارة المسائل المشكلات، ولدى طول الزمان في الكتاب، وكأنك أمام لوحته ماثلاً، وكأنك عند صورته متأملاً، إذ كيف أحاط القرآن الكريم بتاريخ هذا تطاوله في الزمان، من بين كم من الآيات البينات هي عند قواعد الحساب قليلة، بقياسها على هذا الزمان بطوله، وإذا وزنت أمام الدهر بأحداثه وأيامه، ولكنها أمام علاجها وضح أنها كانت له كفيلاً، وبأن كيف أنها كانت به زعيمة!

لكن ضعيفاً كمثلي، ولكن مسكيناً كأني ليقف ولتملؤه حيرة، وليجلس ولتأخذه عبرة من حكايات القرآن، ومن ذكر البيان، ومن طلاوة التبيان، ومن حلاوة الإبانة، ومن إعجاز الإيضاح، ومن جميل الاتضاح، ومن فيض الجلاء، ومن توارد الانجلاء!

وكيف به أمام عظمة الإفصاح ببناء أعجز أهل الفصاحة حتى لمن أثره فيهم قد انساحوا، وكأنهم من عمله فيهم قد انساخوا، سجداً لله، وهم داخرون!

أقول: وكيف حال مثلي والقرآن الحكيم واقف به أمام هؤلاء من المشركين مرة، وما أعدده لهم من سوء النكال، وما قد حاق بهم من عذاب الاستئصال، ومن أولاء المسلمين مرة، وكيف كان حنوه بهم، وأنى راح لطفه لهم!

وأنت في كل ذلكم لست تملك إلا أن تخر مثل من سبق ساجدا رهبة إلى الله تعالى ورغبة إليه!

وكلها مآدبات نافعات، وكلها آيات بينات، قد طالها القرآن العظيم ذكرا، في عبارة هي والعبارات لا سواء بسواء، ولا قياس يمكن تصوره، ولو في جانب واحد من جوانبه، أو تقريب بينها يمكن تخيله!

وأمام كل ما ذكر، وعند ما لم يذكر، مما لا تحيطه أفهامي، ومما لا تجيده أقدامي، برز الإشكال، وحل السؤال، لموجب الاضطرار، وسبب الاختيار، فاستحضرت قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولذا كانت الاستعانة به تعالى هي العون كله والإسناد، وكان استلهام الرشد منه هو الإنجاد كله والإمداد ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الدراسات السابقة

وإشارة إلى أهمية الموضوع، وكونه يتناول مسائل عدة، لها أهميتها في التصور الإسلامي، كونها متعلقة بتاريخ حافل بالأخبار، وملئ بالقصص والأوامر والنواهي والإشعار، وكثير الأحكام والتشريعات والإخطار، على اختلاف كل أمة، وعلى تباين كل قوم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]،

وكان من المأمول عطفاً عليه أن تكون مكتبتنا الإسلامية غنية ببحوث تتناول موضوعاً كهذه أهميته، وأن تكون زاخرة بمصادر تناسب خطورته وجسامته، وأن تكون مرفوفة بدراسات تعالج جوانبه المختلفة، وأشكاله المتباينة والمتداخلة والمؤتلفة بحق!

إلا أن اختيار الموضوع يبدو أنه كان متفرداً بامتياز!

ذلك لأنني - والحق أقول - قد بحثت، وقد فرزت، وقد رحت حوارياً وزقاقاً، وقد درت ذهاباً وإياباً، لأجد معينا يعالج هذا البيان، وبنص موضوعه، والحق أقول مرة أخرى فلم أجد!

وهو ما أرفع من شأنه، وهو ما أعلى من جاهه وشأوه وقدره، مرتبة عالية، ومنزلة باسقة!

ومنه فأشرف شرف موضوعه، وعليه سأسبر من جوهره، متوكلاً على الله تعالى مستلهماً عوناً، وراجياً توفيقه وفضله.

إلا أن عناية مولانا الله تعالى مع كل قاصد كريم قصداً جميلاً، وإلا أن معيته تعالى لتزكو معها نفوس أرادت الحق سعياً إليه، وبجثاً عنه، واعتماداً عليه تعالى وحده، ومن خلال بسط ضاف لكتاب كريم هو القرآن المجيد، ذلك لأن (هذا القرآن مآدبة الله فتعلموا من مآدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه ولا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة. أما إني لا أقول لكم: ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف ثلاثون حسنة^(١).

(١) السلسلة الضعيفة: الصفحة أو الرقم: ٦٨٤٢. قال الألباني رحمه الله تعالى: ضعيف.

ومنه فلم أعدم فضلا، وعليه فلم يذرنى ربي الرحمن سبحانه- من عونه- هملا ، ولم يحرمني- من سنده- مددا، بل أفاض على عبيده من غوثه، وأسبغ عليه من دعمه، لأنه تعالى هو الأعز الأكرم سبحانه!

مصادر البحث

وقد كان منه أن الله تعالى يوفق عبدا ألزم، وأنه تعالى يلهم عبدا كلف!

وعليه فقد كانت مكتبتنا ضافية بأصول المراجع، ومنه عكفت عليها مستفرغا ما أراه من منافع، ومستطلعا ما حوته من مطالع، غنية غنى موضوعها.

وتبوأ كتاب الله تعالى القرآن العظيم المنزلة الأولى، والسبق الأجل، وهو وحده كاف في البيان، وهو وحده البرهان حتى لقد وقفت أمامه البراهين عاجزة، وهو الشرع، وعماد الملة، وينبوع الأحكام، وآية الرسالة، ونور أبصارنا، وهدى بصيرتنا، وطريقنا إلى الله إذ ليس كمثلته بيان أو سواه.

وكان منه جهيزة تفسيراً وشرحاً، من أمثال أمهات التفاسير، كما سوف يشرف قارئ كريم، كما شرفت بها نفعا واستنادا، وكما حفلت هي بثمان العلم ونفعه معه.

والكتب الستة ألفيتها كثيفة البرهان، غنية البيان، فقطفت من البخاري زهرة، وتنسجت من مسلم نسمة، وارتشفت من أبي داود رشفة، واستروحت من ابن ماجه استرواحة.

كما أني قد دنوت من الترمذي، فألفيته ذا علم وإدراك، وخبرته ذا بصيرة ولب وذكاء، كما أنه قد تبوأ كرسي مجد، نباهة ونهى وحجة ونهبة ونقاء، فلم آل جهدا أن أنال من معينه، رغبة ومحبة واصطفاء!

بيد أن أبا عبد الله أحمد الإمام الحنبلي لم أنسه، فما أجمل أنسه! وإن مسنده لسند، وإن سنده لعضد!

وغير أولاء مما يضيق المقام بذكره. ولا يتسع المقال لإطرائه، مما سوف يلقاه متابع، ومما سوف يجده مطالع!

غير أنني أقف هنا وقفة أعالج فيه أمرا رشدا.

ذلك أن بعضا من التوثيق قد كان مبتناه من أيقونة التفاسير العظيمة، وهي غير مرقمة، ومنه فقد اكتفيت حينها إشارة إليها، حسب نوع التفسير، واسم مفسره.

وكان من مثله، وأضحى من شاكلته، أيقونة الموسوعة الحديثية.

وعليه جرى البيان.

بيد أن أخا حصيفا قارئاً مطلعاً سوف يسعد سعادتني، ولما أن يجول جولته داعياً لي بحسن الختام ومسكه معه، لأقول له قبل أن يقول، وإياكم ولك بمثله معه!

حدود الدراسة

والتزمت حد البحث الموسوم بعنوانه، كيما يمكن سبر غواره، ولا يعاب تشتتاً، أو يؤاخذ تفرقاً، بل ويميز بالتزام حده المرسوم، ومداه المعد له سلفاً، ويبلغ أفقه بلزوم وصفه المرتب، كيما يكون مفيداً بامتياز، وكيما يكون زكياً بلا انحياز، فلا يمتنه رحت عنه كثيراً، ولا يسره ذهبت عنه إلا قليلاً! طبيعة من طبائع النفوس، وغريزة من غرائز الدارسين، فتراهم يصفون، ويمعنون وصفاً، إزكاء لمعنى أرادوه، وإتقاناً لمرمى ابتغوه.

ومسيكين كمثلي ليس مستثنى من طبائعهم، وضعيف كضعفي ليس يشذ عن طرائقهم!

وإن وجد مطلع كريم من ذلك شيئاً - وهو واجده لا محالة - فإلغى منه، وأما عذر، لأنه أهل للإعذار، كما كنت أهلاً للخروج عنه قليلاً، وإنما خدمة له، وإنما شرحاً وإفياً له، وإنما صقلاً صافياً له، وإنما دعماً صافياً له أيضاً.

منهج البحث

وتتبع المنهج التاريخي الاستدلالي من خلال عرضي بطريق تسلسلي، لا كمن يقص قصصا، ولا كمن يروي خبرا، بل إنني قد أضفيت عليه لباس البيان، وغير أنني قد دمجته دياجة القول القشيب، والبلاغ الجلي الأريب، ليكون أدعى في إبلاغ الديانة، وليصبح أجلى في إيضاح الرسالة.

خطة البحث

وسيكون تناول هذا الشأن البالغ أهمية من خلال عرضه مزدانا في تسعة فصول على نحو هذا بيانه:

الفصل الأول: مصدرا التلقي.

الفصل الثاني: الأمر والتاريخ.

الفصل الثالث: السنن الربانية للتاريخ في القرآن المجيد.

الفصل الرابع: إطلالات واجبة.

الفصل الخامس: ثمرات دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن الكريم.

الفصل السادس: القصص القرآني أحسن القصص.

الفصل السابع: أسباب النكال وموجبات الاستئصال.

الفصل الثامن: صور العذاب على وفق موجبها من الأسباب.

الفصل التاسع: أسباب الصلاح وموجبات الفلاح.

ولسوف يتناول كل فصل مباحث تعالج مسائل عديدة متصلة به، وكل في حينه إن شاء الله تعالى.

والله تعالى سائله أن يجزي قارئاً خيراً.

والله تعالى رجوته أن يكتب عملي هذا في سجلات المحسنين، يوم أن علم وحده أنني ابتغيت من ورائه علماً نافعا، وقولا صائبا، وعملا متقبلا، يكون مثقلا للموازنين، يوم تطاير الصحف، وتخف موازين، وتثقل موازين آخر.

والله تعالى من وراء القصد، وهو سبحانه يهدي السبيل.

وأبدأ مستعينا بالله تعالى، وعلى بركته، ومن عونه وتسديده وتوفيقه.

الفصل الأول

مصدرا التلقي

ومن حيث كان البيان حول دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن المجيد، ومنه لزمّت إشارة أولية إلى أن البحث سيكون متألقا من استدلال بقرآن، ولسوف يكون قشيبا من استناده إلى وحي من رسول الله محمد ﷺ، وذلك لاعتبارات التأصيل، فهما السالمان وهما التامان الأكملان.

ومنه جرى بيان إلى أن الهدى كله فيهما، وما قد نثر منه في صحيفة كل منهما لكاف للإسعاد، وإن ما نشر بين دفتي كل منهما لواف في إثراء البشرية وإغنائها، كيما تسمو إن أرادت سموا، وكيما تعلو إن ابتغت علوا.

وسموها ليس يكون إلا بزداد من الكتاب فهو ضمانة الإسعاد، وهو شارة النجاة في الدنيا ويوم المعاد.

وعلوه قمن به حال استدراكها أمرها لترجع إلى المعين، ولتخلص نفسها من داء مبین، لأنها استمسكت بأوهام، ولأنها تعلقت بأساطير يبدونها ويخفون كثيرا، حتى كان من أمرها أن تركت كتاب ربها من وراء ظهرها، فرأيتها تتبع سننا لنجاة هنا فلا تكاد تطحن من وراء سيرها إلا كما يجده من راح يسرع خطاه وراء سراب ليجده ماء حتى إنه ما انقطع به سيره لينكب هنا مرة، وليعثر هنالك كرة، وهو ما زال يحسب أن السراب سوف ينتهي به إلى ماء، ربه منتظر بعد طول لهث، وبعد طول عناء متكهن به، ولحدوثه مقدر!

وما سوف يجده قارئ كريم من نسخ لقول هذا، أو نقل لكلام ذاك، فإنما لأنه قد سيق بعد البيان القرآني لتقريبه، وإنما قد نقل بعد البلاغ النبوي لتأكيد، فهما كان ذاك هو

المقصود منه إعمالا، كيما لا يروح أحدنا دربا هنا أو سبيلا هناك بغير سلف، بحيث يمكنه أن يدور معهم حيث داروا، ولأنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. ومن حيث قد داروا مع النص إلغا لمعناه، ومن حيث قد لمست فيهم قيدا لفحواه.

ومنه فقد عقدت عزمي أن أقدم مقدمة تليق بكونهما، ورأيت نفسي تواقا أن أشرح صدرا بنورهما، ذكرا وبيانا وأهمية واهتماما، كيما يكون تأسيسنا على متين من القول، وكيما يكون تقعيدنا على رسوخ من الخبر والنبأ والبلاغ وصدق الحديث.

وأؤكد مرة أخرى أن الذي دعاني إلى ذكر ذلكم مطلب، وإلى بيان ذلكم اتجاه عقدا رأيته، وحزما قدرته، أن مادة التاريخ بطبيعتها جارية بين إرهاب هنا، وبين أقصوصة هناك، ينشد إليها سمع سامع، ويطرب عليها ذهن منصت، فلزم لهذا الاعتبار أن أختار لها طريقة سوية، يجعل من صدقها مادة شهية، ليست إلا على غرار الصدق، كأجمل ما يبدو في أبهى حلته، وليست إلا على أساس اليقين في أحسن طلعتة، وأكمل ما يبين في أزهى زينته!

وأقول أيضا: إن لزوم الحرص على الاستدلال بالكتاب والسنة، إنما كان ذلك كذلك لما ندين الله تعالى به، لما هما عليه من صدق بيان، وصحيح برهان.

ذلك أن غيرنا قد دلسوا، وذلك أن غيرنا قد بدلوا، وذلك أن سوانا قد قالوا على الله ما لم يقله، وقد كذبوا على أنبيائهم، فقولوهم ما لم يقولوا، وأسندوا إليهم ما لم يأت عنهم بسند صحيح.

ومن حيث إن أنبياء الله تعالى ورسله صادقون أجمعون، وهذه من مسلمات عقيدتنا فيهم عليهم السلام، ومنه فكل ما جاء عنهم مناقضا لأصل الاعتقاد في الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، هو محض افتراء، وهو عين كذب، مهما ادعوا أنه تاريخ، ومهما قالوا إنه صحيح!

ودلك على صدق قلبي أن كتابنا العظيم القرآن الكريم إنما كان يكتب فور نزوله، وحفظ بحفظ الله تعالى له من حيث قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ومن حيث قد قال الله تعالى عنه أيضا ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن حفظه تعالى لكتابه أيضا، أن قيض لذكهم رعيلا هم أصدق من الصدق في ثيابه، وهم أرفع من اليقين في سرباله، تواتر في الذكر ثناؤهم، وتضافر عن رسول الله محمد ﷺ ما قد أشاد بهم، وأعلى من شأنهم! نظير صدقهم، وكريم اهتمامهم في نقلهم.

وفي مقابل ذلك فقد دلت أصول البحث العلمي، وقد استفاضت أدلة التقصي الدراسي، وقد أبانت فروع النقل التاريخي، أن قوما حرفوا ما أنزل إلى أنبيائهم من قبل، وافتروا عليه تعالى كذبا، كما قد نالوا من منزلة أنبيائهم، لما كان قد بلغ من أقوالهم كذبا، وهم منه براء!

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ ﴾ [النساء: ٤٤-٤٦].

هذا وإن تاريخهم بهذا الاعتبار ليس يكون صدقا!

وهذا أيضا، وإن كتابهم، فإنما قد كتبوه بعد ثلاث مائة سنة من وقت نزوله!

وعاقل يقول: إن تاريخا قد كتب من بعد وفاة صاحبه، ولم يكن شاهدا على ما كتب، وتتلقيه أمة عن أخرى، حتى أفاق قوم لكتابته من بعد قرون ثلاثة، لحري أن تنسج من

حوله الأباطيل، ولقمن أن تقص من ورائه قصص وحكايات هي من أقوال أهل المصاطب لأقرب!

أما قرآننا، وأما كتابنا، فعلاوة على حفظ مولانا الله تعالى له، فإن رسوله محمدا ﷺ قد كان من أمره أن يستدعي كاتب الوحي ممن قد وقع عليه الاختيار، ليأمره أن يكتب ما نزل، ومن فيه، ومن أمامه، وعن علمه، وعن يقينه! ومنه فقد جاءنا كتابا محفوظا بحفظ ربه، ومكنونا برعاية مولاه ومنزله، سبحانه.

ومنه لزم الكلام عنه كمصدر أصيل للتلقي، وكذا أحاديث رسوله محمد ﷺ؛ لأنه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴾ [النجم: ٣].

وعليه فسوف يكون الكلام في مسألة الوحي متفرعا عن أربعة مباحث، مفهوما، ونوعا، وموقف الناس منه، وحكما. وهذا بيانها وبالله التوفيق:

المبحث الأول

مفهوم الوحي

المعنى اللغوي للوحي: قال الزمخشري: وحى أوحى إليه، ووحيت إليه، إذا كلمته عما تخفيه عن غيره، ووحى وحيا: كتب^(١).

فالوحي كلمة تدل على معان؛ منها: الإشارة، والإيماء، والكتابة، والسرعة، والصوت، والإلقاء في الروع إلهاما وبسرعة وبشدة، ليبقى أثره في النفس^(٢).

وأصله: إعلام في خفاء، وله صور عدة، وهي كلها تتم في خفاء، فهو الإشارة السريعة، ولتضمنه السرعة قيل: أمر وحي للكلام على سبيل الرمز^(٣).

(١) أساس البلاغة للزمخشري: ١٠١

(٢) معجم ألفاظ العلم والمعرفة، عادل زاير: ٢١

(٣) المفردات، للراغب: ٥٣٠

المعنى الاصطلاحي: الوحي؛ معناه: أن يعلم الله - تعالى - من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر.

المبحث الثاني

نوع الوحي

ووحينا نوعان اثنان، حفظا بحفظ الرحمن، وجاءا متواترين، كلا الاثنین، أعالجهما في مطلبین.

المطلب الأول

القرآن الكريم

فأما أولاهما فهو حبل الله المتين، وهو الكتاب المجيد، والذكر الحكيم، والكتاب المنير، والتبيان المبين، والنور المبين، والصراط المستقيم، وشفاء الصدور وهدى القلوب، خير الكلام وصدق البرهان، وعبير الروح وحياة الإنسان، وبلاغ رب العالمين، وقول خالقنا العظيم، ونقل سيدنا جبرائيل، وتلاوة سيد المرسلين، وكتابة الصحابة والصديقين، وهو الهدى والنور، وإنه لتكسوه حلاوته، وإنه لتعلوه طلاوته، وهو الصق كأصدق ما يكون صدق، وهو أحسن الحديث كأحق ما يكون الحديث، وهو شفاء الصدور، وهو السعادة والسرور، والرضا والحبور، والقول الفصل وليس بالهزل، من قال به صدق، ومتن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن عمل به أجر، ومن قرأه ذكر، ومن استشفى به شفي، ومن تركه من جبار قصمه الله، وهو مائدة الله، وبرهانه، وقوله وفصله، وأمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ووعدته ووعدته، وهدية وتهديده، وزجره، ومطلقه ومقيده، وناسخه ومنسوخه، ومكيه ومدنيه، وهو كتاب الإسلام والسلام، والأمن والإيمان، وهو السبع المثاني والقرآن العظيم، وهو الهادي لكل طريق أقوم، وهو المؤدي لكل سبيل أحسن، وهو الشافي من كل داء أعضل، ولا تستطيعه البطلة، قامت به الدنيا سعيدة يوم أن عملت بأحكامه، وتيسرت يوم أن أمرت بأمره ونهت عن نهيه،

فتحت به الآفاق، وألانت به القلوب، وأحيت به العقول، فيه الجنان والأنهار، جزاء للأبرار، وذكرت فيه جحيم ونار، عقابا للكفرة والفجار، هو كلية الكليات وأصول القواعد والشرائع والفرائد والفقهيات، ومنابع الحكم وموارد السياسة، ومواطن الكياسة وحسن الريادة، وغذاء الأبدان وحياة الإنسان. وهو جزء الأجزاء، وهو عام العموم، وهو خاص الخصوص، ومدحة التالين، وترنيمة أهل الصلاح، وتلاوة أهل الفلاح!

وهو الذي لم تجد الجن إذ قد سمعته إلا أن قالت ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۖ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَتَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَتَقَوْمَنَا أَحْيِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]

وقال الله تعالى عنه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥]

هذا هو القرآن!

جاء في القرآن وعنه ما يلي، فارعني سمعك، يا رعاك مولاك، وسدد خطاك!

﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ ۝ وَبَشِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَعَفُّوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُعَذِّبْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَّا

إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ الْآحِينَ يَسْتَعْشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ ﴿هود: ١-٧﴾

وجاء في القرآن وعنه ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْكُمْ لِتَنْشَهُدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩]

وجاء عنه وفيه ﴿ وَلَوْ أَنْ قُوتُنَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتِ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَمَنْ يَأْتِسُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد: ٣١]

وجاء عنه وفيه ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١]

ومجد الله تعالى نفسه فيه، فقال سبحانه ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]

المطلب الثاني

السنة النبوية الشريفة

ولم أشأ أن أقول عنوانا: إنه الحديث الشريف وحسب، ذلك أن السنة شاملة لقول و فعل و تقرير، وكل ذلك أعم من قولنا الحديث الشريف، لأنه بذلكم يكون ابتسارا لقسيم القرآن، ومبين الذكر، ومفسر البيان، وشارح التبيان.

فمن حديث زيد بن أرقم: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا؛ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي. فقال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. وفي رواية: كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به، كان على الهدى، ومن أخطأه ضل. وفي رواية: دخلنا عليه فقلنا له: لقد رأيت خيرا؛ لقد صاحبت رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وصليت خلفه... وساق الحديث، غير أنه قال: ألا وإنني تارك فيكم ثقلين؛ أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة، وفيه: فقلنا: من أهل بيته؟ نسأؤه؟ قال: لا، وإيم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها أهل بيته أصله، وعصبتة الذين حرموا الصدقة بعده^(١).

وعن عبدالله بن عباس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، و لكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا ، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله، وسنة نبيه^(٢).

ومن حديث المقدم بن معدي كرب: ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه ، فإن لم يقرؤه فله أن يعقبهم بمثل قراه^(٣).

والوحي عموما أنواعه عديدة، فمنه ما يكون مكاملة بين العبد وربّه؛ كما كلم الله موسى تكليما، ومنه ما يكون إلهاما يقذفه الله في قلب مصطفىه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ولا يجد فيه شكّا، ومنه ما يكون مناما صادقا يجيء في تحقّقه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تبلّجه وسطوعه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل - عليه السلام - وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي^(٤).

(١) صحيح مسلم: ٢٤٠٨

(٢) صحيح الترغيب، الألباني: ٤٠

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٤

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني: ٤٦

المبحث الثالث

موقف الناس تجاه الوحي

ومن حيث كان الوحي بشقيه - الكتاب والسنة - هو المصدر الذي كان يجب أن تستقى منه أحكام الملة، وبحيث لا يمكن لأحد أن يدعي إمكانية الخروج عنه بشقيه - الكتاب والسنة - أحدهما أو كليهما، ومن حيث قد رضي بالله تعالى ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً

إلا أن نفراً غفيراً قد زين لهم الشيطان أعمالهم حين وجدوا أنه من الممكن عقلاً أن يكون لأحدهم مكنة التملص من أحكامهما، أو مسوغ الخروج من آدابهما، ولا غبار عليه في ذلكم، مما أوقعهم هم أنفسهم في برائن من الهوى والبدع والهوس الفكري والضلالات.

إذ ما فائدة الوحي ولطالما كان في زعمهم إمكانية الخروج عنه؟!

وقد قلت تكراراً، وقد فندت مراراً، أن وجود الوحيين، وهما الكتاب والسنة ضماناً للناس أجمعين ألا يقعوا في ضلال مبين، وموجب في نفس الوقت أن يفوزوا بمدحة الاتباع، ورضا رب العالمين ومندوحة الهدى والرشد والصراط المستقيم، وهما داعيان لهم أن يصلحوا من أمرهم، لطالما كانوا على الطريقة مستقيمين، لا فيها عوج من هوى، وليس فيها ميل من هوس أو انحراف. ذلك لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد جعل الخير في اتباعهما، وقد جعل الشر في استدبارهما، أحدهما أو كليهما، وذاك يوم أن قدم بين أيدي الناس أجمعين ذلكم المنهج القويم في قوله ﷺ من حديث

مالك بن أنس رضي الله تعالى عنهما (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم)^(١).

المبحث الرابع

وجوب الالتزام بالوحيين

واستفاضت آيات الذكر الحكيم على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وهما الوحيان. وذلكم نراه في قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والمعنى: أطيعوا، أيها المؤمنون، ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء.

(وَلَا تَنَازَعُوا)، أي: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم، (فَتَفْشَلُوا)، أي: فتضعفوا وتجنوا، وتذهب ريحكم. يعني: من البأس والكثرة. وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل^(١).

وانظر إلى دقة الوجوب في طاعة الأمر (وَأَطِيعُوا) لكيلا تبقى لأحد من بقية من قول يزعم به مكنة الخروج على الوحيين. أو دالة النكوص عن النورين^(٢)!

وانظر إلى ما يقتضيه الأمر في عقد المؤمنين من كونه دالا على الانقياد، ومن كونه موجبا للتكرار، ومن كونه دالا على الاستمرار، ومن كونه دالا على الفورية! وكل هذه

(١) التمهيد، ابن عبد البر، الصفحة أو الرقم: ٣٣١ / ٢٤، أخرجه مالك في ((الموطأ)) (٢/ ٨٩٩). وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: محفوظ معروف مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد.

(٢) تفسير الطبري عند هذه الآية.

الخصائص للأمر تجعل من صاحبه يوم أن يكون على ذلكم عبدا ربانيا يحفه القبول، ويحيط به التوفيق، ويناله النصر المبين.

أما حين تتلعثم النفوس، وحين تجادل في الأمر، وأما حين تتلكأ في الأخذ به، وأما حين تراها تأخذه على محامل الجدل يوم أن يكون مطابقا لهواها، وأما حين تنفر منه نفرة العرين حين تراه مخالفا لمراد نفسها الأمانة، فهي نفوس حينئذ قد أهوت بنفسها إلى حيث مهاوي الردى، وإلى حيث كان الخسران، وإلى حيث كان البوار، والله المستعان!

وانظر إلى نتيجة الخروج المرة إن حدث (وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ). وما ينطوي عليه من وبال تعود مرارته على أولاء من قد سولت لهم أنفسهم زعما أحقية الخروج عن الوحيين، سواء فيما دق أو جل من أمور الحياة المختلفة، وأصول التعامل المتباينة، ذلكم لأن الإنسان محدودة قدراته فيما وراء خلق الله تعالى له لمعرفة ما ينفعه كله، أو لمعرفة ما يضره كله.

ومنه ما سبق من قوله ﷺ (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم)^(١).

(١) سبق تخريجه

الفصل الثاني: الأمر والتاريخ

هذا الفصل متضمن لمسألتين متعاقبتين، أتناول الأولى بيانا للأمر في مبحث أول.

وأخصص المبحث الثاني لذكر حركة التاريخ ومسائله، على نحو هذا بيانه:

المبحث الأول

دلالة الأمر في القرآن الكريم

مدخل للمسألة:

ولأن درسنا محصور في الكلام حول (دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن)، لذا كان لازما التعرض للأمر من حيث تعريفه، وموارد صيغه، لغة واصطلاحا.

ذلك لأنني أستشعر أن القرآن كله أمر ونهي، وإنما جاء خبره خادما لهما، وإنما جاء قصصه تبيانا لكل، ودفعاً لقيد علم قد لا تحيط به الأفهام، وإنما جاء قصصا أو خبرا كيما يصدق عليه القبول، وكيما يحالفه الانقياد بنفوس راضية، وبقلوب واعية.

وذلك لأنني أفهم أن الذكر الحكيم كله دائر بين أمر صريح وأمر آخر ضمني، ومثله نهى صريح وآخر ضمني!

وما كان من حكم هنا أو هناك، أو قصص هنا أو هناك، أو خبر هنا أو هناك، وإنما هو لتأكيد أمر وتأصيله في النفوس، وما كان من نهى هنا أو هناك، وإنما قد جاء أيضا لتركيز نفرة النفوس منه. لتزكو نفوس، ولتعمر قلوب بمحبة ربها ومولاها، ولتهنأ أرواح بدين خالقها الكبير المتعال.

واستشعاري هذا ليس من فراغ قد نبع!

وإنما من خلال ما تمليه طبيعة دين الله تعالى الإسلام من كونه أمرا بعبادة الله تعالى وحده بلا شريك، ونهيا عن ضده وهو الشرك به تعالى.

ومنه أفهم أن يجيء النظم كله خادما لهذا المعنى الكريم.

وإن قالوا بأن القرآن الكريم إنما هو بين بين أقسام ثلاثة محصورة في ذكر التوحيد، ومآل الموحدين، وذكر المشركين، ومصير الكافرين، وأخبار هؤلاء وأولاء وقصصهم، وأحكام وتشريعات خادمة للتوحيد ومبينة سبيل الموحدين، كيما يعبدوا ربهم على بصيرة منه ونور وهدى وصراط مستقيم. لتبدو العبرة، ولتظهر العظة من فعل هؤلاء وأولاء أيضا.

ومنه كان عزمي أن أتناول ما جاء في هذا الدرس من ذلكم باب، كون أن القرآن الحكيم كله كما قلت إنما جاء خادما لمعاني التوحيد أمرا به ونهيا عن ضده.

وإن كان من نافلة القول أن أذكر ما ذكره أهل علم الأصول من ضرورة أن كل أمر يقابله نهى عن ضده، وكذا فكل نهى يقابله أمر بعكسه.

وبه سيكون كلامي حقا لا ريب فيه، ومنه سيبدو قلبي صدقا لا شك فيه!

ولسوف تدور دوائر الحديث حول ذلكم معنى من خلال ما سيجده قارئ كريم نال طرحي شرفا بنظرته، وازدان بحثي بهاء بمطالعتة وقراءته!

ومنه أيضا تتضح الجولات التي سوف يجولها معي أخ قارئ كريم، ونحن نستطلع معا أسراراً، ونحن نرصد معا أخباراً، ونحن نتبع معا أنواراً.

ونغترف معا ينابيع لا قليلة بل كثرتها كثر الذهب من لمعانه، وهاطلة كقطرات ماء طهور تنزل من السماء ليحي به الله تعالى بلدة ميتا.

وكذلك قرأنا، وكذلك كتابنا، فيه الهدى كله فلا تبقى منه بقية، إلا ولنا فيها خبر، ولا يؤمر منه بأمر أو ينهى بنهى إلا ولنا منه معتبر، ويحوي النور ليستطيل به على كل مزية، وفيه الحبور والسرور، ببركة من أنزله رب كريم غفور.

سامق في معناه، رفيع في مغزاه، سام في هداه، وحلاوة مبناه، وإعجاز فحواه.

وأكرر أن القرآن المجيد إبان عرضه لموضوعات الأمر ولوازمه، ولخصوص النهي وموجبه، ومن ثم وهو يتناول ذلكم من خلال شحذ لهمم، نحو حشد قصص هادف، أو خبر يقين، فإنما هو فاعل ذلك كيما تتلقى الأفهام أمر ربها بحسن قبول وانقياد، وكيما تطيع أمر ربها بجميل إسلاس وصدق وتسليم.

وما ذاك إلا لأن الخبر قصصا له عمله في الأفتدة، وله جرسه في الألباب، ليطلع به امرؤ له في محبة واختيار إلى موجبه في حسن طاعة للرحمن، وفي محبة أمر للديان سبحانه.

ولأن القصص جنده تعالى على ما قيل، وقد تزينت آيات كتابه به، فكان منه هذا الذي أقول، وكان به ذلكم الوصول إلى ذكر ما تأصل فيه من أصول، واتضح من خلاله سره، وانسبر من أمامه غوره، وانكشف من ورائه هدفه!

إذ لما كانت النفوس حظوظها كثيرة، وإذ لما كانت الأرواح جنودا مجندة، وما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وكان منه مجيء ثلث الكتاب معالجا للأرواح، وأخذًا بلب القلوب سيرا حثيثا إلى مشارق الهدى، ومطالع النور فيه، وذلكم لما قد حواه من قصص منيف، ولما قد تضمنه من خبر باسق حصيف!

ومن ثم ليعالج ثلثاه الآخرين ما كان ثم من وراء ذلكم بحسن انقياد، وصدق تسليم، لتتال النفوس حظها من الجزاء الحسن الجميل، ولتظفر الألباب برضوان من الله أكبر، يوم أن ائتلف قلبها مع قلبها، تصديقا بأمر مولاه الرحمن، وأخذًا بسنة نبيه العدنان

ﷺ.

ومنه أكرر أيضا أن منطلقنا سوف يكون من ذلكم جانب، ترسما لخطي أمر، أو تتبعاً لموارد معناه، أو استطلاعاً لما يؤول إليه، أو ما يقاربه، أو ما يناظره، لينفسح ركب المعاني، ولتنكشف أسرار الخطاب، ولتشرق أنوار التنزيل، ليبدو الكلام جميلاً في حبه، وليشرق البيان مؤثراً في جرسه، آخذاً بالألباب، كما أريد له أن يكون، حافظاً مبيناً لمعاني الكتاب، وموقناً بمآلات الخطاب.

والله تعالى هو المدعو أن أنال توفيقاً من توفيقه، والله تعالى هو المرجو أن يتحفني بجميل عطائه، وأن يمنحني خطاباً فصلاً، وأن يرزقني كلما بيناً، وأن يمنحني قولاً لينا، لأسطر به باقة تسر الناظرين، لتكون زاداً لكل راغب في الهدى، ولتبقى عوناً لكل قاصد للرشاد.

وهو سبحانه الغني، وأنا عبده الفقير الخاضع الذليل، وقفت على بابه راجياً التوفيق، وانطرحت بين يديه مؤملاً السداد، وألححت على جنبه أن يلهمني التسديد في البيان، وإطلالة البلاغ، كيما يكون مقبولا لدى كل قارئ كريم، وكيما يكون مفيداً لكل رشيد، ينهل من عذب فرائده، ويتنسم من عبير زهره وثمره، والله تعالى من وراء القصد، ومن أمامه، وهو يهدي السبيل.

وإني للتمس من قارئ كريم أن يعذر أخاه فيما قد نحاه فلست إلا بشراً سوياً، لكنني من أولاء صنف أخبر عنهم رسول الهدى والنور بقوله (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)^(١).

وحسب أخ كريم تشرفت بأنسه أنني قد وقفت به على كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره، نتطلع معاً هداه وتننسم معاً عبيره وشذاه، فيما قد سطرته من حكمة، وفيما قد نشرته من بيان، وفيما قد استودعته من بليغ قول هو يحسب للذكر الحكيم. ولست إلا

(١) الوهم والإيهام، ابن القطان: ٤١٤/٥ حكم المحدث: صحيح، ورواه ابن حجر العسقلاني من طريق أنس بن مالك به وقال: إسناده قوي، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ابن حجر العسقلاني: ٤٣٩

ناقلا لما قد حواه من إعجاز، ولست إلا كاشفا عما قد تضمنه من إلف ورشد وهدى وخير.

قد أخذ بمجامع القلوب حتى كان من بيانه أنه فوق كل بيان، وحتى أضحى من بلاغته سامقا على كل قول بليغ، لتسكن نفس إلى مطالعته، وليهدأ بال لدى تلاوته، نيلا لأجر عظيم، وفوزا برضا رب كريم، كرم أنه الوهاب، وكرم أنه أنزل الكتاب، بفصل الخطاب، هداية لخياري الزمان، وإرشادا لسالكي المنهاج.

مفهوم الدلالة

لقد استشرف علماء الأصول بحوث اللغة العربية الخالدة كيما يمكنهم ذلك من استخراج الأحكام الفقهية، بناء على سبق ذلكم استثمارة لمضامين اللفظ ومعانيه كما جاء عن العرب القح في هذا اللفظ أو ذاك.

ومنه كان الكلام في دلالة النص نابعا من الكلام حول دلالة الكلمة المكونة لهذا النص، والتي يتألف منها عموما ليعطي معناه التراكمي في الأذهان.

ومنه كان واجبا أن تدرس دلالة الكلام لغة ونحوا وصرفا.

واللفظ الدال على معنى إما أن يكون مدلوله لفظا أو لا يكون والثاني بمعزل عن اعتبارنا، والذي مدلوله لفظ، فإما أن يكون لفظا مفردا أو مركبا أو كلاهما، إما أن يكون دالا على معنى، أو ليس بدال على معنى.

فهذه أربعة:

أحدها: اللفظ الدال على لفظ مفرد دال على معنى مفرد: وهو لفظ الكلمة وأنواعها وأصنافها، فإن لفظ الكلمة يتناول لفظ الاسم، وهو لفظ مفرد، ويتناول لفظ

الرجل، وهو لفظ مفرد، دال على معنى مفرد، وكذا القول في جميع أسماء الألفاظ كالقول والكلام والأمر والنهي والعام والخاص وأمثالها(١).

وثانيها: اللفظ الدال على لفظ مركب، موضوع لمعنى مركب: وهو كلفظ الخبر فإنه يتناول قولك زيد قائم وهو لفظ مركب دال على معنى مركب.

وثالثها: اللفظ الدال على لفظ مفرد لم يوضع لمعنى: وهو الحرف المعجم فإنه يتناول كل واحد من آحاد الحروف، وتلك الحروف لا تفيد شيئاً، فإن قلت أليس أنهم قالوا لفظ الألف اسم لتلك المدة؟ قلت ليس المراد من قولي الحرف لا يفيد شيئاً إلا نفس تلك المدة، وكذا القول في سائر الحروف.

ورابعها: اللفظ الدال على لفظ مركب لم يوضع لمعنى: والأشبه أنه غير موجود، لأن التركيب إنما يصار إليه لغرض الإفادة، فحيث لا إفادة فلا تركيب.

واعلم أن في البحث عن ماهية الاسم والفعل والحرف دقائق غامضة، ذكرناها في كتاب المحرر في دقائق النحو والله أعلم^(٢).

والبيان: اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع^(٣).

ومعرفة كلام ربنا الرحمن سبحانه باعتباره بياناً يعرفنا به تعالى، ومن ثم يمكن الإحاطة بدلالة أمره ونهيه سبحانه من خلال سياق الآية في هذه السورة أو تلك.

فإنه إذا عرف المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف لأنه بذلك يعرف عاداته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم، وهي عاداته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية،

(١) المحصول في علم أصول الفقه، الإمام فخر الدين الرازي، ج ١/ ٢٣٦

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٣٦، ٢٣٧

(٣) الرسالة، الإمام محمد بن إدريس الشافعي: ص ٢١، رقم ٥٣

فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى ؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عاداته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ؛ ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة ؛ عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو - صلى الله عليه وسلم - بل هي لغة قومه^(١).

ثم إنني لأستعين بالله تعالى مولاي لأجول جولات لازمة حول الأمر في مطلبين اثنين هذا بيانهما:

المطلب الأول

تعريف الأمر

أولاً: تعريف الأمر لغة:

يقول ابن فارس أمر: الأمر: واحد الأمور.

وأمرت أمراً. وأتتمرت، إذا فعلت ما أمرت به. واتتمرت: (أيضاً)، إذا فعلت فعلاً من تلقاء نفسك ومنه قوله: ويعدو على المرء ما يأتمر، والإمر: العجب. والإمارة: الولاية وكذلك الإمرة، والإمارة والأمار: العلامة. وأمرة مطاعة.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج ٤/ ٧٣، ٧٤

والأمر: الحجارة المنصودة. والأمير: ذو الأمر. وزوج المرأة أميرها. ورجل إمر على (وزن) فعل: يأتمر لكل أحد هو ضعيف الرأي. ومهرة مأمورة: كثيرة التناج، ومؤمرة أيضا. وأمر القوم أمرا: كثروا. وأمرهم الله وأمرهم. ويقال: الأمار: الموعد^(١).
والأمر في اللغة: الطلب.

وقيل: يأتي الأمر في اللغة بمعنيين:

الأول: يأتي بمعنى الحال أو الشأن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرٌ فَرَعَوْتَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] أو الحادثة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

قال الخطيب القزويني في (الإيضاح): أي شاورهم في الفعل الذي تعزم عليه، ويجمع بهذا المعنى على (أمر).

الثاني: طلب الفعل: وهو بهذا المعنى نقيض النهي، وجمعه (أوامر) فرقا بينهما كما قال الفيومي.

- وقال الجرجاني: هو قول القائل لمن دونه افعل.

- وقال الأنصاري: طلب إيجاد الفعل: (وهو حقيقة في القول المخصوص مجاز في الفعل).

- وقال المناوي: اقتضاء فعل غير كف، مدلول عليه بغير لفظ (كف)، ولا يعتبر به علو ولا استعلاء على الأصح.

قال في (غاية الوصول): (أمر) أي: اللفظ المنتظم من هذه الأحرف المسماة بألف، وميم، وراء.

(١) مجمل اللغة، ابن فارس، ج ١ / ١٠٣

والأمر: الحالة، يقال: (فلان أمره مستقيم)^(١).

وقد يأتي الأمر في اللغة بمعنى الطلب أو المأمور به.

وقد يطلق الأمر ويراد به الشيء، كقولهم: تحرك الجسم لأمر، أو لشيء. ومنه قوله

تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٢).

ثانيا: تعريف الأمر عند الأصوليين

وحد الأمر أنه القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأمور به^(٣).

وهو القول المقتضي بنفسه طاعة المأمور بفعل المأمور به^(٤).

قالوا: فالقول احتراز عما عدا الكلام والمقتضى احتراز عما عدا الأمر من أقسام الكلام وبمنفسه لقطع وهم من يحمل الأمر على العبارة فإنها لا تقتضي بنفسها وإنما يشعر بمعناها عن اصطلاح أو توقيف عليها، والطاعة احتراز عن الدعاء والرغبة من غير جزم في طلب الطاعة^(٥).

ولعل التعريف اللغوي للأمر أعم من التعريف الاصطلاحي له، ذلك لأن التعريف اللغوي متضمن للطلب وغيره من الأقوال والأفعال، في مقابل أن التعريف الاصطلاحي فإنه يدور حول طلب الفعل وحسب.

(١) كتاب: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية: ٤٢

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٤ / ٣١

(٣) المستصفي في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار الكتب العلمية — بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣، تحقيق:

محمد عبد السلام عبد الشافي: ٢٠٢ / ١

(٤) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه: ج ٢ / ٨٢

(٥) التقرير والتحجير، أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج، ويقال له ابن الموقت الحنفي

(المتوفى: ٨٧٩هـ)، ج ٢ / ٣١٠

الأمر الحاضر والأمر الاعتباري:

وعلاقة بين دراستنا وأمرين هامين أذكرهما إيجازاً:

فالأمر الحاضر: هو ما يطلب به الفعل من الحاضر، ولذا سمي به، ويقال له: الأمر بالصيغة، لأن حصوله بالصيغة المخصوصة دون اللام، كما في أمر الغائب^(١).

والأمر الاعتباري: ما لا وجود له إلا في عقل المعتبر ما دام معتبراً^(٢).

وأقف هنا وقفة، ولعلها أن تكون معينا لما أقول، وعساها أن تكون سنداً لما أرى.

وذلك من حيث إننا قد قلنا ما فائدة قصص وما وراء خبر؟!

وهو سؤال وجيه وله من الاعتبار مكان!

بيد أن جواباً عليه أيضاً يكون بقولنا:

إن ذكر قصص أو حكاية خبر إنما نفيد منه أمراً بعمل بفحواه إن كان خيراً، ونهياً عن مقتضاه إن كان شراً!

ومنه سوف نعود الكرة مرة أخرى للقول عن كل خبر أو قصص إنما هو أمر بمحتواه يوم أن كان رشداً وهدى، وإنما هو نهى عن مضمونه إذا كان غياً وعمى!

فمرجعنا نهاية أمرنا إلى أمر وإلى نهى. فتأمل والله الهادي والموفق لكل خير.

ومنه سوف يكون تناولنا للأمر بدراسة التاريخ في القرآن الكريم على نحو من هذا.

وبه أردت تأصيلاً، ومنه اتخذت سبيلاً، والله المستعان.

(١) التعريفات، الجرجاني: ٣٠

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي: ٩٢

المطلب الثاني

صيغة الأمر

وصيغ الأمر عديدة، ورأيت ذكرها إيجازاً لتعلقها بأمر بحثنا من باب واسع، وهي على نحو آت:

صيغة افعل: وهي صيغة الأمر الدالة عليه بالوضع.

والمراد بها كل ما يدل على الأمر من صيغته^(١).

صيغة اسم الفعل: ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبَتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [المائدة: ١٥٠]. ومنه قول المؤذن:

حي على الصلاة، وحي على الفلاح، اسم فعل أمر

ويقوم مقامها اسم الفعل كصه^(٢).

صيغة المضارع المقرون بلام الأمر: ومنه قوله تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفَّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]

ويأتي الأمر بمادته (أمر)، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]

كما يأتي من الفعل (كتب)، ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]

(١) حاشية العطار على شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع: ج ١/ ٦٦٥

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاظمي البضاوي (ت ١٣٨٥هـ): ج ١/ ١٢

ويأتي أيضا من الفعل (وصى)، منه قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]

ويأتي كذلك من الفعل (فرض)، ومنه قوله ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ٢].

عن عبدالله بن عمر فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر، أو صاعا من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة^(١).

صيغة الجملة الخبرية الدالة على الطلب: ومنه قوله تعالى ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وكذا قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلُنُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والسبب في جواز هذا المجاز: أن الأمر يدل على وجود الفعل، كما أن الخبر يدل عليه أيضا، فبينهما مشابهة من هذا الوجه، فصح المجاز^(٢).

ومن هذا الخبر نجد كثيرا في الكتاب المجيد.

ومنه سوف يكون اعتمادنا عليه كثيرا، إذ إن جل قصص القرآن العظيم مبتناه على الأخبار. وقوامه على الأذكار، مدحا وتقريظا وثناء، أو قدحا وسخرية وهجاء.

وإنما أقول قصص الكتاب، لأن القصص هو حكاية التاريخ، ولأنه كتابه المفتوح، ولأنه ذكره المنشور.

(١) صحيح البخاري: ١٥٠٣

(٢) المحصول، الرازي: ج ٢ / ٣٥

ترتيب الثواب على الفعل والإخبار بمحبة الله له أو لفاعله: ومنه قوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]. ومنه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ومنه قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكَمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]. وما أشبه ذلك، فإن هذه الأشياء دالة على طلب الفعل في الحمود^(١). ومنه كثير في الكتاب المجيد، وأسير سيره، وأنهج نهجه. بإذن الله تعالى.

المصدر النائب عن الفعل: ومنه قوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]

وعن ابن اسحاق قال: كان عمار بن ياسر وأبوه وأمه أهل بيت إسلام وكان بنو مخزوم يعذبونهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (صبرا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(٢).

والشاهد من الحديث: قوله ﷺ (صبرا)، فإنه مصدر نائب عن الفعل وتقديره: اصبروا آل ياسر.

وأختم هذا المطلب لأردف فأقول: إن دلالات آيات القرآن المجيد على الأمر كثيرة ومتعددة وتستقي أهميتها من ذلكم الحشد الهائل من دلالات الأمر وما يقتضيه في كتاب الله العزيز القرآن الكريم.

(١) الموافقات، الشاطبي (ت ٧٩٠) - ج ٣/ ٤٢٣

(٢) المستدرک علی الصحیحین، للحاکم النیسابوری: ٣/ ٤٧٠

ووقفه في تأمل إلى قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ ﴾ [محمد: ١٠]. لتشي أننا مأمورون وبالنص أن نسير في الأرض اعتباراً.

ونفس السياق المقتضي للأمر أفيدته أيضاً من قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١١].

ليدلنا حين الجمع بينهما أن أمراً تقتضيه الأولى، كما أن أمراً تعنيه الثانية!

ومنه يقاس على أي الذكر الحكيم الواردة بهذا الشأن.

المبحث الثاني

مدلول التاريخ

وسيكون الكلام حول التاريخ بياناً لمفهومه في مطلب أول، ويكون الحديث عن وروده في القرآن الكريم في مطلب مستقل ثان:

المطلب الأول

مفهوم التاريخ

التاريخ في اللغة يعني: تعريف الوقت. وقيل هو قلب التأخير. وقيل هو بمعنى الغاية. يقال فلان تاريخ قومه. أي ينتهي إليه شرفهم. فمعنى قولهم: قلت في تاريخ كذا. فعلت

في تاريخ كذا الشيء الذي ينتهي إليه. وقيل ليس بعربي، فإنه مصدر المؤرخ، وهو
معرب ماه روز^(١)

والتاريخ في الاصطلاح: هو العلم الذي يبحث في الوقائع والأحداث الماضية^(٢).

ويبدو ان هذا التعريف يعوزه ضبط. وذلك لأن دراسة الوقائع التاريخية والأحداث
الماضية في معزل عن استنطاقها للاعتبار بها والموعظة بشأنها يكون درسا مفرغا م معناه
يكون بحثا خاليا من مغزاه.

ونصوص الكتاب المجيد بأسرها لما تعالج نحوا من قصص ولما تذكر خبرا من أحداث
فإنما تتبعه دائما بالأمر بالاعتبار كيما يحقق الفائدة من ذكره وكيما يكون الاهتمام بأمره.

قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ
يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
يُخْرِبُونَ يَبُوءُ لَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَالْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرِ ﴿٢﴾ [الحشر: ٢].

والشاهد قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرِ ﴿٢﴾﴾. وذلك بعد ذكر خبره تعالى عن بني
النضير من بني إسرائيل.

ومنه يكون تعريف التاريخ الذي أميل إليه هو: علم دراسة أخبار الماضين مع استنتاج
العبر والعظات من وراء الحدث.

والقرآن الكريم يتناول الحركة الدائمة للإنسان، والنتائج المترتبة عليها، سواء صدرت
عن الفرد أو عن الجماعة.

(١) كشف اصطلاحات الفنون: ج ١ / ٧٥

(٢) محاضرات في الفكر والحضارة، بدري محمد فهد: ٢١

إن القرآن الكريم عبر حين عبر عن التاريخ بكلمة واحدة جامعة مانعة! وذلك حين استخدم النص القرآني كلمة (الكتاب) في غير ما موضع دلالة على تاريخ الإنسان منذ أن خلق وإلى أن غادر دنياه مقبلاً على مولاه! ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [الإسراء: ١٤].

ومنه قوله تعالى ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَ لَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩ ﴾ [الكهف: ٤٩].

المطلب الثاني

التاريخ في القرآن الكريم

ومنه كانت تفردات الكتاب المجيد حين أشار إلى مسائل التاريخ عموماً كونها من جملة ما يؤثر في الوسط المحيط أو يتأثر به، وذلك على مدى الأزمنة الثلاثة المعروفة الماضي منها والمضارع والأمر، كما ينسحب ذلك بضرورة المقال إلى الزمن المستقبل، كون أن الفرق بين المضارعة الآنية والإستقبالية إنما كان في مثل حرف السين وسوف.

وإنما قلت إحاطة الكتاب المجيد للزمان الأمر، فكما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [يونس: ١٠١] وهو ما ينسحب على الزمان المضارع أيضاً من مقتضى قوله تعالى (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١١).

وإذا كان الفعل الماضي يدل على زمن حدث في الزمن الماضي، كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦ ﴾ [الأعراف: ١١٦] فإن الفعل الماضي يفيد وقوع الحدث، أو حدوثه بشكل مطلق، فهو يدل على حدوث شيء قبل زمن التكلم، وذلك من مثل قولنا: درس، نجح، علم.. الخ.

ولكن الفعل الماضي قد يدل على الحال والاستمرار أو الاستقبال.

فقد يأتي الفعل الماضي للدلالة على الحال عند وجود قرينة، كما قال تعالى ﴿ اَللّٰنَ

حَصَّصَ الْحَقُّ ﴾ [يوسف: ٥١]. وكذلك قوله تعالى ﴿ اَللّٰنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٧١].

فالفعلان حصص وجاء ، يفيدان الحال ، وإن جاء بصيغة الماضي.

وقد يأتي الفعل الماضي ليدل على الاستمرار والتجدد في الأزمنة الثلاثة، كما قال تعالى

﴿ اِنَّ الصَّلٰوةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ كِتٰبًا مَّوْقُوْتًا ۝١٣ ﴾ [النساء: ١٠٣]. فالفعل كان في هذه الآية

يفيد أن الصلاة مفروضة من زمن نزول النص، وهو الزمان الماضي ، و الآن وهو

الزمان المضارع ، وما بعد الآن إلى يوم القيامة، وهو الزمان المستقبل.

ومن دلالة الفعل الماضي على المستقبل مجيئه على صيغة الزمان الماضي ، إلا أن وقوع

الحدث يكون في المستقبل ، وههنا يفيد التحقيق ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَسَيَرَّتْ اَلْجِبَالُ فَكَانَتْ

سَرٰٓيًا ۝٢٠ ﴾ [النبا: ٢٠] وقوله تعالى أيضا ﴿ اِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ ﴾ [النبا: ٢١].

وإنما جاء الفعل بصيغة الماضي، لتحقيق وقوعه لا محالة، فجعل بمنزلة الماضي.

كما أن الزمن الماضي قد يأتي للدلالة على الاستمرار، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ

اِثْمًا فَاِنَّمَّا يَكْسِبُهُۥٓ عَلَى نَفْسِهٖۚ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ۝١١ ﴾ [النساء: ١١]. وقوله تعالى:

﴿ فَاُولٰٓئِكَ عَسٰى اللّٰهُ اَنْ يَّعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوْرًا ۝٩٩ ﴾ [النساء: ٩٩].

وتلك شارة أخرى من شارات الإعجاز في الكتاب المجيد، كونه جاء ملائما

لكل زمان، وكونه نزل محيطا بكل زمان ومكان، وتلكم هي معجزته ولاسيما

حين ينظر إليه وهو بهذا الشمول، وهو ذلك العموم أيضا، وقد نزل في بيئة

بدائية هي أرض الجزيرة العربية آنذاك، وكان أقوامها وبالتبع هم أهل بدعوة،

وليس لهم من رصيد علمي إلا تيكم اللغة العربية التي نزل بها القرآن المجيد والذكر

الحكيم، كونه معجزا لهم، وبكل حال، كما وأنه معجز لكل زمان أهله، ولكل مكان معاصروه.

ومنه أيضا يمكن القول: إن عموم القرآن الكريم لكل زمان، وعمومه لكل مكان، مع كونه نزل في بيئة صحراوية هو ما يؤكد مرة أخرى على إعجاز هو منه أخذه بالقلوب حين تتلوه وهو يقول ﴿ أَوْ كَظَلُمْتَ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَهًا ﴾ [النور: ٤٠]. مما حدا بأغيار أن يقولوا عن هذه الآيات القرآنية إنها لا يمكن أن يكون علما بشريا!.

إن القرآن الكريم يعد التاريخ وحدة زمنية لا ينفصل فيها الماضي عن الحاضر أو المستقبل. وكما أسلفت آنفا.

وليس يكون ممكنا من خلال ذلكم تقديم إلا أن تكون حركة التاريخ إنما هي تعبير عما أراد الله تعالى أن يكون، وتلك عقيدة أهل الحق في تسيير الله تعالى لكونه، تمشيا مع النص القرآني المبين الذي يحكم ذلكم وغيره، حيث قال الله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ ﴾ [القمر: ٤٩]. وذلكم أيضا تأسيسا على أنه تعالى وحده هو مالك هذا الكون ومدبره!

وهي حقائق لاشك منبثقة عن قدرته تعالى المطلقة، وعلمه المحيط الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۖ ﴾ [فصلت: ٥٤]. وعن أوامره تعالى التي منها تكون الوقائع والأحداث التاريخية، ومن ثم وضعها في سياقها المرسوم لها أزلا من لدنه سبحانه. ويكون ذلك قائما على مستوى التاريخ البشري كله، كما أنه يكون قائما أيضا على مستوى التاريخ الكوني القدري، مما كان حاصله تناغمهما معا مع الأمر الشرعي الذي سنه الله تعالى كيما يكون نظاما للكون ليسير الناس عليه

مطمئنين إلى غد واعد بالخير واليمن والبركات، ذلك لأنه تعالى قال ﴿ وَلَوْ أَنَّ
أَهْلَ الْفُرَيْءِ ءَامَنُوا وَأَتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُم بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]

وإنما تكتسب حركة التاريخ أهميتها في القرآن الكريم ليس بإحاطتها لوقائع
التاريخ بأبعادها الزمانية فحسب، بل ببعدها الذي يغوص في أعماق النفس
البشرية فيلامس فطرة الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه
الباطني، ثم يمتد إلى نمو مداركه وقوة أحاسيسه، وإرادته المسبقة، وما تؤول
إليه هذه جميعا من معطيات حتى تعطي حركة التاريخ أبعادها الحقيقية
وتجعلها منصهرة في العلاقات الشاملة مع المصير المرسوم للكون والحياة
والإنسان.

وباعتبار أن القرآن الكريم عبر عن هذه السنن التي تسير عملية الحدث
التاريخي في نطاقه الزماني كما في نطاقه المكاني، فإنما كان على الإنسان إذن
أن يعي تلك السنن حتى يدرك ماهية حركة التاريخ، ويفيد منها ليكون له
دوره الفاعل والمؤثر تعبيرا عن وجوده الإنساني. ذلك لأنه تعالى من إكرامه
لعبدته أن جعل له مشيئة ظهرت أبعادها فيما ملكه ربه تعالى الرحمن من إرادة
واختيار!

واكتسب بحثنا إذن قوته من دلالات الأمر السالف ذكرها، كما أنه قد حقق
هدفه من خلال ذكر حركة التاريخ وبيانها على نحو سبق ذكره أيضا.

الفصل الثالث: السنن الربانية للتاريخ في القرآن المجيد

والسنن الربانية للتاريخ هي تلك القواعد والأسس التي تنبني عليها حركة التاريخ على امتداده بحيث لا يمكنها أن تتخلف زمنا دون آخر أو مكانا دون آخر.

فهي إذن قواعد عامة سننها الله تعالى في كونه الواسع الفسيح، والضارب في القدم، كما الزمان وكما المكان معا، بحيث يمكن القول أيضا إنها سنن كونية، ولا يكاد يخرج عنها أحد، ولا يكاد يستثنى منها نفي، إذ إن كل ذلك كان في علمه تعالى أنه ناموس وضع ليحكم حركة هذا أو ذاك.

وسننه تعالى في الشأن التاريخي بهذا المعنى يجب التعرض إليها ذكرا موجزا بلا خلل، ويحتمل تناولها بغير إسهاب يبعث على الملل.

وذلك من خلال عرضها في اثني عشر مبحثا، هذا ذكرها، وبالله التوفيق:

المبحث الأول

الاضطراد

بمعنى أن السنة التاريخية ليست علاقة عشوائية، وإنما هي ذات طابع موضوعي، لا تتخلف في حالات دون أخرى من تيكم الحالات والمظاهر التي يحدها الله تعالى ربنا الرحمن في كونه الممتد على مدار الزمان الضارب في القدم، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وكان التأكيد على طابع الاضطراد في السنة تأكيدا على الطابع العلمي للقانون التاريخي، وذلك لأن القانون العلمي له ما يميزه عما سواه من بقية الظنون والإرهاصات التي لا تملك من الاضطراد والتتابع وعدم التخلف ما يتمتع به ذلك السنن الرباني

للتاريخ، وما تخيم ظلاله على القانون العلمي سواء بسواء، بحيث يمكن القول إن كليهما معا يمثلان وحدة موضوعية واحدة.

ومن هنا، فقد استهدف القرآن الكريم من خلال التأكيد على طابع الاضطراد في السنة الربانية للتاريخ، أن يؤكد على الطابع العلمي لهذه السنة، وأن يخلق في الإنسان المسلم شعورا على جريان أحداث التاريخ، بحيث يكون معاشيا لها من ذلكم جانب ويحمله على ذلك صبر ويصقله في ذلكم جلد بحيث تراه متصبرا لا عشوائيا ولا مستسلما ولا ساذجا.

ومنه قوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٢﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومنه أيضا قوله تعالى ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧].

ومنه ثالثة قوله تعالى ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤]

فدلت هذه النصوص الضافية على حركة الاطراد في سنن الله تعالى الماضية الشاملة لكل الأزمنة، والعامّة على سائر الأمكنة، مما يضيفي على النص القرآني إعجازا كما أنه يهبه صفته العلمية من حيث كونه ليس كتابا عشوائيا لا في دقيق أمر - واحد - ولا في جليله.

كما وأنها تعطيه صلاحية الاستمرار في كل حال يكون عليها الإنسان، مما يمكن أن تقود به هذه المسيرة المباركة أن يكون عبدا ربانيا - بحق - . كونه سار مع القرآن المجيد حيث سار، ولم تأخذه سنة من اعوجاج، أو بدع من خيال. وهي في ذات الوقت تهب الإنسان زخما عجيبا، وهو إذ تراه منساقا في طوعية واختيار بغير تلكؤ إلى حيث أراد له النص أن يروح!

وهذه من طلاقات العبودية المحضة لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه. كما وأن هذه الصفة الإطرادية تجعل الإنسان وهو يعيش مع الكتاب المجيد علميا موضوعيا في آن واحد، فلا هو عشوائي يخبط خبط العشواء، ولا هو جاهل ليمتطي درب الجهلاء، حيث كان خطؤه أكثر من إصابته.

ومنه كان للنص الكريم هذه القدسية التي يتحلى بها العباد على مدار الزمان، وهم ينظرون إلى كتاب ربهم هذا النظر.

وكان التأكيد على طابع الاضطراد في السنة تأكيدا على الاضطراد والتتابع وعدم التخلف. وعليه فقد أدى بهم ذلك إلى أن يتعايشوا مع نظمه تأسيسا على أنه من ربهم الحق سبحانه، بحيث كان ذلكم موجبا طبيعيا لأن يقادوا به عن طوعية ومحبة واختيار.

وهم من ثم يجدون راحتهم في العيش مع كتاب الله تعالى ربهم الرحمن، تلاوة وعلمًا وعملا وتدبرا وتحكيما واستشفاء وانقيادا لأوامره ونواهيه، مساواة بمساواة، فلاهم يغلبون أمرا على نهى، ولاهم يعظمون نهيا على أمر.

المبحث الثاني

عدم المحاباة

ولئن كان من لزوم القول إشارة إلى أن المحاباة ليست من سننه تعالى في التاريخ القرآني. ذلك لأنه تعالى قال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ

اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤]

وهي شارة ربانية محكمة ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يتكئ على أريكته منتظرا مدد السماء من نصر، وكما أنه لا يتأتى لأحدهم أن ينظر من شرفته هطول السماء برزق موعود بموجب أن فلانا عبد لله تعالى!

ومنه دخول جنة الله تعالى، والفوز برضوانه، فإن له سببا، كما أن له موجبا ينضاف إلى كون العبد عبدا موحدا خالصا. ذلكم الموجب هو كونه بشرا يسري عليه ما يسري على عموم البشر من قانون الابتلاء والامتحان والاختبار، وذلكم مما يصقل إيمانه بحيث يكون ناظرا بصره إلى السماء منتظرا عون رب السماء بعد إذ كان قد أخذ بسبب، وبعد إذ كان قد ابتلي ببلاء وصبر عليه واحتسب، وكان منه ما تفضل به عليه مولاه وكسب.

وهذه الآية - في قول فريق من أهل التأويل - نزلت يوم الخندق، حين لقي المؤمنون ما لقوا من شدة الجهد، من خوف الأحزاب، وشدة أذى البرد، وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ، وعلى نحو ستأتي إشارة إليه تفصيلا في حينه من هذا البحث إن شاء الله تعالى، حيث يقول الله تعالى للمؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

ومنه جاءت آية البقرة مثالا للنعي على من أراد أن يستدبر سنن التاريخ في الأخذ بالأسباب في كل شأن كيما تسول له نفسه أن يكون حالة لا على غير سنن الله تعالى الجارية. فالله تعالى لا تعرف سننه محابة كما لا تعرف نواميسه في كونه استثناءات!

المبحث الثالث

الربانية

ويعني ذلك ارتباط كل سننه تعالى في التاريخ في الكون كله بالله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، ولا ثمة مما دق يمكنه الخروج عن ذلكم الناموس، ولا شيء مما يمكن أن يكون جليلا في عين امرئ غره ألا علاقة لذلك أمر بالله!

ذلك أن النواميس التي أودعها الله تعالى ربنا الرحمن كونه إنما كانت من عظيم لطفه وكريم تدبيره سبحانه، كيما يخلص البشرية المسكينة من عناء تفكير في حالها ومآلها، وهو إذ ذاك يمهرها بالبحث فيما وراء قدراتها، وفيما ليس مطلوبا منها، وفيما لا يدخل في طاقة تفكيرها، مهما بلغت أودعت.

ألم تر أن الله تعالى قال ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣].

وذلكم على هذا النحو إنما يستهدف شحذ همم الإنسان حتى حينما يريد أن يفيد من القوانين الموضوعية للكون، إلا أن يكون متصلا بالله تعالى ربه الذي أودع ذلكم الكون ذلكم النظام البديع في خلقه سبحانه. ومنه يستشعر الإنسان ضعفه، كما يستحضر الإنسان قدرة ربه سبحانه، ومنهما معا تروح به عبوديته لله تعالى حيثما أراد الله لها أن تكون!

ونؤكد على أن الإنسان وهو مستمر في الاستعانة بما سخره الله تعالى له في الكون على مختلف الميادين الكونية، والإفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الميادين، ليس ذلك انعزالا عن منهج الله تعالى وقدرته، لأنه الله تعالى وهذه قدرته،

ولأنه الإنسان وهذا ضعفه! وما ذاك إلا لحكمة من الله تعالى وتدبير أغنى الإنسان زخمها، كيما يتفرغ لعبادته وحده تعالى بلا شريك ينكد عليه أمر معاشه وينغص عليه أمر معاده في آن!

وصبغ سنن الله تعالى بالربانية ليس يكون من معناه إضفاء الصفة الإلهية على دراسة التاريخ والقصص القرآني. فقط هو التأمل، فقط هو الاعتبار، فقط هو السير في الكون مستتبعا آثار العظمة، ومستكنها ثمرات الإيمان به سبحانه، كيما تكون دافعة شاحذة أخذة بلب امرئ أن يكون مؤمنا، وكيما يمكنها أن تقوده إلى الاعتراف بعجزه أمام ذلكم صنع مهيب فيزداد إيمانا مع إيمانه كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤﴾ [الفتح: ٤]

والقول بإضفاء صفة الربانية عند النظر أمام دراسة أمره تعالى كما قلت ليس مخلصا فؤادا من تدبر، وليس مانعا عقلا من إعمال، وهذه هي الفارقة بين قوم مؤمنين نظروا إلى النص نظرة إيجابية أهلتهم أن يكونوا أعمدة خير، وأعضاء نماء في مجتمعاتهم، وبين قوم آخرين قعدوا في بيوتهم منتظرين مدد السماء بعونها، كيما تعالج كسلا مهينا قد دب في عروقهم، وكيما تسد خللا معييا قد سرى في دمائهم.

والنظر إلى الأمر القرآني بغير ذلكم توجه إيماني يجعل من قدرات أودعها الله تعالى عباده سرايا، كما يخلق التكليف الرباني من معناه، وإنما فقط وحسب الإنسان أن يعلم أن له مجالا رحبا مكنه ربه سبحانه منه، وكيما يتأكد لديه من معاني الإكرام الرباني له ما جعله مكلفا، ووهبه من ثم دالة الاختيار، فلا هو من بهيمة الأنعام حيث يسوسها راعيها وحسب، ولا هو من الملائكة الكرام الذين خلقوا على ما أراد الله تعالى لهم أنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

وحيثما يسير القرآن الكريم بالإنسان هذه المسيرة ليعلم فقط أنه من إكرام ربه له أن أغناه. فلا حاجة له في إعمال عقله المحدود فيه، كما أغناه أن يكون مطية للعبث فيما هو

من وراء قدرات مخلوق! وذلكم كيما يخلد الإنسان دائما مشدوها الى قدرة ربه ومولاه، تقوده إلى الإيمان بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نبيا ورسولا.

وهنا نضمن لهذه الصلة الوثيقة بين الإنسان وربّه أن تكون زادا له على طريق العبودية الخالصة لله تعالى وحده، وهو في ذات الوقت الذي ينظر فيه الى هذه السنن نظرة علمية، ينظر أيضا اليها نظرة إيمانية. ومن ثم تقودانه إلى يكون على هدي من ربه الرحمن سبحانه، ومنه يكون العون الرباني والمدد الإلهي حليفه، ذلك لأن الله تعالى قال ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ويتأكد وجوبا إذن أن الجانب الإلهي الرباني وهو جانب المحتوى والمضمون من حيث الأحكام والمناهج والتشريعات. وهذا الجانب يمثل العقيدة التي نزلت على جميع المرسلين والنبين. وقد تمثلت في مختلف الشرائع الإلهية التي نزل آخرها على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهي الشريعة التي تصلح لمختلف الأزمان والعصور ومختلف البيئات والمجتمعات البشرية، لأنها أكبر من المحيط الذي نزلت فيه، ومن البيئة التي ظهرت فيها.

ويتأكد ثانية إذن أيضا أن الجانب البشري. يقتضي أن عملية التغيير التي تقع على الميادين التاريخية إنما تكون بالجهد البشري، ويكون القائمون بها أناسا مثل سائر الناس، تتحكم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكم في مختلف الجماعات والفئات على مر الزمن. وإنما يفصلهم عن العامة ذلكم الزاد العجيب الذي أدى بهم إلى يستحضروا أمامهم سلعة الله تعالى ماثلة بين أعينهم، وتراهم إذن وقد تحقق فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلَتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

وهكذا فإن عملية التغيير التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الأبرار تجسدت في تلك الجماعة من الناس التي أرادت التغيير، وعملت له، ومن أجله جاهدت، وغلبت صالح الدين على أنفسها التي بين أجنابها، وما يقوم بذلك من بشر إلا وقد كان يملك من الزاد الإيماني ما جعله يبيع نفسه لربه سبحانه ومولاه، لأن هذه النفس هي ملك لبارئها، كما أنها في الحقيقة هي هبة من باريها، وجعل الله تعالى التضحية بها وبيعها ثمنا عظيما وهو الجنة. فما أرخصها إذن في نهج العقلاء! وما أجمله من عطاء في مخيلة الشهداء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا!

وكأنما راح بنا البيان إذن أيضا إلى أن الطابع الرباني الذي يسوقه القرآن الكريم، ليس بديلا عن التفسير الموضوعي، وإنما هو ربط هذا التفسير الموضوعي بالله سبحانه وتعالى، من أجل إتمام اتجاه الإسلام نحو التوحيد بين العلم والإيمان في تربية الإنسان المسلم.

المبحث الرابع

السنن الربانية للتاريخ ليست رهينة الصدف

وأساسه وذروة سنامه هو قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد بلغ القرآن الكريم في حرصه على تأكيد الطابع الموضوعي للسنن الربانية للتاريخ، وعدم جعلها مرتبطة بالصدف، أن كافة الأمور الغيبية أناطها في كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها أيضا.

وإلا فما أمر الله تعالى عباده المؤمنين وجنده المجاهدين أن يعدوا عدتهم لملاقاة عدو الله وعدوهم، كما قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ۝٦٠ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومنه فإن عملية الإمداد الإلهي بالنص، وإمهارة بالواقعية فإنما كان ذلكم على الوجه الذي يجعل منها مساهمة كبيرة في إكساب النص إيجابيته، ومرة أخرى في إعطائه حيويته، كيما لا يكون جامدا أمام منحنيات التنفيذ المتباينة، وكيما يكون مرنا في مواجهة مختلف معوقات الطريق الراهنة.

وعليه فإن عملية الإمداد الرباني لم تكن باعتبارها سندا للفتنة المؤمنة تأسيسا على أنه غيب محض، وإنما تطبيقا لقاعدة الإيجابية التي يتفرد بها السنن القرآني عما سواه، وإنما هي أيضا أعمال لهذا المنهج في التصور الإسلامي كله، وعلى مدار التاريخ كله أيضا.

وإلا فما كان لنا أن نرى مثل خالد بن الوليد وعمار بن ياسر وبلال بن رباح وأمثال هؤلاء القمم السامقة التي ضربت مثلا في الفداء عظيما لم يكن القول بأن عملها ذاك كان رهين عشوائية بقدر ما كان نابعا من نظر واقعي إيجابي إلى سننه تعالى التي أوجدها في كونه، ومن ثم قد اصطبغت بها قلوب عامرة بالإيمان والتقوى والعطاء والذود عن المنهج والتضحية في سبيل مولاها الملك الحق الرحيم سبحانه.

ولست أسوق كلاما مفرغا ولست أقول كلاما لا على أساس فسائلوا التاريخ عنا وقصصه في ذلكم وافية وأخباره في ذلكم متواترة قد أذهلت كل باحث وقد أخذت بلب كل منصف!

ودلك على صدق قلبي ما سوف أحكيه لك أخي فأرعني سمعك وفقك مولاك. وسدد على الدرب خطاك:

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر أحداث غزوة الخندق (وذكر الحافظ البيهقي في (دلائل النبوة): عن ابن إسحاق في موضع آخر من السيرة قال: خرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد، فنادى من يبارز؟

فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله.

فقال: «إنه عمرو اجلس».

ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟

فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إلي رجلا؟

فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؟

فقال: «اجلس».

ثم نادى الثالثة فقال:

لجمعهم هل من مبارز

ولقد بجحت من النداء

موقف القرن المناجز

ووقفت إذ جبن المشجع

متسرعا قبل الهزاهز

ولذاك إني لم أزل

والجود من خير الغرائز

إن الشجاعة في الفتى

قال: فقام علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا.

فقال: «إنه عمرو».

فقال: وإن كان عمرا. فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

مجيب صوتك غير عاجز

لا تعجلن فقد أتاك

والصدق منجي كل فائز

في نية وبصيرة

م عليك نائحة الجنائز

إني لأرجو أن أقي

يبقى ذكرها عند الهزاهز

من ضربة نجلاء

فقال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا علي.

قال: ابن عبد مناف؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهرق دمك؟

فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهرق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبا واستقبله علي بدرقته، فضربه عمرو في درقته ففقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على جبل عاتقه فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرفنا أن عليا قد قتله، فثم يقول علي:

عني وعنهم أخروا أصحابي

أعلي تقتحم الفوارس هكذا

ومصمم في الرأس ليس بنابي

اليوم يعني الفرار حفيظتي

إلى أن قال:

وعبدت رب محمد بصواب

عبد الحجارة من سفاهة رأيه

إلى آخرها.

قال: ثم أقبل علي نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: ضربته فاتقاني بسوءته، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه.

قال: وخرجت خيوله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق^(١).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٢٢

والشاهد أنه لولا ذلكم الزاد من تقوى، وأنه لولا ذلكم المعين الفطري من خشية، وأنه لولا ذلكم الرصيد الكامن في القلوب من تفاعل إيجابية مع ربانية صادقة فما كان لذلكم الجيل أن ينحوا نحو هذا شأنه بائعا نفسه في سبيل الله تعالى ربه الرحمن سبحانه.

وهذا درس واحد من دروس مسيرة ألف وأربعمائة سنة، وما زال التاريخ يمدنا يوما إثر أخيه بتساقط شراذم الكفر والظلم والبهتان أمام سيوف الله تعالى المسلولة وإلى يوم الدين، فذلك إذن على أن العشوائية والصدف ليست من ديننا وليست من مذهبنا. والله المستعان.

وليس يغيب عن بال أحدنا ونظره ما كفاه شرفا أن يوصف ب (أسد الصحراء)! ذلكم الإمام المجاهد عمر المختار وهو إذ ذاك يلقي الأعداء دروسا في القيم، ودروسا في النضال، ودروسا في مدى رخص الدنيا وكل ما فيها.

وقد ورثنا التاريخ مقولات عظام هي غالية لا كغلاء الذهب، بل هي أنبل منه ولا قياس!

وما ذاك إلا لعظمهم من عظم دين حملوه، ومن سؤدد مثال مثلوه، حتى كانوا قادة في النفوس لغيرهم، قبل أن يكونوا قدوة خير في القلوب لسواهم!

وقد مر بنا التنزيل الحكيم من قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وكيف كان توظيفها لشحذ هم العصبة المسلمة لا لكي تتكى على مدد الله تعالى في المعركة وحسب، وإنما لتستلهم ربها بما أودع فيها من ضرورة الأخذ بالسبب كيما لا ينشأ جيل فوضوي عشوائي تكون حاجته أمام عينيه بمجرد أن تهفو إليه نفسه دونما عمل أو كفاح لتحصيل المرغوب أو دفع المرهوب.

وهو من ثم عامل حاسم في تنشئة جيل يعطي الدرس للآخرين أن الأخذ بالأسباب
تماما بتمام مع عونه تعالى - وكل من عونه بلا ريب - ومن ثم يمكن لهذا المدد الرباني
أن يلحق تاليا ليكون الأخذ بالسبب سابقا عليه.

ولكي تتأكد لك هذه الحقيقة أيضا، انظر إلى قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ
لَكُمْ أَنِّي مُبِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ۝٩ ﴾ [الأنفال: ٩]

إذ كانت العصبة المؤمنة في أرض المعركة مجابهة عدوها بما أوتيت من قوة في عددها
وعتادها. وها هي تستمطر عونه ومدده استغاثة به سبحانه ولما لم يكن لها إلا هو سبحانه
جاءهم المدد الرباني في لا فترة أنبأك عنها حرف الفاء في قوله تعالى (فاستجاب) الدالة
على مطلق التعقيب، وأنه لا ثمة فترة تكون زمنا في مقياس التاريخ، ولتدلنا في نفس
الوقت على مدى العون الرباني الذي ينتظر من العبد فقط أن يعلم الله تعالى من صدق
نواياه، ومن ثم عملا يصدق هذه النوايا الحسنة، ليرى كم هو عونه تعالى، وليجد أمامه
كما هادرا من الأعطيات والإمدادات الإلهية الكريمة، في انسياب رباني كريم، لا تخطئ
طريقها، إلى حيث أراد الله تعالى لها ربها. وهو ما أكد الحقيقة وجعلها جلية لتكون
نصب أعين العاملين في الحقل الإسلامي الكريم.

الكفر سبب للعيش النكد

ويتأكد ذلك المنحى من قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ
لَّهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝١٢٤ ﴾ [طه: ١٢٤].

وهذا حاله يقدم له الهدى فينبذه، ويرشد إليه الصلاح فيتنبكه، ويتولى عنه ولم يقبله ولم
يستجب له، بل يرفضه ويلفظه، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر
ربه.

ولذا فما ظنك به إلا (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)؟!

فمعيشتهم ضيقة، ومنازلهم لا تكاد تسعهم، وأماكنهم لا تكاد تفسح لهم بل، وأنفسهم التي بين جنوبهم تكاد هاربة منهم، مولية أدبارها عن أولاء يسوقونها إلى الهلاك والتعاسة والمصير الحالك السواد البهيم!

ودلك على شمول معاني الضنك من شدة وضيق ما حفل به لفظ الضنك المختار بعناية ربانية ليسري الوصف به على كل من الذكر والأنثى والواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد، وهذه فوق أنها من مهارات الاستخدام اللغوي الدقيق في القرآن المجيد لتعطيه معنى الشمول والامتداد، إلا أنها في ذات الوقت تضيف على اللفظ نفسه هبة ورعدة كان من حاصلهما سوق الإنسان هربا وفرارا إلى ذكر الله تعالى ربه الرحمن. أو هكذا كان المأمول!

وذكره تعالى المقصود ههنا وفي كل موضع من كتابه سبحانه هو أعمال دينه في النفس وفي الضمير وفي الواقع وفي الحياة والقيم والموازن والتصرفات حتى لا تبقى باقية من حياته إلا وهي كلها مسبحة قانتة لله تعالى ربها الرحمن.

ذلك وأنه بجانب هذه الآية السالفة جاءت آيات أخر في كتاب الله تعالى الذكر الحكيم القرآن الكريم حثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية، بغية تكوين نظرة استقرائية للخروج بنواميس وسنن كونية لما يحدث في جوانب التاريخ المتباينة.

ومنه قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]. أي أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

(حيث بين سبحانه أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان، ثم وصل هذا بالنظر، أي: ألم يسر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم

فينظروا بقلوبهم كيف كان آخر أمر الكافرين قبلهم. دمر الله عليهم أي أهلكتهم واستأصلهم. يقال: دمره تدميرا، ودمر عليه بمعنى. ثم تواعد مشركي مكة فقال: وللكافرين أمثالها أي: أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير. وقال الزجاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة، أي: وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا^(١).

وهو اعتبار بالسنن الإلهية التي أودعها الله تعالى كونه الواسع الفسيح، ومن ثم قد أمرنا بالسير والنظر والاعتبار، ولعل الناس أن يؤمنوا.

وحيثية بديعة وجب التنويه إليها. ذلك أن الله تعالى كما أنه سبحانه لم يترك عبده هملا بلا شرع يهذب طريقهم ليسعدوا، فإنه في ذات الوقت وضع أمامهم تاريخا طويلا للبشرية أثناء سيرها الطويل أيضا، ليعرفوا هم أنفسهم بأنفسهم سيرة هؤلاء المهتدين، وما أسعدهم به ربهم في الدنيا ليكون عامل صدق على ما أعد له في الآخرة. ومن جانب آخر وضع نصب أعينهم سير أولاء الغابرين من المعرضين وما قد لحق بهم من العذاب والتهيه والخسف والريح العاتية وغيره مما يكون ما أعد أمامه من عذاب شديد في الآخرة أيضا لا شيء يذكر! إن هو إلا أمر هين، وإن هو إلا شيء يسير!

ومن هذا وذاك تبقى دالة الاختيار لعافل، والطريقان أمامه، وهذه نتائج ما حل بكل فتأمل!

بيد أن معنى يستشعر من سياق الآية الكريمة - ولاتتأباه - مقتضاه ما أعد الله تعالى للكافرين عموما ولأهل قريش خصوصا من كون أن العذاب المحيق بأولاء قد أعد الله تعالى أمثاله لأولاء الشاردين عن الحق والهدى والصلاح والفلاح!

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ١٦ / ٢٣٤

ويزيدك رهبة تشخص منها الأبصار ذلكم التشخيص في العذاب وذلكم التصوير الحي الذي ما فتى الذكر الحكيم إلا أن يسوقه على ذلكم النحو المؤثر في الوجدان وفي الضمائر وفي السلوك لتنساق له قلوب مؤمنة مخبئة قانتة!

ولأنه كان يمكن أن يكون التنزيل بأن الله تعالى قد أعد للكافرين مثله فقط وحسب! إلا أن طبيعة الشاردين وكفرهم المركب ومناصبتهم العداء لله تعالى ولرسوله ولشرعه تجعل من نصب العذاب أمثالا نتيجة مقبولة ممهورة بالقبول ولما كان حالهم ذلكم أيضا.

وإنما يظل القرآن الحكيم رافدا للمعاني العظام التي تجري في صفحات الكون الفسيح بأمره تعالى. ذلك لأنك ترى كما أرى أخي القارئ الكريم صورة أخرى تمعن في كأن هذه الأمثال من العذاب المهين إنما قد أعدت سلفا للكافرين! كما وأنها أعدت لهم على سبيل الخصوصية فلا أحد يشاركهم في ذلكم من شيء، وهو منظر يملأ القلوب رعدة، كما أنه يأخذ بتلايب القلوب خشية ورهبة في آن، والله المستعان.

ودلك على عظيم قدرته تعالى إحاطته علما بالكافرين - كل الكافرين - فلا أحد يمكنه الإفلات من العذاب، ولا أحد يمكنه الهروب من الحساب، فكلهم في قبضته تعالى و

﴿لَقَدْ أَخَصَلْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ عِندَآئِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝﴾ [مريم: ٩٤-٩٥]

ولأن الآية إنما نزلت فيهم تحريكا لقلوبهم، واستجاشة ضمائرهم ليتفاعلوا مع ذلكم النظم العظيم في تركيبه وهداياته. ومن حيث قد نفروا، ومن حيث قد أبوا إلا البقاء على صنعة الكفر الممهورة بالعناد والصد والتنكيل بأهل الدعوات، فقد كان حاسما أيضا أن تنسلخ عنهم ولاية الله تعالى، ليبقوا هكذا عراة من كل حفيظ، وليسلمهم ربهم الرحمن سبحانه إلى حيث قد اختاروا من العذاب الأليم والضنك الشديد والله المستعان.

وعلى جانب آخر يقدم الله تعالى ولايته ونصره وتأييده لعصبة مؤمنة كان من فلاحها ذلكم التاج الرباني الذي ألبسها الله تعالى إياه وهو ولايته تعالى لهم!

تكم الولاية التي كان من مقتضاها استجابة الله تعالى لهذا الصنف العجيب من الناس في كل شأن من شؤونه حتى ساغ منه أن نفهم كثيرا ما معنى قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]. وذلكم بكل معنى ممكن أن تتحملة بلاغة الجملة الإسمية (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بدلالة النفي الأبدي، كما في دلالة الثبوت والاستمرار ألا خوف عليهم أبدا.

كما أنه أيضا وفي دلالة معكوسة من حلول الأمن بهم بكل معانيه، والرضا والقبول والراحة والطمأنينة والأمن والسلام، وكلها معان تبعث على النعيم، وتمنح صاحبها طاقة نحو التأمل والشكر والعرفان لمن أسدى الجميل، ولمن أغدق الخير واللطف الإحسان سبحانه!

ومنه أيضا تتوالى عليهم نسمات الفرح كله، كما أنهم لا يحزنون أبدا، وهو أيضا ما تكنه دلالات الجملة الفعلية (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بدلالاتها على الاستمرار، وعدم الانقطاع معا. وبسط هذا وذاك له موضع آخر.

ومنه أيضا قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

يقول تعالى ذكره: أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عقبي تكذيبهم (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ) يقول: كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبين من قريش أكثر عددا من هؤلاء

وأشد بطشا، وأقوى قوة، وأبقى في الأرض آثارا، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع^(١).

(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٥﴾) أي فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا. لم يغن عنهم ما كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئا. ولكنهم بادوا جميعا فهلكوا.

وتحقيق وقوع عدم الإغناء عنهم بدلالة الفعل الماضي الموغلة في بيان معني التحقيق والوقوع والتأكيد، كل ذلك له وقعه أيضا على تيكم نفوس لو أنها أزالتم بعضا من غشاوة الجهل عنها لتقبل ذلكم التحدي الإلهي بوقوع الهلاك بهم من ناحية، وعدم إغناء ما صنعوا - أيا ما صنعوا - لأنفسهم تسترا به من عذابه تعالى.

لكنها العقول الخائبة أبدا في تصورها، يوم أن تستهين بنكال الله تعالى، يوم أن يريد أن يحل بوقوم عتوا، ويوم أن يشاء أن يحل بهم العذاب الأليم.

وهي نفوس على مر التاريخ تجد لها نوع وجود! وانظر إلى ذلكم السجال بين الحق متمثلا في نوح عليه السلام، وبين الباطل متمثلا في ولده حين قال الله تعالى ربنا الرحمن على لسان ذلكم الابن العيي ﴿ قَالَ سَأُوْىٰٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَّعَصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ ۖ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٣].

وهو اعتبار تمليه طبائع العقول السليمة، والباحثة عن حق، أو على الأقل قل إنها لتدعن للخير والهدى، وتشربهما الأنفس التواقفة إلى الصلاح والخير والفلاح، حينما تعرض عليها تيكم السنن في ثوب مهيب من التأثير، وبما رسم فيها من لوحة تعبيرية صادقة يكاد النص وقد أبرزها في صورة حية ماثلة للعيان.

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ٢٤ / ١١٠

فلهؤلاء الذين غربوا عن الحق من قومك يا محمد فيهم معتبر إن اعتبروا ، ومتعظ إن اتعظوا ، وإن بأسنا إذا حل بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع ، ولم يمنعه مانع ، وهو بهم إن لم ينيبوا إلى تصديقك واقع .

وهي رهبة في ذات الوقت يوم أن ترى الصورة بهذا التمثيل البياني الكريم وإذ بهم قد بادوا جميعا ! وتصور أنهم قد بادوا جميعا ، ذلك لأنها حينئذ لا تبقي ولا تذر ، إذ حل بهم العذاب الأليم من كل حذب وصوب ، حتى وكأنما صنعوا من أحجة تقيهم العذاب هي كالذر أمام رياح العذاب الرباني العاتية ، ومن حيث لم يحتسبوا فتأمل !

ومنه قوله تعالى ﴿ فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦] .

{ فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } أي: كم من قرية أهلكتها ، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ } أي: مكذبة لرسولها ، { فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } قال الضحاك: سقوفها ، أي: قد خربت وتعطلت حواضرها ، { وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ } أي: لا يستقى منها ، ولا يرد لها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها { وَقَصْرِ مَشِيدٍ } قال عكرمة: يعني: المبيض بالجلس ، وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك . وقال آخرون: هو المنيف المرتفع . وقال آخرون: المشيد: المنيع الحصين ، وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم ؛ كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] .

وقوله: ﴿ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضا ، وذلك كاف .

قال ابن أبي الدنيا في كتاب "التفكير والاعتبار": حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سح في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبر، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا.

وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحي قلبك بالمواعظ، ونوره بالتفكير، وموته بالزهد، وقوه باليقين، وذله بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسيره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلوا، وعم انقلبوا، أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

(فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) أي: فيعتبرون بها.

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر.

المبحث الخامس

مشيئة الرحمن، ومشية الإنسان

وهذا باب واسع على كل حال.

لكنني سأحاول وسعا أن أفيه قدرا من لزومه، وشيئا من بيانه، يبرز معناه، ويبين منحاها.

فقد آمن بسببه قوم كثيرون، وقد ضل بسببه أناس آخرون.

ومنه وجبت الإشارة، وبه تتضح الإشارة.

ذلك لأنه تعالى له المشيئة المطلقة من كل قيد، وله سبحانه إرادة لاتحد بحد.

قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الفصص: ٦٨].

وقال تعالى ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [١٥] ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [١٦] [البروج: ١٥-١٦].

ولله تعالى إرادتان: أولاهما شرعية، وأخرهما قدرية.

فأما الإرادة الشرعية، فكقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله سبحانه ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والإرادة الشرعية دالة بوضوحها على أنه تعالى لا يجب الذنوب والمعاصي والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاهما، وإن كان شاءها خلقا وإيجادا.

وأما الإرادة الكونية القدرية فهي تلکم الإرادة الشاملة لجميع المخلوقات خيرها وشرها، والتي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ودليلها من مثل قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وقوله سبحانه ﴿ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نِصْحًا إِنِ ارَدْتُمْ أَن نَّأَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]، وقوله جل وعز ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١٧٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ [هود: ١١٨-١١٩]

وليس يعني بحال أن القول بذلك يجعل الإنسان مسيرا مجبرا وحسب. بل إن الإنسان بوصفه آلة التغيير الرباني في كونه الفسيح فإنما قد وهبه ربه قيمة واختيارا، وإنما قد منحه مولاه مشيئة وانتخابا، ليعرف غثا من سمين، وليدرك باطلا من حق، فيتبع الحق ويبطل الباطل، مؤتمرا بأمر ربه، ومنقادا لمشيئة هاديه سبحانه، حيث قال تعالى ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وهو من إكرامه تعالى له في جانب أساس من أساسات العمل الإسلامي.

ودلك على هذه الحقيقة أن الله تعالى دائما ما يخاطب الإنسان بأشكال عديدة من النداء الرباني الكريم لذلك الإنسان لجعلة محط الأنظار، وإعطائه القيمة الربانية اللاتقة به، كيما يمكن القول أن تكون الغلبة باسمه نهاية المطاف، وإن كانت تيكم الغلبة هي في الأصل من عنده تعالى كما قال ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلَظْمَيْنَ يَهَيِّئُ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

وهو في ذات الوقت ناظر بعيني رأسه إلى سننه تعالى في الخلق على امتداد التاريخ طولا وعرضا في حيثة كان مفادها أن الإنسان هو العامل السبي الأول في معركة الإيمان والكفر على أرض الواقع، مما يمنحه زادا آخر على الطريق، ليكون التكريم له قد بلغ مبلغه من رب العزة والجلال، وليكون ذلكم دافعا له أن يبذل كل غال ورخيص حسبة لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

ولكي تتأكد لك هذه الحقيقة أخي القارئ الكريم انظر إلى قوله تعالى ﴿ فَتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].

إذ أسند الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه عوامل أرض المعركة إلى ذلكم الإنسان - وحده الإنسان - ليتربع على كرسي الإكرام من الله تعالى ذي الجلال والإكرام، فهم يقاتلون، وهم منصورون، وهم مشفون الصدور، في تسارع عجيب من الأعمال السبي لهذا

الإنسان الذي أكرمه ربه تعالى أيما إكرام، يوم أن كان على جادته، ويوم أن سار على طريقته. ويجد وعزم لا يعتورهما خور، ولا يصيبهما وهن أو فتور.

كما أنه في الوقت كان لهذا الإنسان رصيد كبير واسع من إسناد كل ذلكم لربه الرحمن سبحانه. ذلكم لأنه تعالى قال ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

وهكذا تكون العلاقة صحيحة لأنها بنيت على مقدمات هي الأخرى صحيحة تماما بتمام أيضا فتأمل!

ومنه جاء النص منه تعالى على تأكيد هذه الكلية كيما تكون مركوزة في عقد كل مؤمن به تعالى حيث قال سبحانه ﴿وَالْوِاسْتَقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. من حيث إنه تعالى قد جعل استقامة الإنسان على الطريقة والمنهج سببا لعيش كريم، وموجبا لحياة سعيدة هنيئة أنباك عنها عجب الاختيار للفظ (غدقا) وما يشى به من استمرار، وما يتأكد به من طيب العيش وحلاوة المقام من حيث كان الثمن ذلكم التقديم بالسبب، وهو من الإنسان بعون من الله تعالى ربنا الرحمن فتأمل أيضا!

ولك على النقيض من ذلكم السبب الإنساني ذاته في الهلاك والدمار، وما يمكن أن يتصوره ذو لب من أنواع البلاء والانتقام الرباني لأولاء قوم قد تنكبوا هدي ربهم، وما يمكن أن يتخيله عقل رزين مما يمكن أن يحل بقوم قد نبذوا كتاب الله تعالى وراء ظهورهم وحالهم ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١١].

وهو ما تبين عنه نظرة متألقة إلى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]

فكما أن الإنسان يمكن أن يكون سببا للصالح والفوز وحلول البركات في أرضه تعالى بتقواه وتوحيد لمولاه، فإنه نفسه ذلكم الإنسان يمكن أن يكون سببا لما يحل بأرضه تعالى من النكال والعذاب الأليم فتأمل!

لكن الإنسان كسبب للنماء والنصر والعطاء ليس يكون كمثّل ذلكم الإنسان على الجهة المقابلة كعمول للهدم والهزيمة والجزاء. فذلكم صنف وهبت بركته، وذاكم نوع سلبت نعمته فتأمل!

المبحث السادس

الإيمان سبب للعيش الرغيد

وتضافرت آيات الذكر الحكيم أن أمة سارت على الهدى ضمن الله تعالى لها معيشة هنيئة لترفل في نعم ربها آناء الليل وأطراف النهار.

ودلك على صدق ما أقول قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦].

ومنه قوله سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هذه الآيات أيضا، تتحدث عن علاقة حتمية بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه، وبين وفرة الخيرات ووفرة الإنتاج.

والقرآن الكريم يؤكد أن المجتمع الذي تسوده العدالة، التي عبر عنها القرآن تارة ب ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ وأخرى ب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ وثالثة ب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، فإنما كان حاصله ما قرره القرآن الحكيم نفسه وبنصه من

حياة السعداء برزق وفير يفيض عما هم بحاجة، وبفضل عميم يشملهم ومن تحت رعايتهم.

وثناء القوم، وكثرة النماء لديهم، وعموم الخيرات فيهم، وشمول البركات بينهم. هو من بركات تحقيق الإيمان في القلوب، وهو أيضا من آثار التقوي والبر، بحيث يثمر كل ذلك تطبيقا لشريعة السماء، وتجسيذا لأحكامها في علاقات الناس بربهم الحق سبحانه، وهي تؤدي ضرورة ودائما وباستمرار، إلى وفرة الانتاج وإلى زيادة الثروة أكثر وأوفر، وكل ذلك من فتح الله عليهم لأنهم (ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا)، إلى أن يفتح الله تعالى على الناس بركاته سبحانه من سمائه ومن أرضه معا.

وهو فتح من الله تعالى وهو توفيق منه سبحانه قبل وبعد كل شيء ذلك لأنه تعالى قال ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

فصدق التوكل عليه تعالى من أخذ بسبب، ومن يقين بأمره، هما دافعان حقيقيان لأن يكون امرئ قد صدق في ذلكم توكل، يوم أن كان على بينة من ربه، ويوم أن كان مستقيما على الحق غير نابذ له كله أو بعضه، باذلا وسعه في إرضاء مولاه، وواقفا يومه وغده مستقبلة وأمره كله لله.

ودلنا السنن الرباني للتاريخ، الذي لا يحابي أحدا، أن أمتنا يوم أن كانت تقيم شرع ربها فتح ربها عليها من خزائنه وعطائه ما جعل خزينة بيت مال المسلمين تفيض بالمال. كما وأنه على الجانب الآخر رفل أفراد ذلكم الجيل بنعم تترى، ذلك عليها أنهم لم يجدوا فقيرا ليعطوه زكاة أموالهم، فكان الفضل فضلين؛ فضل زيادة الخير والنماء، وفضل غنى كل فرد من أفراد الأمة على حدة، حتى كانت أمة صدق عليها قول ربها الرحمن

سبحانه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ودلك على إعجاز ما أقول، أن عالمنا الآن في قرنه الواحد والعشرين يروح تحت نير دين مقدر بثلاثة أضعاف دخله القومي، هذا على أساس المجموع، وأما على أساس الأفراد، فحدث ولا حرج من كثرة الفقراء والمعوزين من كل حذب وصوب، وما ذاك إلا لأن الناس قد تنكبوا دين ربهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وما ظن قوم حينما يزايلون سبيل ربهم!

وما قول أمة حين تنبذ كتاب ربها وراء ظهرها حكما به وتحاكما إليه!

وما حال مجتمع قد استدبر الهدى وامتنى ظهر الغي مسرعا به متسابقا!

قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

المبحث السابع

الكفر سبب للعيش النكد

ويتأكد ذلكم المنحى من قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤].

وهذا حاله يقدم له الهدى فينبذه، ويرشد إليه الصلاح فيتنكبه، ويتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، بل يرفضه ويلفظه، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه.

ولذا فما ظنك به إلا (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)؟!

فمعيشتهم ضيقة، ومنازلهم لا تكاد تسعهم، وأماكنهم لا تكاد تفسح لهم بل، وأنفسهم التي بين جنوبهم تكاد هاربة منهم، مولية أديارها عن أولاء يسوقونها إلى الهلاك والتعاسة والمصير الحالك السواد البهيم!

ودلك على شمول معاني الضنك من شدة وضيق ما حفل به لفظ الضنك المختار بعناية ربانية ليسري الوصف به على كل من الذكر والأنثى والواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد، وهذه فوق أنها من مهارات الاستخدام اللغوي الدقيق في القرآن المجيد لتعطيه معنى الشمول والامتداد، إلا أنها في ذات الوقت تضيف على اللفظ نفسه هبة ورعدة كان من حاصلهما سوق الإنسان هربا وفرارا إلى ذكر الله تعالى ربه الرحمن. أو هكذا كان المأمول!

وذكره تعالى المقصود ههنا وفي كل موضع من كتابه سبحانه هو أعمال دينه في النفس وفي الضمير وفي الواقع وفي الحياة والقيم والموازن والتصرفات حتى لا تبقى باقية من حياته إلا وهي كلها مسبحة قانتة لله تعالى ربها الرحمن.

ذلك وأنه بجانب هذه الآية السالفة جاءت آيات أخر في كتاب الله تعالى الذكر الحكيم القرآن الكريم حثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية، بغية تكوين نظرة استقرائية للخروج بنواميس وسنن كونية لما يحدث في جوانب التاريخ المتباينة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۚ ﴾ [محمد: ١٠]. أي أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

(حيث بين سبحانه أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان، ثم وصل هذا بالنظر، أي: ألم يسر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم فينظروا بقلوبهم كيف كان آخر أمر الكافرين قبلهم. دمر الله عليهم أي أهلكهم واستأصلهم. يقال: دمره تدميرا، ودمر عليه بمعنى. ثم تواعد مشركي مكة فقال: وللكافرين أمثالها أي: أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير. وقال الزجاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة، أي: وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا).

وهو اعتبار بالسنن الإلهية التي أودعها الله تعالى كونه الواسع الفسيح، ومن ثم قد أمرنا بالسير والنظر والاعتبار، ولعل الناس أن يؤمنوا.

وحيث بدعوة وجب التنويه إليها. ذلك أن الله تعالى كما أنه سبحانه لم يترك عبده هملا بلا شرع يهذب طريقهم ليسعدوا، فإنه في ذات الوقت وضع أمامهم تاريخا طويلا للبشرية أثناء سيرها الطويل أيضا، ليعرفوا هم أنفسهم بأنفسهم سيرة هؤلاء المهتدين، وما أسعدهم به ربهم في الدنيا ليكون عامل صدق على ما أعده لهم في الآخرة. ومن جانب آخر وضع نصب أعينهم سير أولاء الغابرين من المعرضين وما قد لحق بهم من العذاب والتهيه والخسف والريح العاتية وغيره مما يكون ما أعد أمامه من عذاب شديد في الآخرة أيضا لا شيء يذكر! إن هو إلا أمر هين، وإن هو إلا شيء يسير!

ومن هذا وذاك تبقى دالة الاختيار لعاقل، والطريقان أمامه، وهذه نتائج ما حل بكل فتأمل!

بيد أن معنى يستشعر من سياق الآية الكريمة - ولاتتأباه - مقتضاه ما أعده الله تعالى للكافرين عموما ولأهل قريش خصوصا من كون أن العذاب المحيق بأولاء قد أعد الله تعالى أمثاله لأولاء الشاردين عن الحق والهدى والصلاح والفلاح!

ويزيدك رهبة تشخص منها الأبصار ذلكم التشخيص في العذاب وذلكم التصوير الحي الذي ما فتئ الذكر الحكيم إلا أن يسوقه على ذلكم النحو المؤثر في الوجدان وفي الضمائر وفي السلوك لتنساق له قلوب مؤمنة مخبئة قانتة!

ولأنه كان يمكن أن يكون التنزيل بأن الله تعالى قد أعد للكافرين مثله فقط وحسب! إلا أن طبيعة الشاردين وكفرهم المركب ومناصبتهم العداء لله تعالى ولرسوله ولشرعه تجعل من نصب العذاب أمثالا نتيجة مقبولة ممهورة بالقبول ولما كان حالهم ذلكم أيضا.

وإنما يظل القرآن الحكيم رافدا للمعاني العظام التي تجري في صفحات الكون الفسيح بأمره تعالى. ذلك لأنك ترى كما أرى أخي القارئ الكريم صورة أخرى تمعن في كأن هذه الأمثال من العذاب المهين إنما قد أعدت سلفا للكافرين! كما وأنها أعدت لهم على سبيل الخصوصية فلا أحد يشاركهم في ذلكم من شيء، وهو منظر يملأ القلوب رعدة، كما أنه يأخذ بتلابيب القلوب خشية ورهبة في آن، والله المستعان.

ودلك على عظيم قدرته تعالى إحاطته علما بالكافرين - كل الكافرين - فلا أحد يمكنه الإفلات من العذاب، ولا أحد يمكنه الهروب من الحساب، فكلهم في قبضته تعالى و ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ ءِتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَرَدًّا ۖ﴾ [مريم: ٩٤-٩٥].

ولأن الآية إنما نزلت فيهم تحريكا لقلوبهم، واستجاشة ضمائرهم ليتفاعلوا مع ذلكم النظم العظيم في تركيبه وهداياته. ومن حيث قد نفروا، ومن حيث قد أبوا إلا البقاء

على صنعة الكفر الممهورة بالعناد والصد والتنكيل بأهل الدعوات، فقد كان حاسما أيضا أن تنسلخ عنهم ولاية الله تعالى، ليبقوا هكذا عراة من كل حفيظ، وليسلمهم ربهم الرحمن سبحانه إلى حيث قد اختاروا من العذاب الأليم والضنك الشديد والله المستعان. وعلى جانب آخر يقدم الله تعالى ولايته ونصره وتأييده لعصبة مؤمنة كان من فلاحها ذلكم التاج الرباني الذي ألبسها الله تعالى إياه وهو ولايته تعالى لهم!

تكم الولاية التي كان من مقتضاها استجابة الله تعالى لهذا الصنف العجيب من الناس في كل شأن من شؤونه حتى ساغ منه أن نفهم كثيرا ما معنى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. وذلكم بكل معنى ممكن أن تتحمله بلاغة الجملة الإسمية (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بدلالة النفي الأبدي، كما في دلالة الثبوت والاستمرار ألا خوف عليهم أبدا.

كما أنه أيضا وفي دلالة معكوسة من حلول الأمن بهم بكل معانيه، والرضا والقبول والراحة والطمأنينة والأمن والسلام، وكلها معان تبعث على النعيم، وتمنح صاحبها طاقة نحو التأمل والشكر والعرفان لمن أسدى الجميل، ولمن أغدق الخير واللطف الإحسان سبحانه!

ومنه أيضا تتوالى عليهم نسمات الفرح كله، كما أنهم لا يحزنون أبدا، وهو أيضا ما تكنه دلالات الجملة الفعلية (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بدلالاتها على الاستمرار، وعدم الانقطاع معا. وبسط هذا وذاك له موضع آخر.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

يقول تعالى ذكره: أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عقبي تكذيبهم (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ) يقول: كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبين من قريش أكثر عددا من هؤلاء وأشد بطشا، وأقوى قوة، وأبقى في الأرض آثارا، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع.

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أي فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا. لم يغن عنهم ما كانوا يعملون من البيوت في الجبال، ولم يدفع عنهم ذلك شيئا. ولكنهم بادوا جميعا فهلكوا.

وتحقيق وقوع عدم الإغناء عنهم بدلالة الفعل الماضي الموعلة في بيان معنى التحقيق والوقوع والتأكيد، كل ذلك له وقعه أيضا على تيكم نفوس لو أنها أزالنا بعضها من غشاوة الجهل عنها لتقبل ذلكم التحدي الإلهي بوقوع الهلاك بهم من ناحية، وعدم إغناء ما صنعوا - أيا ما صنعوا - لأنفسهم تسترا به من عذابه تعالى.

لكنها العقول الخائبة أبدا في صورتها، يوم أن تستهين بنكال الله تعالى، يوم أن يريده أن يحل بقوم عتوا، ويوم أن يشاء أن يحل بهم العذاب الأليم.

وهي نفوس على مر التاريخ تجد لها نوع وجود! وانظر إلى ذلكم السجال بين الحق متمثلا في نوح عليه السلام، وبين الباطل متمثلا في ولده حين قال الله تعالى ربنا الرحمن على لسان ذلكم الابن العبي ﴿ قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

وهو اعتبار تمليه طبائع العقول السليمة، والباحثة عن حق، أو على الأقل قل إنها لتدعن للخير والهدى، وتشربهما الأنفس التواقفة إلى الصلاح والخير والفلاح، حينما

تعرض عليها تيكم السنن في ثوب مهيب من التأثير، وبما رسم فيها من لوحة تعبيرية صادقة يكاد النص وقد أبرزها في صورة حية ماثلة للعيان.

فلهؤلاء الذين غربوا عن الحق من قومك يا محمد فيهم معتبر إن اعتبروا ، ومتعظ إن اتعظوا ، وإن بأسنا إذا حل بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع ، ولم يمنعه مانع ، وهو بهم إن لم ينيبوا إلى تصديقك واقع .

وهي رهبة في ذات الوقت يوم أن ترى الصورة بهذا التمثيل البياني الكريم وإذ بهم قد بادوا جميعا! وتصور أنهم قد بادوا جميعا، ذلك لأنها حينئذ لا تبقي ولا تذر، إذ حل بهم العذاب الأليم من كل حذب وصوب، حتى وكأنا صنعوا من أحجة تقيهم العذاب هي كالذر أمام رياح العذاب الرباني العاتية، ومن حيث لم يحتسبوا فتأمل!

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَّشِيدٍ ۚ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۚ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦].

{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } أي: كم من قرية أهلكتها، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ } أي: مكذبة لرسولها، { فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } قال الضحاك: سقوفها، أي: قد خربت وتعطلت حواضرها، { وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ } أي: لا يستقى منها، ولا يردّها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها { وَقَصْرِ مَّشِيدٍ } قال عكرمة: يعني: المبيض بالحص، وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون: المشيد: المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿ أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف.

قال ابن أبي الدنيا في كتاب "التفكر والاعتبار": حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سح في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبر، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا.

وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحي قلبك بالمواعظ، ونوره بالتفكر، وموته بالزهد، وقوه باليقين، وذلك بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسيره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلوا، وعم انقلبوا، أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال.

﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] أي: فيعتبرون بها.

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر.

المبحث الثامن

التقليد حرمان التسديد

ذلك وأنه قد كان التقليد شارة من الشارات الجاهلية التي أصابت كثيرا من الأمم في مقتل، وتراها به تتأبى على كل نعم يهديها الله تعالى للبشرية كيما تسعد. ذلكم لأن تعالى أبدا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لكن هذه الآفة كانت سببا في صد أمم غفيرة عن الهدى بزعم متهافت لا يرقى أن يكون قابلا للنقاش، فضلا على أنه متهافت تهافت البعوض على حرق نفسه أمام الشمعة المشتعلة!

وانظر إلى قوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فذلكم سندهم الأوحاد في صد الهدى ورفض الخير! دونما إعمال لقليل من التأمل.

وأريد أن أقدم مقدمة. ذلك لأنني رأيت الله تعالى بعد أن نعى على قوم كان اتباعهم آباءهم دليلا لهم، ومطية ادعاء أجوف على صحة دعواهم، وكان في زعمهم مسوغا لنبد كتاب الله تعالى وراء ظهورهم، رأيته تعالى يزيد نعيًا، ويمعن قولًا في النكير عليهم، حيث إن أولاء القوم هم ضالون، ولا عليكم بعد إذ أنذرتهم أن يكونوا هكذا عراة من هدى، أو أن يصبحوا حفاة من حق، فإنه والحال كذلكم أنهم ضالون.

ويكفيهم تشنيعا عليهم وفضحا لمذهبهم المتهالك المتهاير أنكم في مواجعتهم مهتدون. باتباعكم الهدى من الله، لأنه والحال كذلك فلا ثمة هدى إلا من الله سبحانه، فتأمل!

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥]

ولأنه وبمقتضى الشرع الحكيم، واستنادا إلى العقل السليم، فليست هنالك علاقة أبدا بين تقليد الآباء وبين العلو أو حتى الدنو!

ذلك لأن دين الله تعالى إنما قام بالأساس لتحرير الإنسان من ربة العبودية لما سوى الله تعالى إلا أن تكون العبودية له وحده سبحانه.

ولأن الله تعالى حينما أراد أن يضع ذلكم الإنسان على طريق العزة والكرامة، فقد نأى به عن سفه التقليد مرتين، إن على صعيد الكفر به تعالى وهذه تارة، وإن على صعيد الإيمان به سبحانه، وهذه كرة أخرى!

وتلك كلية غاية في الأهمية. ذلك لأن الله تعالى حينما خلق خلقه إنما وجه في ذرايرهم التوحيد كيما لا يعتذر أحدهم بما حدث من دين الآباء، وبما وقع من تقليد لمذاهب السفهاء.

وكيما تتأكد لك هذه الحيثية انظر إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

هذا العهد الرباني قاطع في دمع مزاعم المبطلين لدعوى التقليد. فأعمله بإمعان - بارك الله فيك - كيما يتأكد لك كيف أن الله تعالى في الوقت الذي أراد أن تكون عبودية

الناس له خالصة، فإنه تعالى في الوقت نفسه أراد لهذا الإنسان أن يتحرر من عبودية الإنسان مثله في أي معنى من معانيها.

وما هذه النزالات التي نرى جلها اليوم إلا شقا من ذلكم. ذلكم أن قوما يريدون أن يعزوا أنفسهم بما قد أعزهم الله تعالى به، إلا أن قوما آخرين يريدون أن يدوسوا كرامتهم بحيث لا يمكنهم أن يرفعوا رأسا في مواجهة باطلهم يوما ما، وغر هؤلاء دينهم! ذلك أن الله تعالى بهذا الميثاق قد أودع فيه من الخصائص والإمكانات التي تؤهل هذا الجيل الصامد في مواجهة الباطل ليكون أصلب عودا في مواجهته، ولكي يكون أقوم منهجا في مجابهته. فتأمل!

وانظر إلى حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيضا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته^(١).

وهذا إعلان نبوي عام في بيان لوثة التقليد، وما يمكن أن يكون إليه مآلها، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (يصلى على كل مولود متوفى، وإن كان لغية، من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام، يدعي أبواه الإسلام، أو أبوه خاصة، وإن كانت أمه على غير الإسلام، إذا استهل صارخا صلي عليه، ولا يصلى على من لا يستهل من أجل أنه سقط فإن أبا هريرة

(١) صحيح الترمذي الألباني: ٣٠٧٦

رضي الله عنه، كان يحدث، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] (١).

وربنا الرحمن سبحانه في مراده لتخليص البرية من كهذه لوثة أنزل فيها من الآيات ما يكون عبرة وقانونا محكما ليس لأحد أن يدعي الخروج عنه بعد ذلكم السيل الهادر من الآيات والذكر الحكيم.

فإنه سبحانه الذي يقول ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] ومنه قوله تعالى ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦]. ومنه قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وهو الذي يقول سبحانه ﴿فَأَفْرِجْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

المبحث التاسع

الترف سبب للطغيان

ولأن الطغيان آفة من كونه كان سببا للخروج على أوامره تعالى ونواهيه، وكأن الله تعالى حينما أنعم على قوم بنعمه تترى عليهم، ويغدقها عليهم ليل نهار، وكان من سبيل ذلك أن تكون سببا للشكر والإيمان والتقوى والصلاح، إلا أن الشيطان كان قد نفخ في روع

(١) صحيح البخاري: ١٣٥٨

هؤلاء أن العطاء الرباني بهذه الصورة، وبهذا الفيض مدعاة للخروج عما رسمته الديانة، وللنكوص عما وضعته الملة من قوانين العبودية لله تعالى وحده.

ومنه وجد هؤلاء زعما في سلطانهم ما به برروا خروجا عن المنهج، وما به برروه تنكبا للسليل، حتى كانت الطامة الكبرى أن الكون قد فسد بفسادهم، ذلكم لأنهم عندما زينوا ذلك في خيالاتهم أطلقوا العنان للظلم على أشده، فراحوا يعيشون في الأرض فسادا، فيأمرون بما ليس من أمره، وينهون عن نهى لا هو من نهيه فعم الفساد واستشرى الخراب. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١]. والله غالب على أمره.

وكان من شأن هؤلاء أن يكونوا من المترفين! ولذا جاء نص القرآن حاسما في النعي عليهم لما قد قابلوا الإنعام بكفر وفساد، وبما قد جابهوا الرب العظيم المنعم بكل نعمة يرفلون فيها من قديم أو حديث بنكث وعناد، والله المستعان.

وانظر إلى تصوير الله تعالى لهؤلاء في صورة كأدق ما يكون التصوير على طريقة الذكر الحكيم المعهودة في تصويره للحدث بحيث لا تبقى منه صورة واحدة يقول الرائي لولا عدم وجود هذه أو لولا كان وجود تلك! حيث قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٥-٣٦]. ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

ومنه كان الترف باعتباره إغراقا في التمتع، والتوسع في أسباب الرفاه، سببا للهلاك والتدمير وموجبا للأخذ والاستئصال.

ومتترف هو ذلكم المتنعم الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وبدل ان يقدم شكرا بين يدي مولاه لنعمه، فقد أنكر الجميل بصد عن التأويل، فكان جزاؤه غيا، وكانت عاقبته خسرا.

ذلك لأن المترفين يزدرون نعم الله عليهم، فيهوون إلى درك الابتذال، ويتساقطون في سحيق كبر، وانعدام مروءة، وحرموا شكرا لمن أنعم، وثناء على من أعطى ومنح وأسدى وأكرم وتفضل وهو الله تعالى، وإذ هم يهرقون النعم فيما لا جدوى منه، ويشحون بها على من كانوا بحاجة فحرموا الأجر وحرموا المثوبة، وحققت به عليهم العقوبة.

ومنه فلا غرو أن جعلهم الله تعالى أصحاب الشمال وما أدراك ما أصحاب الشمال!

قال الله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۚ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ ۚ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۚ وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ ۚ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٦].

وقد فصل القرآن الكريم في كثير من سوره موقف الطبقات المترفة، تجاه كل كتاب منزل، وكل نبي مرسل، فكان التكذيب واحدا للدين الواحد الذي بعث الله به أنبياءه، من لدن نوح - ﷺ - إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد - ﷺ - وما يثير العجب تشابه الرد الذي انتظم على ألسنتهم جميعا حتى لتكاد تجزم بأنهم يشعرون بعاطفة واحدة، ويدافعون عن مصلحة واحدة.

والمترفون في الزمان كله جبلة واحدة، كما أن الضالين في سائره كذلك أمة واحدة، فقاسمهم مشترك، واتفاق سلوكهم متواتر، وكأنما هم يعيشون في زمان واحد، وكأنما هم قد اتفقوا على شين الفعال، وكأنما هم قد توافقوا على سوء الصنيع.

فتراهم مذ أن وجدوا وإلى يوم الناس هذا أمة واحدة، وكأنما يشربون جميعهم من معين واحد، وينفثون زفيرهم في كأس مشين واحد، ويبثون سمومهم في هواء الله تعالى العليل، كيما تنتقل عدواهم في كل صوب، وكيما تنتشر سوءاتهم في كل حذب.

لثام إن شئت فقل، غلاظ إن شئت فقل، مسلوبو الخير في أي من معانيه إن شئت فقل، حرموا من كل فضل، وتسوروا كل نقيصة، يزدرون الآخرين، ويهزؤون المؤمنين، ويسخرون من المسلمين، ويمقتون الفقراء والمساكين، ويحسبون أنهم مهتدون!

وذلكم كان شأنهم من عهد نبي الله تعالى نوح - عليه السلام - مترسين بالزهو والباطل والاستكبار في وجه دعوة الخير وناموس الفطرة الناطق بالهدى والمفعم بالخير، منشورا للناس كافة كيما يسعدوا حقيقة السعادة في الدارين، وأولاء لا يراعون، ليسلكوا سبيل الفجار، وليتبعوا نهج الكفار، فيقفون سدا منيعا أمام الأخيار، ويوصدون كل فتح أمام الأبرار، وكأنما يغريهم شيطانهم بصددهم، وكأنما يغويهم إبليسهم بغيهم، فلا هم قد اهتدوا، ولا هم تركوا غيرهم أن يهنأوا بعيش كريم، في ظل التقوى، وفي كنف الهدى!

قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَىٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]. ولكنها عزة الأنبياء ولكنها أنفة الأتقياء.

قال تعالى ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].

قال الله تعالى ﴿ وَيَقَوْمٌ لَا اتَّخَذُوا عَلَيْهُمَا مَالًا إِنِ اتَّخَذُوا إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرْكُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩] وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَّبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ [هود: ٢٩-٣٠]

وقال تعالى أيضا ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامُنُونَ ﴾ [سبا: ٣٧].

وقال تعالى أيضا ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [٣١] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [٣٢] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتَرْفَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٣]

وهاهم أولاء يناهضون نبي الله محمدا ﷺ عنادا في غير لين، وصدا في نكال، وكبرا في تجبر، وغيا في غير رشد، وفسادا في غير إصلاح، وعتوا في استبداد واستكبارا في استعلاء.

قال الله تعالى ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلُهمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١١] وقال تعالى ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وهو لؤم مشين، وخلق ذميم وهو ديدن ومنهج، وهو عادة وسليقة، وهو منهج وطريقة قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [٣٤] وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبا: ٣٤-٣٥].

وهو انشغال بالملذات، وهو إغراق في الشهوات، وهو إمعان في المهلكات، ومله عن معالي الأمور، ومفسد لمكارم الأخلاق، قاتل لمعاني المروءة، وفاتك لأصول الجد والزكاء والنماء، زاهق لروح الجهاد، ماقت لداعية الجد والنشاط والخشونة، ويجعل صاحبه عبدا لهواه.

قال الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فعن أبي هريرة تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع^(١).

وهو إفساد للجماعة، وهو نذير هلاك بين يدي الساعة، وهو سبيل انهيار البنيان، وموجب خور الأديان، وقرين ظلم وأس طغيان، ونظير ظلم وإجرام، والله المستعان.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

وهو سبب الانحلال، وهو موجب الاختيال، وعماد البهتان، وجله من ذي جاه، وكثيره من صاحب سلطان.

قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

قال تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس؛ لأن عصيانهم الأمر الموجه إليهم هو سبب فسقهم، وفسق بقية قومهم؛ إذ هم قادة العامة، وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتبعهم الدهماء؛ فعم الفسق أو غلب على القرية، فاستحقت الهلاك^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٢٨٨٧

(٢) التحرير والتنوير: (ج ٨ / ١٩٩)

وعندما تسمح القرى للمترفين بالوجود والحياة يحق عليها القول بالهلاك والتدمير، لأن سنته جرت بذككم، وإنما الأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين، وهي الفسق.

ومنه تبين تبعة ترك أنظمة فاسدة مفسدة لتنشئ آثارها التي لا مفر منها من التدمير والأخذ والاستئصال، ومنه كان الأخذ على أيدي المترفين فيها؛ كيما لا يفسقوا في كون الله تعالى الممتد طولا وعرضا، وإلا يحق عليها حينئذ القول، فيدمرها الله تعالى تدميرا.

وهي سنته تعالى التي قد مضت في الأولين من بعد نوح، جيلا من بعد جيل، إذ كلما فشت الذنوب في أمة، وإذ كلما كان من أمرها خوار في اعتقاد، وإذ كان من سننها وهن في التزام بمنهج الله تعالى، لينتهي بها ذككم إلى ذلك المصير المحتوم من إهلاك ومن تدمير ومن أخذ واستئصال. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]

قال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

والإغراق في التمتع والترف، والأخذ بأسباب السرف، نذير تلف.

قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْنَا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٥].

وقال تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَلَٰكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١١-١٣]. ولقد حرم الإسلام - من ثم - ما كان موجبا لترف، وما كان سببا لتمتع، ومن ذلك:

أولاً: تحريم الأكل في أواني الذهب والفضة: عن أم سلمة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الذي يشرب في آنية الفضة ، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم ،... وعن عبيد الله ، أن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب ، وليس في حديث أحد منهم ذكر الأكل ، والذهب إلا في حديث ابن مسهر والجرجرة: صوت الماء^(١).

ثانياً: تحريم لبس الحرير والديباج: عن حذيفة بن اليمان: أنهم كانوا عند حذيفة، فاستسقى فسقاه مجوسي، فلما وضع القدح في يده رماه به، وقال: لولا أنني نهيتك غير مرة ولا مرتين -كأنه يقول: لم أفعل هذا- ولكني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة^(٢).

ثالثاً: تحريم حلي الذهب وملابس الحرير للرجال: عن علي بن أبي طالب: إن نبي الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريراً فجعله في يمينه ، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ، ثم قال : إن هذين حرام على ذكور أمتي^(٣).

ومن ترف كسبب لتلف، ماحكاه الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه عن قارون، لتبقى سيرته زاكمة عبر الدهر كله، ولتكون نذيراً للبشر، وكما تتأكد ضالة الطريق فيها، وكما تعلق عبرة التأسى بها.

(١) صحيح مسلم: ٣٩٦١

(٢) صحيح البخاري: ٥٤٢٦

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٠٥٧

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ قُلُوبَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ قَبَعَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِيَهُ لَتَتَوَّأَىٰ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ ﴾
وَأَتَّبَعْنَا فِي مَا هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْحَقْلُ أَنْ يَنْبَغِ الْحَرْثُ أَنَّ اللَّهَ لَبَصِيرٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۖ ﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُوبُنُ إِنَّهُ لَنَدُو حَظِّ عَظِيمٍ ۖ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُكَلِّفُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۖ ﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٦-٨١]

المبحث العاشر

الاستخلاف

(آية البقرة: ٣٠ أنموذج)

البدائع المنيفة في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة: ٣٠]

وإنما كان الاستخلاف سنة ماضية؛ لأن الله - تعالى ربنا الرحمن سبحانه - إنما نصب كونه أول ما كان عليه؛ ذلك لأنه تعالى قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وذلك لما يتضمنه أمره تعالى باستخلاف الإنسان أن يكون مشمولاً بمدى إكرامه تعالى لهذا (الإنسان)؛ كيما يكون فطرياً على فطرته، سويّاً على سليقته، عبداً موحداً، مفرداً ربه الرحمن سبحانه في ألوهيته، كما قد أفردته تعالى في

ربوبيته، لا أن يكون ندا لربه وخالقه وبارئه؛ باتخاذ من دونه أولياء، لا وليا واحدا؛ إمعانا في استرقاق نفسه لغيره تعالى، مما كان حاصله الطبيعي أن كان آلة في يد غيره، وهو مما يتنافى مع وضعه الرباني الذي خلق عليه كريما مكرما؛ وذلك من مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]. وكان من موجب ذلكم الاستخلاف أن يكون قائما بالقسط، والقسط حينئذ هو عبادته وحده تعالى بلا شريك، نهوضا بتكريم نفسه؛ حيث إذ وضعه ربه ومولاه، لا أن يستحل قيمه وآدابه وعزته، حتى كاد الكون ليشكو مما يحصل فيه من ظلم ذلكم الإنسان لأخيه الإنسان، ذلكم الظالم الذي لا يزداد في شيء عن أخيه المظلوم سوى أنهما قد اشتركا في عامل واحد؛ هو (الإنسانية)، وهو عامل لا يبرر في أية لحظة من اللحظات أن يكون أحدهما ظالما والآخر مظلوما، ولقد كان الحيود عن الصراط، وما يقتضيه من انتكاس في المفاهيم والقيم، وابتعاد عن منهجه تعالى القائم على فطرة سوية بيضاء نقية؛ أنباك عنها قوله تعالى: ﴿فَأَقْزَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [الروم: ٣٠]، أقول: إن ذلكم الحيود عن السواء والجادة، إنما كانت ثمرته علقمة مرة تعيش ويلاتها الأمم، وتذوق مراراتها الجماعات.

ودلك على عظيم معنى الاستخلاف أن كان الإنسان من أحد مقوماته؛ إذ لما كانت حقيقة الاستخلاف قائمة على الأربعة الأركان؛ وهي: المستخلف وهو الله تعالى، والمستخلف وهو الإنسان، والمستخلف عليه وهو الأرض، والمستخلف به وهو توحيده تعالى - فذلك إذا على أهميته أن كان الإنسان واحدا من مقوماته الأربعة كما أسلفت.

وأفهم أن المستخلف هو الله تعالى من نص الآية سالفة الذكر؛ عندما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، وهو أمر دال في حقيقته على قيوميته تعالى المطلقة على كل ما خلق، وعلى سائر ما برأ.

ولعل وجود ضمير المتكلم في ﴿إِنِّي﴾ وكذا اتصاله بـ(إن) التوكيدية ما يشي بتفردته تعالى في ذلكم الاستخلاف، كما قد تفرد سبحانه بالخلق، فضلا عن أن يكون هناك ضرب من الناس قد حام حولهم شكهم أن الخلق سدى؛ كما قال أسلافهم من قبل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجن: ٢٤] وذلك على هالة عظيمة تكسوك، وأنت قارئ لهذا - أنه تعالى لم يشاركه أحد في خلقه خلقه، كما أنه تعالى كان متفردا في ذلكم الخلق؛ فهو إذا سبحانه المتفرد الأحد في عملية الاستخلاف، فضلا عن أن يكون ذلكم هو السند الأوحى في حقيقة ربوبيته، وفي أساس ألوهيته للكون كله، ومن فيه، وما فيه معه، وقول بغير ذلكم هو تعد عن أصول القول، وانفراط من عقد الحكمة.

وحقيقة أن المستخلف هو الله تعالى لتفتق منها سائر معاني العظمة لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، كما وأنه أيضا لتنبثق منها كل معاني الكبرياء التي هي بحق ثمرة لهذا التفرد في عمليتي الخلق والاستخلاف معا، كما وإنه لتشتق منه كامل مرادفات الرحمة ومعانيها.

وهذا غاية في المدح والثناء على الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه؛ إذ إن أقصى ما يمكن قوله حسب تعابيرنا المتواضعة أن من كان ذا كبرياء، فكبريائه تنبع منه رحمته، ومن عظمته تبدو منها رأفته، وإن من عزته أن تنهمر منها منته، وإن من كل ذلكم ألا تحصي علينا نعمته؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَتَذَكَّرُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

ولقد قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، في دالات كثيرة من الهيمنة؛ لأنه تعالى هو ﴿الْمُهَيَّمِنُ﴾، وفي دالات كثيرة من العزة؛

لأنه سبحانه هو ﴿الْعَزِيزُ﴾، وفي دالات كثيرة من الجبروت؛ لأنه تعالى هو ﴿الْجَبَّارُ﴾، وفي دالات كثيرة أيضا من الكبرياء؛ لأنه سبحانه هو ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾.

وذلكم ليس للعبيد من أمثالنا، ومن غير أمثالنا، فحقنا هو العبودية لله تعالى وحده، وهذه هي وظيفتنا في هذه الحياة الدنيا، وأي مسلك يسلكه عبد خارج هذا الإطار المرسوم له سلفا، فمآله بوار، ونتاجه خسار.

ومنه كان النعي القرآني الكريم في الذكر الحكيم على من اتخذ الله تعالى ندا أو شريكا له، ولما لم يكن ذلك موجودا حال خلقه تعالى لما خلق، فبأي سند إذا يستند أولاء على إشراكهم شركاءهم لله تعالى ربنا الرحمن، ولما لم يدع أحد منهم في زعم ما قد نقل عنهم على مدار التاريخ كله أنه قد شارك الله تعالى، أو أعانه في خلقه خلقه؟!!

ولذا كان النعي عليهم - كما قلت - في غير ما موضع، ومنه ذلكم الموضع كما في آيتنا سالفة البيان، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وإنك لترى غناه المطلق عن سائر ما خلق، حتى وكأن ذلكم كان كافيا ألا يكون معبودا بحق سواه، لا في قديم أو حديث!

ألم تر أن الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه قد تفرد بأواصر العزة كلها في قول موجز وبلغ معا؛ حين قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]؟!!

وأفهم أن المستخلف عليه هو الأرض، وهو ما أعني به (محل الخلافة)؛ بدليل صريح النص القرآني الكريم الذي بين أيدينا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فدل على أن الأرض هي مقصوده تعالى من أن يكون الإنسان خليفته تعالى فيها، وذلك أيضا على تلكم فراسة للملائكة الكرام عليهم السلام لما أن قد استشرفوا فسادهم: ﴿مَنْ يُفْسِدْ فِيهَا﴾

[البقرة: ٣٠]، وسفكه الدماء ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فيها، وقد وقع منه ما الله تعالى به عليهم، والله المستعان.

وأفهم أن المستخلف هو الإنسان، وهو ما عناه النظم القرآني الكريم ب﴿خَلِيفَةً﴾، فدل على أنه لا غيره - الإنسان - هو الخليفة، كما دل على ذلك ما وقع منه من شر مستطير مذ أن خلقه الله تعالى، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وهو ما أنبأت عنه فراسة الملائكة الكرام عليهم السلام؛ حينما قالوا قولهم الكريم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وكذا ومن واقع الحال الذي يشهد على الإنسان كم أفسد! وكم أسفك الدماء!

ذلك أن الملائكة الكرام عليهم السلام قد قابلوا خبره تعالى بالاستخلاف بسؤال تعجبي دال على فرط إحساسهم بما سوف يؤول إليه شأن ذلكم الإنسان؛ إذ ذكروه - ذلك الإنسان - بصفة قائمة به لا ينفك عنها؛ ذلك لأنهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]!

ولما لم يكن بد من الاعتراف بفراسة كان عليها ذلكم الركب الكريم من ملائكة الله تعالى ربنا الرحمن عليهم السلام، بدليل وقوع ذلك كله من ذلكم الإنسان، فذلك على إصابتهم في تعجبهم، وذلك على صدق الاستدلال بأن الخليفة المستخلف هو أيضا ذلكم (الإنسان).

وأفهم أن المستخلف به هو عبادته تعالى وتوحيده، وإفراده تعالى وحده بالعبادة والتوحيد، وعدم الإشراك به أحدا غيره - من منطوق النظم القرآني الكريم الذي شرفت به الملائكة الكرام يوم أن قالت: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فهو معنى عظيم من معاني التوحيد الخالص لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، نتعلمه من

ذلكم الركب الكريم عليهم السلام على مدار التاريخ كله، يوم أن أفردوه وحده سبحانه بالتسبيح بحمده له وحده، وبالتقديس له وحده.

ودلك على ذلكم توحيد خالص قوله تعالى على لسانهم الكريم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ بدلالة كاف الخطاب وجرسها العميق المؤدي لمعنى التوحيد والإفراد به لله تعالى ربنا الرحمن وحده، حتى وكأن الملائكة الكرام قد علمت بما أوتيت من فراسة وإحساس عميق بما سوف يؤول إليه ذلكم عموم الإنسان من تنكبه للمنة، وذلك برد جميل خلقه له إشراكا به تعالى.

وأزيد وضوحا فأقول: ذلك أن مجيء ضمير الخطاب الموحى بالتفرد والوحدانية والربوبية والسلطان القديم لله تعالى - هو ما حفل به اختصاصه تعالى بذلكم تسبيح بحمده، كما أنه أيضا يشي بانفراده سبحانه وتعالى وحده بأن يكون التقديس ليس إلا له وحده، ولا يشاركه أحد مما خلق في ذلكم أبدا، فدل على توحيد الملائكة الكرام لربهم الحق سبحانه، كما دل على أن ذلك فطرة فطر الله تعالى خلقه عليها، وما أحد بملوم عن الخروج عن ذلكم نهج قويم إلا من حاد، وإلا من أشرك.

كما وأنه قد دل نهج ملائكة الله تعالى الكرام عليهم السلام على وجوب توحيده تعالى، ودل أيضا على أنه ليس يسع أحدا الخروج عن ذلكم النظام المحكم، الذي لا يكون الأمر والنهي فيه إلا لله تعالى وحده بلا شريك؛ وهذا هو مقتضى قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله).

وبمنطوق القرآن العظيم؛ فإن حقيقة الاستخلاف تقوم على أن المالك الحق هو الله تعالى، فلا إله ولا مالك ولا متصرف في الكون والحياة غير الله سبحانه وتعالى، أما الإنسان فدوره فقط هو الاستخلاف؛ أي: إنه مؤتمن ليقوم على أمانة عهد بها ربه إليه، لكي يعمر هذه الأرض، فإن كان إعمارها بما يرضي الله تعالى، وعلى مراده تعالى وحسب، ووفق أمره إتيانا، وعلى مقتضى نهيه انتهاء واجتنابا - فقد حقق الإنسان

الغاية من الاستخلاف، وإلا فإنه بعد من الله تعالى، وأخل بعقد الخلافة الموجب للالتزام، ومهما رأيت من علو المباني، وأشكال الازدهار المادي، ومعالم الجمال والتنسيق، ومظاهر التمدن والرقى - فكلها تصبح بلا قيمة، ولا فائدة منها، إن لم يتم تعمير الأرض على تقوى الله تعالى رب العالمين، وهذا ما يريده القرآن الكريم ويؤكد عليه؛ أي: استدامة صلة المستخلف بالمستخلف، وطاعته، وخشيته.

ومنه، فإن المجتمعات التي تقطع صلتها بالمستخلف - وهو الله تعالى - فتكون مجرد تركيبات بشرية، أو تركيبات معمارية بعيدة من الغاية من الاستخلاف.

ولذا كانت أية قيمة أو حركة أو منهج ليست قائمة على أساس التكامل بين عناصر الاستخلاف الأربعة سالفه البيان، وما تنطوي عليه من بعد؛ هو في الأساس تحقيق ألوهية الله تعالى في هذا الكون الممتد، ومنه يتحقق رضاؤه تعالى، ومن ثم يكون فلاح الناس في الدنيا، ومنه يكون مصيرهم الحسن الجميل في الآخرة، وإنه بغير ذلكم إنما هو تعبير عن خلل مدلهم في التركيبة النوعية للأساس الذي يجب أن تقوم عليه الخليقة أثناء مسيرتها في الكون.



هذا، ولم يخل زمان من موحدين، ولم يخل عصر من مفردين ربهم بالتوحيد والعبادة، والتوجه إليه تعالى آناء الليل وأطراف النهار؛ ﴿سُجِّدَ لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٨]؛ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون))؛ [صحيح الجامع، الألباني، الصفحة أو الرقم: (٧٢٨٨)، خلاصة حكم المحدث: صحيح].

المبحث الحادي عشر

عموم العقاب الديني، وخصوص العذاب الأخروي

ومنه قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والفتنة هي الاختبار، والفتنة هي المحنة، ويعلم الله تعالى بها المسيء وغيره، فلا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع.

وهذا أصل عام. وقد دلت سنن التاريخ الماضية على صحته كما قد أبانت دلائل السنة على تواتره.

عن سهل بن سعد الساعدي: إني فرطكم على الحوض، من مر علي شرب، ومن شرب لم يظماً أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم. قال أبو حازم: فسمعتني النعمان بن أبي عياش، فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعتته وهو يزيد فيها: فأقول إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدي^(١).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في تعليقه على هذا الحديث الشريف (قلت: ورد فيه ما أخرجه أحمد والبخاري من طريق مطرف بن عبد الله بن الشخير قال " قلنا للزبير - يعني في قصة الجمل - يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل - يعني عثمان - بالمدينة ثم جئتم تطلبون بدمه - يعني بالبصرة - فقال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول ﷺ (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت " وأخرج الطبري من طريق الحسن البصري قال " قال الزبير:

(١) صحيح البخاري: ٦٥٨٣

لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ظننا أنا خصصنا بها " وأخرجه النسائي من هذا الوجه نحوه وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبري وغيره^(١).

وهذا كله يجري وفق سنة الله تعالى في خلقه، والتي مقتضاها أن العذاب حين يأتي في الدنيا على مجتمع أو على أمة من الناس، فإنه لا يختص بالظالمين وحدهم من أبناء ذاك المجتمع أو تلك الأمة. وإنما ينسحب على عموم القوم كما سلف ذكره وكما سبق بيانه.

ومنه فتساؤل قد يثار إذ لما كان المنكر قد وقع على أيدي قوم فلم يؤاخذ آخرون بذنوبهم وخاصة أنه يمكن أن يكون فيهم الأنبياء والصديقون والصالحون؟

ولست أقول إن ذلكم وجه من وجوه التهديد، ولست أرى أن ذلك وجه من وجوه التحذير، ولست أميل أن ذلكم من وجوه الردع كيما يحذر عاقل، وكما يرتدع تقي.

فإن ذلكم حمل للنص على غير معناه، وهو في نفس الوقت تفريغ للتنزيل من روحه ومغزاه. والله المستعان.

وأقول إنه قد دلت الآية الكريمة على وجوب الإقلاع عن الذنوب والمعاصي ومحاربة الآثام والأخذ على أيدي مرتكبيها ليكون مجتمعاً طاهراً من رجس، ولينشأ مجتمع قوامه الصلاح، وعماده التقوى لتنحسر حينئذ الخطيئات، ويقل بالتبع الخطاؤون، ومنه يكون مجتمعاً لا تشيع فيه فاحشة، كما لا تسري فيه موبقات تعطل تقدمه، وتنال من تقواه.

والقول بذلك هو القول الفصل، ولأنه يتوافق مع كون هذه الأمة كما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ١٣ / ٣

والقول بغير ذلك هو نذير هلاك. لأنه دال بحصوله على استخذاء قوم كان ذلكم صنيعهم أن يجتمعوا كلهم أو بعضهم على منكر ثم لا تراهم عنه يتناهون، فإنهم حينئذ قد آذنوا لأنفسهم بعقاب، وقد أوجبوا على أنفسهم سوء العذاب. كما قال تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

عن عبدالله بن مسعود: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم إلى قوله فاسقون ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم . هذا لفظ أبي داود ولفظ الترمذي لما وقعت بنوا إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا^(١).

قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه

(١) رياض الصالحين، الألباني: ٢٠١. خلاصة حكم المحدث: ضعيف

أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرّون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب^(١).

عن زينب أم المؤمنين: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرعا يقول: لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم؛ إذا كثرت الخبث^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب^(٣).

عن النعمان بن بشير: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهما وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا^(٤).

قلت: فيه بيان إفادة تعذيب العامة بذنوب الخاصة.

ومما سبق فإن الفتنة إذا عمت هلك قوم كانت لهم سيرة، وفنيت أمة أضحت لهم سنة، وطال الدمار فريقا كانت لهم طريقا، وتعست جماعة أمست فيهم سبيلا، وشقيت طائفة كانت فيهم مسلكا وخلقا. والله المستعان.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٣٣٨

(٢) صحيح البخاري: ٣٣٤٦

(٣) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٧ / ٣٩١

(٤) صحيح البخاري: ٢٤٩٣

وذلك رهين أن يعم ضلال، وذلك شرط أن يستشري غي، بحيث تصبح شارة القوم العدول عن المنهج، وبحيث يصير سننهم ارتكاب ما حرم ربهم، وعدم انزجارهم حيث ينزجر الصالحون.

ويوم أن يصير الداء ظاهرا، وحين يكون المنكر فاشيا، ووقت أن يكون المعروف مندثرا، ولا ثمة أمر، ولا ثمة نهى، فإنه والحال كذلك يخشى على فصيل هذا شأنه.

ومنه فعند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر، وعدم التغيير. وإذا لم تغير الجماعة أو لم تستطع، وجب والحال كذلك على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران ذلكم مجتمع عم فساد وطل غيه وانخرمت مروءته.

روى ابن وهب عن مالك قال: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها^(٢). [صحيح البخاري، كتاب الشركة باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه حديث رقم ٢٣٨٨]. [تفسير القرطبي: ج ٤/ ٢٤٩].

واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها.

واستشكل من جمع بين ما سبق، وما نزل من ذكر حكيم، ومن قرآن مبين، من حيث قد الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]. وكذا قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب.

وأقول إن النصين سالفَي الذكر مهوران إعمالا بيوم القيامة. وإن كلا يبعث على نيته كما سبق من بيان لأدلة وافية، وكما اتضح من سياقات لبراهين عديدة، زينت بها المقال، وأبنت فيها عن واقع الحال، وحقيقة المآل، ونسجت فيها صدق المقال.

ومنه فعاجل له حكمه في الدنيا، وآجل له مناطه في الآخرة، ولا منافاة والحمد لله تعالى.

وزيادة بيان، أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فمن فرض على كل من رآه أن يغيره، وسكوته عصيان، فهذا بفعله، وذاك برضاه، والله تعالى ربنا الرحمن قد جعل من سننه أن فاعلا كمن رضي. وأن مرتكبا لا كمن سخط.

ومنه فانتظم كل في العقوبة.

وذكر القسطلاني أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله، أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة، فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار^(١).

وحين وقع التيه على بني إسرائيل نتيجة اكتسابهم ظلما، ونظير ارتكابهم طغيانا، وسبب مقارفتهم تمردا على أحكام الله تعالى، فإنه لم يختص هذا التيه بمن ظلم منهم وحسب، وإنما امتد ليشمل نبي الله تعالى موسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى لمواجهة الظالمين والطواغيت، وشمل أخاه هارون عليه السلام وجميع المؤمنين بالله تعالى، لأنهم كانوا يشكلون جزءا من تلك الأمة.

وحين حل الابتلاء بالمسلمين يوم أحد، ولما خالف الرماة أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، من بعد نزولهم من جبل عينين، بغية المغانم، ولما أن حسبوا أن المعركة قد انتهت بنصر المسلمين، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه لم يسلم من ذلك البلاء، إذ رماه المشرك ابن قميئة الليثي بالحجارة حتى أصيبت رباعيته الشريفة وشج في وجهه الكريم وكلمت شفتاه ودخلت حلقتان من المغفر الذي كان يستر به وجهه الرضي في وجنتيه. بل تقدم ذلك اللعين يريد أن يقتله لولا أن ذب عنه مصعب بن عمير رضوان الله عليه.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٥ / ٣

وهذا كله يجري وفق سنة الله تعالى في خلقه التي تقول بأن العذاب حين يأتي في الدنيا على مجتمع أو على أمة من الناس، فإنه لا يختص بالظالمين وحدهم من أبناء ذاك المجتمع أو تلك الأمة.

وأنت ترى مصداق ذلك في قوله تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

والشاهد أن العقاب قد عم جماعة بنس إسرائيل كلهم، ومعلوم أن الكل لم يكن قد كان صنيعه ما حكى الآية ضرورة. فتأمل

ومنه فإن نصر الله تعالى قريب لكنه ليس أمرا عفويا، وليس أمرا إلا على سبيل الإقدار المحكم سلفا، كما قال تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

فإنه وإن كان نصره تعالى لقريب من عبيده كما قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. إلا أنه أخذ بسبب، وإلا أنه إحاطة بموجب.

عن خباب بن الأرت: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون^(١).

وهو دال بلفظه على حقيقة أخذ بسبب، وهو صريح بنصه على وجوب موجب، وإلا فكيف كان صبرهم؟ وعلى أي شيء كان جلدتهم واحتسابهم؟ وإلا فقد كان يمكن

(١) صحيح البخاري: ٦٩٤٣

لأحدهم أن يقعد في بيته مستندا على أريكته منتظرا نصرا مؤزرا. وهو منه خاليتان كفاه، ومفرغتان منه يداه، بما كسبت اليدان، وبما اقترفت الكفان.

وهؤلاء بسوء الصنيع يريدون عون المعبود، ويطمعون في رزق الرزاق الودود! وهم به قد أثمت قلوبهم، بما قد تمنوا عليه تعالى في معاشهم، وأوهام كان فيها شأنهم.

والفئة المؤمنة من ذاك براء. فهي تعمل في جد، وهي تنهض في عزم، وهي تجوب زقاق الجهاد والمثابرة في سعي وإصرار دائبين، آناء الليل وأطراف النهار، نصرا للدين وإحقاقا للحق.

وذلك كله في عقدها يسير، وذلك جله في يقينها نذير، وهي إذ تتطلب غاليا، وهي إذ تتأمل نفيسا، وهو الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة^(١).

وهو من معرفة سنن الله تعالى في كونه، وكيفا تتأكد لك هذه الحقائق، وكيفا تتفتق أمامك تيك الأشباه، وكيفا تتيقن في العقد تيك النظائر، وكيفا تترسخ وتثبت هذه الأشباه وتلكم النظائر فلا بد من إعمالها في عالم الضمير، وفي عالم المشاعر والقيم والتصورات والموازن، كيما تكون منهجا، وكيفا تكون سلوكا عن سليقة واعتقاد ويقين، ومن كل ذلكم تستلهم زادها، وهي إذ عرفت طريقها، وأدركت سبيلها.

وعلى أنه ومن فقه الأمر والنهي، أن يكون حسب القدرة والطاقة، وحيث كان من شرطه أيضا ألا يترتب عليه ضرر بالدعوة والدعاة.

(١) صحيح الترمذي: ٢٤٥٠

المبحث الثاني عشر

عالمية القرآن وخاتمية الإسلام

وهما خصيستان تميز بهما الإسلام عما سواه من مناهج، وهما سنتان دلت عليهما أخبار السماء، وأنباء الكتاب الحكيم، والذكر المجيد، كما قد استفاض بهما كلام سيد المرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وليس يتأتى ذلكم إلا من كونها آخر الرسالات، كما أنها كانت أول الأديان، ذلك لأنه الله تعالى لم يفرض دينا سوى الإسلام على مر التاريخ كله.

بيد أنه يبقى فاصل هام. ذلك وأنه قد نزلت الشرائع قبل الإسلام الخاتم، والذي جاء به رسول الله محمد ﷺ معالجة لقضايا آنية مجتمعية في ذلكم الحين، ناسبها أن يخص لها رسول، و وافقها أن يبعث فيها نبي، إلا أنها ولما لم تكن قد بلغت مبلغا من الشمول، ولما لم تكن قد أخذت معنى العموم، فكان من نصيبها أن تكون كذلكم شرائع محلية لتعالج ما حل بالقوم كل في حينه، وذلك من مثل فعلة قوم لوط، أو من مثل تطفيف قوم شعيب، أو ما شابه ذلكم.

إلا أن دين الله تعالى الذي هو الإسلام، والذي أرسل به رسوله محمدا ﷺ، وبوصفه دينا خاتما كما قد بينت آنفا، فكان من شأنه أن يعالج كافة القضايا التي كان طبيعيا أن يواجهها الناس حياتهم، وكان من لوازمه أن يتعرض لمختلف الشؤون التي يمكن أن تتعرض لها البشرية في تاريخها الطويل، من يوم أن نزل، وإلى أن تقوم الساعة.

وإنه لكان لزوم ذلك فضلا منه تعالى، كما أنه كان من وجوب أن يحصل، ولولا نعمة ربي!

وليس يتأتى ذلكم إلا من كونه ديناً خاتماً - كما أسلفت - ومنه لزم أن يبين في نصوصه سير البشرية، وطريق صلاحها لتبعبه، كما وأنه لزم أن يبين لها عطب سبيلها وفساد منهجها، لتتجنبه.

وهو من مضامين قمته السامقة، وهو من لوازم ذروته العالية، وآفاقه السامية. وهو من موجبات هامته الشاخة

قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: ٢٨]. وقال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما (إنما أنا رحمة مهداة)^(١).

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (حدثني محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن فرات القزاز، قال: سمعت أبا حازم، قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين، فسمعتني يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم)^(٢).

عن جابر بن عبد الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة^(١).

(١) صحيح البخاري: ٤٣٨

ومن حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى فيأتون، موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى ابن مريم، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبا، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وحمير - أو كما بين مكة وبصرى^(١).

وكان من شأن هذه العالمية وكان موجبات هذه الخاتمية استلزام مرونة، وإيجاب يسر لهذه الرسالة، كيما تكون قادرة على استيعابها لسائر الأجناس وعموم البشر في مختلف العصور والأمصار والظروف والبيئات.

وعلى أية حال فإن هذه السمات، وإن تلك الخائص هي التي منحت ديننا السموا، وهي التي وهبت رسالتنا العلو، وهي التي أكسبت شريعتنا يسرا ومرونة وتجاوبا، كان منه زادها، وكان منه ريبها، لتسمو ولتعلو ولتسمق، ولتقف سدا منيعا أمام محاولات إخضاع النصوص الشرعية لوقت تاريخها، وزمان نزولها، ذلك لأنها متعالية عن كل من زمان، وكما وأنها مترفعة عن كل مكان، ومطلقة عنهما معا.

الفصل الرابع: إطلاقات واجبة

(١) صحيح البخاري: ٤٧١٢

وسأخصص هذا الفصل لذكر إطلالات رأيّتها واجبة لتعلقها الحاسم في كيفية تصور التاريخ القرآني ومآلاته، وكيف أنها هي التي يكون عليها مدار قصصه، وكيف كان مجيئها بيانا لفهم خبره وأمره معا!

وسيكون الكلام على هذا الإطلالات بمشيئته تعالى، من خلال ثلاثة مباحث إيجازها كما يلي:

المبحث الأول

فعل المأمور وترك المحذور

(موقف الصحابة مع رستم أنموذج)

وتلك بدهية إسلامية أردت أن أجعلها من صلب البيان ومن أساس البحث. وذلك لما ينضوي تحتها من صدق إيمان به تعالى، ولما يتخرج عليها حكم بذككم إيمان بالله تعالى أو نقضه أيضا.

ذلك لأنني رأيت قوما قد تملقوا منها زعما منهم أنه يمكن الاكتفاء بالإيمان أن الله تعالى هو الخالق الرازق والحامي والمميت والمنزل للمطر وغير ذلك مما حفل به تاريخ الشركاء يوم أن نزل القرآن فيهم ليلغهم أن هذا الإيمان وحده ليس بكاف أن تدخلوا به الديانة وإنما لزمه الإيمان معه أن سلطان الله تعالى يجب أن يحل محل سلطانكم!

ذلك لأن سلطانه تعالى قائم على العدل المطلق، ذلكم العدل الذي لا يمكن إلا أن يكون عدلا كله، فلا تلحقه مظلمة واحدة أبدا، ذلك أيضا لأنه قائم على الموضوعية بأسمى معانيها، فلا تهزه شخصية علاقة، ولا يعوز ربنا الرحمن غنى فوق غناه تعالى، ليكتمل له ذلكم سلطان بظلم وإن دق، وحاشاه سبحانه!

وإلا لكان سهلا ميسورا كما هو زعم أسلافكم من قبل بحيث تظل فيهم الرياسة والتي لا يتقيدون أمام ذلكم الإيمان الرخيص بأي قيد من قيود القرآن أمام سلطانهم بحيث ينزعه منهم انتزاعا، ويحل سلطان الله تعالى محله، ليكون الناس أجمعين أمام دين جديد يستحق أن يكون دينا قيما بحق، يوم أن جعل الناس كلهم سواسية أمامه كأسنان المشط لا فرق بين أحد منه يعلو به على صاحبه من فروقات الأرض والطين سوى فرق واحد هو التقوى والعمل الصالح، فذلكم وحسب هو الذي يرفع الله تعالى به أقواما، ويحط به قوما آخرين.

وكانت هذه اللوثة هي التي جعلت الصحابي الكريم ربي بن عامر وصحبه في معركة القادسية رافعي رؤوسهم يوم أن واجهوا رستم بما سوف أسوق منه مقتطفات ذلك منها على عظمة هذا الدين يوم أن يجري في عروق من قد تدينوا به بحيث أصبحت لحمية واحدة ليس بمستطاع لأحد أن يجد ذلكم فرقا بينهما!

وانظر إلى ردود ربانية ألهمها كل من هؤلاء الرهط على حدة، وكأنما هم على قلب رجل واحد، والحق أنهم كذلك، لأن مصدر التلقي عندهم كان واحدا، ولأنهم قد أخذوا مصدر التلقي كلهم كما يجب أن يؤخذ!

إذ عندما توجه إليهم رستم بسؤاله: ما أقدمكم؟

فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا، أخذ بلادكم، وسبي نساءكم وأبنائكم، وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك.

وقال له المغيرة بن شعبة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولا، قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز.

فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله.

وانظر إلى رجاحة صنديد كرستم وإلا كان من مثله أن يحبس وكان من مثله أن يقتل وكان من مثله أن يشنع لكنه الحق الأبلج عندما يقذف بنوره من عباد ربانيين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه! حيث قال: ما أحسن هذا؟! وأي شيء أيضا؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.

قال: وحسن أيضا، وأي شيء أيضا؟

قال: والناس بنو آدم وحواء فهم أخوة لأب وأم.

وقال: وحسن أيضا.

ثم قال رستم: أرايت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟

قال: أي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضا.

قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فانفوا ذلك، وأبوا أن يدخلوا فيه قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل.

قالوا: ثم بعث إليه سعد رسولا آخر بطلبه، وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللائي الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها

على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتوني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رحله فوق النمارق فحرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لتدعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقاتلتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

الحاشية تفتن ملكها :

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصنونون الأحساب. ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلا، فبعث إليهم حذيفة بن محصن فتكلم نحو ما قال ربي.

وفي اليوم الثالث المغيرة بن شعبة، فتكلم بكلام حسن طويل. قال فيه رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخولكم أرضنا كمثل الذباب رأى العسل. فقال: من يوصلني إليه وله درهمان؟

فلما سقط عليه غرق فيه فجعل يطلب الخلاص فلا يجده.

وجعل يقول: من يخلصني وله أربعة دراهم؟

ومثلكم كمثل الثعلب ضعيف دخل جحرا في كرم فلما رآه صاحب الكرم ضعيفا رحمه فتركه، فلما سمن أفسد شيئا كثيرا، فجاء بجيشه واستعان عليه بغلمان فذهب ليخرج فلم يستطع لسمنه فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا.

ثم استشاط غضبا وأقسم بالشمس: لأقتلنكم غدا.

فقال المغيرة: ستعلم.

ثم قال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة، ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا.

فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيدا على رغمكم؟! فلما قال ذلك استشاط غضبا.

فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم؟

فقال رستم: بل نعبر إليكم فاستأخر المسلمون حتى عبروا فحملوا عليهم فهزموهم.

وذكر سيف: أن سعدا كان به عرق النسا يومئذ، وأنه خطب الناس وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وصلى بالناس الظهر، ثم كبر أربعاً وحملوا بعد أن أمرهم أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله في طردهم إياهم، وقتلهم إياهم، وقعودهم لهم كل مرصد، وحصرهم لبعضهم في بعض الأماكن حتى أكلوا الكلاب والسنانير^(١).

المبحث الثاني

الفصام النكد

وكان الفصام النكد قد نشأ يوم أن قام فريق من الناس، أن يفرقوا بين كون الله تعالى خالقا، وبين كونه تعالى آمرا ناهيا!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٤٠

وكان من أمرهم أنهم فقط يحصرون هذا الفصام النكد على الله تعالى وحده، بحيث تراهم وقد أوكلوا كل صنعة إلى صانعها، وتراهم وقد أوعزوا إلى كل صاحب آلة لإصلاحها، وكان من مقتضى قواعد الإنصاف أن يكون المنهج واحدا!

لكن المسألة لها تاريخ: ذلك أن العصور الوسطى لما قد انحرفت عن الدين باسم

الدين كهنتها ورهبانها وأدى بهم ذلك إلى إزاحة الدين عن قيادة البشرية، وأحلوا الأساطير، وما قالت به ساداتهم، وظنوا أن ذلكم هو الخلاص من ربقة الكنيسة، للانطلاق نحو الرقي والتقدم والاختراع، الذي كانت الكنيسة تقف في وجهه من حيث قد ظنوا أن الدين كان سببا في التأخر.

إلا أن هذا لا يجعل من الخطأ خطأ آخر مركبا. ذلك أنه كان واجبا عليهم إصلاح أمر الدين لترجع الكهنة إلى الصواب الذي جاءت به الملة، فطرة فطر الله تعالى الناس عليها، وإصلاح الدنيا معه، بحيث لا يمكن أن يتصور أن يكون هناك تنافر بينهما البتة.

لكن الذي حدث هو علاج خطأ بخطأ أفدح منه، فصاروا يقدمون الآلة، ويستحلون ما حرم الله تعالى. فأطلقوا حبلا على غاربه، وأفسدوا شربا على شاربه، ليجري كل منهم بجثا- وحسب- عن مآربه، وهي لوثات لا علاقة لها بالإصلاح ألبتة!

ومن هنا جاء ذلكم الفصام النكد بين أمر الدين الذي اختصروه إلى داخل الكنيسة فلا يتعداها إلى خارج، وأما كل ما كان خارج جدران الكنيسة فلا شأن للدين به! حتى وصل بهم الأمر- وتلك - بدهية أن كانت الكنيسة نفسها مرتعا لكل داء، وتربة خصبة لكل هاجس ومرض ووباء!

ومنه قد تسربت إلى مجتمعاتنا هذه اللوثة بحيث أصبح من المعمول به عملا في مناح عدة أن الدين لا يكاد يخرج من المسجد!

وكان من كيد أولاء أن غسلوا أدمغة ثلة منا فأوسعوا لهم المساجد ليقولوا فيها قولهم
حيث شاؤوا! إلا أنهم نفثوا في روعهم ألا شأن لما تقولونه داخل مساجدكم بشأننا!
ودعونا وشأننا لأن ذلكم هو من مقتضى بيعتكم لنا! والقول بخلافه خروج عنها وويل
لمن خرج!

ومن مقتضى ذلكم، قول منسوب إلى نبي الله تعالى عيسى عليه السلام (دع ما لقيصر
لقيصر، وما لله لله).

وهي مقولة لا أعتقد صحتها بقدر ما أعتقد معناها، إذ إنها على ذلكم نحو إنما تخالف
نصوص القرآن صراحة، وذلك من مثل قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:
١٥٤] ، وكذا قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وهي عبارة منسوبة إلى المسيح - ﷺ - عندما حاول بعضهم إخراجهم في أمر الجزية
التي يدفعها اليهود للرومان؛ فأراهم صورة "قيصر" على الدينار، وقال هذه العبارة.

فلو صحت عن المسيح - ﷺ - لكان المقصود بها الإقرار بصحة دفع الجزية للرومان
لأجل أنهم متسلطون على بني إسرائيل وهم لا يقدرّون على محاربتهم ولا يستطيعون
مدافعتهم.

ولا يمكن أن يقول المسيح - ﷺ - بفصل الدين؛ بمعنى أن يكون بعضه هنا وآخر منه
هناك!

وذلكم لأنه نبي، والأنبياء كلهم معينهم واحد، ومشربهم واحد، وأصل وحيهم واحد
فلا انفصال ولا انقطاع ولا اجتزاء!

وهو نفسه الذي قال عليه السلام: (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل^(١)).

وقال أيضا عليه السلام: (فاني الحق اقول لكم الى ان تزول السماء و الارض لا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل^(٢)).

وقال أيضا عليه السلام (فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى و علم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السماوات و اما من عمل و علم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات)^(١).

أي لم يأت لهدم الوحي الذي أنزل على موسى -عليه السلام-، وهو متضمن عند كل متأمل عاقل تنظيما لأمر الحلال والحرام كلها، إن كانت هنا وإن كانت هناك فتأمل!

ومنه فإن لوثة القول (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله). بقدر ما تسرب معناها ومبناها إلى قوم قد أطلوا علينا برؤوسهم ليفرغوا دين الله تعالى من وظيفته كحام لحمى الحلال، وكذائد عن حصون الحرام ألا يوقع في أراذلها، فإنه وبنفس القدر أرادوا أن ينفثوا في روع نفر غير قليل من أبناء ديننا ليحصدوهم حصدا أمام شعاع خافت من نور، يحويه ظلام الادعاء، ويكتنفه هوس الهوى، وإفك البهتان، ونير التضليل. وإثم الزور وشهادته معه!

وإنه لبهذا الفهم السمج فهم ديننا، وبهذا الفقه المتدني سوقت فئة لإسلامنا على أنه ذاك الدين الذي لا يكاد يبرح مسجدا، وأنه ذلكم الاعتكاف الذي لا يكاد يخالفه!

وأضحت كل محاولة لإخراج الدين بأحكامه وآدابه ومعاملاته من المسجد إلى ما هو خارج جدرانہ لتقابل بمثل ما قابل به آخرون.

(١) انجيل متى ١٧ : ٥

(٢) انجيل متى ١٨ : ٥

وهو أمر حسن تصحيحه لأن ساحات الحرب مع الله تعالى لا قبل لأحد تحملها!

ذلك لأن الله تعالى يغار، وأشد ما تكون غيرته سبحانه أن تنتهك محارمه، من تحليل لما حرم، أو من تحريم لما أحل، أو من تبديل لما شرع سبحانه.

عن أبي هريرة أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه^(١).

وها نحن الآن نكتب بحثنا، وها نحن الآن نسطر بياننا، إبان جائحة أسموها (كوفيد: ١٩)، وليس يدرى ما الله تعالى فاعل بنا!

ومنه فلتشد رحال العزم إلى سبيل مولانا الله تعالى قبل فوات أوان الرجوع والتوبة النصوح وعندها ﴿كُرِّهْلَكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرَنَ فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

المبحث الثالث

قضية الألوهية

ومن حيث قد أدى هذا الخروج بقوم إلى أن أعطوا أنفسهم الحق بالتوغل فيما يعرفون، وما لا يعرفون، حتى أدى بها ذلكم إلى إنكار كل ما يمكن ألا تقبله عقولهم، ومن هنا أصيبت بلوثة إنكار كل ما هو في (فوق العقل)، ومن ثم جعلوا كل شيء مدارا للوك، وتحت مقولة التنظير والنقاش والجدل.

ومنه كثير من مسائل الألوهية، وكونها تنتمي بالأساس إلى مفاهيم غيبية، ولا يمكن للمناهج الوضعية دراستها وتحليلها تحليلًا ماديًا واقعيًا، لأنها مسائل تتميز بالإطلاق عن الزمان وعن المكان، ولذلك لا يمكن للعقول باعتبارها محدودة الحديث في مسائل الزمان

(١) صحيح مسلم: ٢٧٦١

ومسائل المكان أن تحيط بظاهرة يتقاصر عنها كل من الزمان والمكان، ومن هنا يتجلى التناقض بين المنهج وموضوعه، فالموضوع هنا (الألوهية)، أكبر من أن يحاط بالتناول التاريخي، الذي لا يستطيع البحث خارج ثلاثية (الحدث، الزمان، المكان).

ومنه أيضا وقع البعض في وحل البحث فيما وراء الطبيعة، فأعمل عقله فيما دون ما لم يكلفه، بل بالعكس هي مأمورة أن يؤمن بما وراء إدراك حدوده، وذلكم من عبوديته لله تعالى ربه الرحمن إن أراد سبعا. وإذ ليس بخارج منه إلا يوم أن يعود إلى منهج ربه، فيعرف حده الموسوم له أزلا!

ومنه أيضا أن طائفة ولما تحقق عجزها عن دراسة ما هو فوق عقلها ليبلد حسها لتخرج بالكلية من المنهج طالما أنه ليس يكون خاضعا للبحث والمعامل والتحليل والدراسة!

وذلكم من الخبط العشواء، الذي قد اكتوت هي أول من اكتوى بناره، يوم أن قد غويت ورمت بالكرة في غير مرمى، ويوم أن لم تجعل سدا منيعا بينها وبين شططها، لتبقي على دائرة اللامعقول، وهو عالم الغيب، وكل ما هو خارج عن إمكاناتها، وهو ليس عيبا أن يكون وجوده، طالما أن قد قلنا بأننا مخلوقون، وآمنا بذلك، فكان من مقتضاه الإيمان أن أشياء كثيرة وعظيمة يجب عقلا أن تكون وراء فهمنا.

ومنه لاحق لأحدنا أن يخول له هواه أن تكون هذه الأشياء العظيمة مجالا لبحثه، وقد علم ضرورة أنه لا إلى نتيجة يمكن الوصول إليها في ذلك.

ومنه كان المحذور، يوم أن سوغت طائفة لنفسها أن تأمر، ومن غير أمر ربها تعالى، ويم أن كان من نتاجه ذلكم الإنسلاخ البشري من هذه الأوامر من أوسع أبوابه، وذلكم لما ظن الإنسان أن صانع ذلكم هو أخوه الإنسان! ذلك الذي لا يفرق عنه بشيء يؤهله أن يكون أمرا له من دون الله تعالى!

وأزيد وضوحا قليلا لأقول: إن طاعة القوانين البشرية من سلطة التشريع قد خبت أو اندثرت أو انمحت من أفئدة الرعية. وذلك لأنهم رأوا أن السلطة التي سنت تيكم القوانين إنما هي من طبقة مثلها في الإنسانية. والنفس تشرب إلى طاعة من هو أعلى منها لا من حيث الجنس فحسب وإنما أيضا من حيث ما تناله الأوامر والتشريعات من قدسية في نفوس المخاطبين فيزعها ذلكم إلى الانقياد راضية مرضية. وهي بذلك مفتحة أيما انفتاح على أجر عظيم تناله من الطاعة وهي به عزيزة أبية مصانة الكرامة محفوظة الشكيمة!

والعكس منه يحدث حال أن كانت سلطة التشريع من البشر من أمثال هؤلاء جنسا. إذ لا يجد النص سندا من مهابة، وإذ يفقد الأمر والنهي صفتي القدسية والعظمة اللتين تؤهلانه لأن يعمل في واقع النفس والضمير. ذلك أن الإنسان المسلم يطيع راضيا، وذلك أن النفس مطمئنة بتبغى خيرا وأجرا من عملها يكون سبب عيش سعيد، ويكون موجب وسع رغيد، أعدده الله تعالى للعبيد.

وهو ما يخلو منه حال كونه أمرا أرضيا. وضعته أيد لا تعي إلا من تحت قدميها أو لا يكون! أو سنته عقول تناهى عجزها ألا تعرف فلاحا لها حتى تقيس عليه صلاحا لغيرها!

ومنه كان ذلكم الخطب - المبرر-، وكان ذلكم العشواء - المبرر-، وكان ذلكم التبرم - المبرر- من كل قيمة جاءت بها الحنيفية الإبراهيمية.

ومنه كان ذلكم التفلت الواضح من كل قيمة لنص هذا شأنه، ومنه كان التحايل علي أمر كان ذا وضعه، ومنه كان الالتفاف على سبيل هذا سننه، من بشر كمثل البشر، لا كمثل شرع كان وضعه من رب البشر سبحانه، فتراهم لإعماله متسابقين وتحسبهم به أمين مطمئنين، ذلك لأنهم أعملوه احتسابا ودينا.

الفصل الخامس

ثمرات دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن الكريم

والتفكر نور، والتدبر برهان. ذلك لأنه تعالى حين أمر نبيه محمدا ﷺ بحكاية ما قد قصه عليه موله فإنما كان لذلك أثره الفعال في تفكره، وإنما كانت له ثمرته السائغة في تدبره، ذلك لأنه ﷺ كذلك سوف يطمئن إلى سننه تعالى في خلقه وأنبيائه ورسله، وليس هو إذن بدعا من هؤلاء الرهط الكرام حين جاؤوا بالتوحيد، وبشروا به العبيد، وحين أنذروا بالوعيد، وأخافوا به الشريد.

قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والشاهد قوله تعالى ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١٧٦]. فإن قص القصص سبب للتفكر، وموجب للاعتبار.

ولذا كان من سائغ القول أن أتعرض في لمحات لذكر بعض مما يجول في خاطر من عبر، ولدرس شيء مما يعمل به وجداني من عظات لتلمس ثمرات دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن المجيد. ذلك لأنه لكل شيء موجب، وذلك لأنه لكل زرع ثمر، وإنما كان زرعنا ذلكم التطواف الجميل، وذلكم الذكر الحسن الأخاذ لسير ماحكاه القرآن، ولقصص ما أنبأه البرهان، وبالله تعالى الثقة وعليه التكلان.

وأوجز ذكرها في مباحث خمسة تناولتها هكذا:

المبحث الأول

تثبيت قلوب المؤمنين

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

إذ إن ما يقصصه الله تعالى ربنا الرحمن على رسوله ومصطفاه محمد ﷺ، وكل ما يحتاج إليه من أنباء الرسل فإنه تعالى يقصه عليه تثبيتاً لفؤاده، ذلك أن دعاة الخير يأتيهم من ربهم ذكر من أنباء الرسل أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم. مما يكون زادا لهم على الطريق وتسلية وتثبيتاً على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالهم فيها من الأذى.

وليس يكون بعيداً أن ينضاف إلى التثبيت اليقين، وكلاهما أمعن في الخلود إلى وعده تعالى أنه ناصر عبده في مواجهة هذا الرتل الطويل من الأعداء المناوئين للدعوة على مر الزمان.

قال ابن عباس: ما نشد به قلبك.

وقال ابن جريج: نصبر به قلبك حتى لا تجزع.

وقال أهل المعاني: نطيب، والمعنى متقارب.

و " ما " بدل من كلا، المعنى: نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك.

وجاءك في هذه الحق أي في هذه السورة، وخص هذه السورة ذكراً لما فيها من أخبار الأنبياء والجنة والنار. كما وأنه قد خصها سبحانه بالذكر تأكيداً، وإن كان الحق في كل القرآن.

وجاء عن قتادة والحسن: المعنى في هذه الدنيا، يريد النبوة.

ولا تعارض بين هذه الأقوال، من حيث إن المراد هو التنويه بأمر الذكرى بالحق لما يجب أن تكون عليه سيرة القوم، ولما يفرض أن تكون حياتهم مسوسة به، كما أنه يشي بأسلوب تكسوه الهيبة، وإن جاء على حكاية الطلاوة في ذكر الذكرى، لما تتضمنه من احتفاء بالمدكر، وهو ذلكم الإنسان، ولما تشعب به من خلال الخير، وأوصاف البركة، حينما يكون ذلكم الإنسان إنما تكفيه الذكرى، وهو تشوف من الشارع الحكيم لما في مكنون النفوس من خير هي قد جبلت عليه يوم أن فطرها ربها الرحمن سبحانه.

وذلكم هو ما تأكد أيضا ختما الآية الكريمة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، إذ لما كانت الموعظة تخالج قلبا، وإذ لما كانت الذكرى تتخلل لباً، لما قد جاءت به هذه من رحمة بها قد لفت، ولما قد جاءت تلك بجنو به قد حفت، فكان من ناتج ذلكم هو ما تشوف به الشارع الحكيم سبحانه من قبول للحق من حيث قد صيغت مسائله على نحو من عظة، ومن حيث قد سبكت أوضاعه من ذكرى، بعيدة عن جمود، ومحالة على الرفض، بل إن قيمة القبول لها، والانصياع لأمر الحق بها للمأمول بإذن الله تعالى الملك الرؤوف الرحيم.

بيد أنه لزم لفت إلى ما لفت إليه نص الذكر الحكيم من التنويه بذكر المؤمنين اهتماما بهم أيما اهتمام، وذلكم لأن عامل القبول في قلوبهم لتوافر، وذلكم لأن أصل الفطرة فيهم ليناديهم أن هلموا إلى الحق والموعظة والذكرى أيها المؤمنون!

وهو نداء رباني ألمسه من خلال تدفقات المعاني في انسياها كأنما هي نهر جار بمياهه العذبة للشاربين، وطهر للقائمين. وهو أيضا أسلوب يحاكي ما يجب أن تكون عليه الفئة المؤمنة، وهي في طريقها لتبليغ أمر ربها في قالب من الموعظة والذكرى، فهي لا تعرف جمودا في قول، ولا يدركها صلف في بيان.

وذلكم حينما كان له من نتاج فإنما كان واقعا لاحالة بإذن الله تعالى، إذ قد تأتي بما قد أراد الله تعالى له أن يكون، كيما تتأتى لها ثمار ما يؤول إليه نصحتها، وكيما يمكن أن يلحقها القبول من ربها، لأنها أبلغت أمر ربها الرحمن سبحانه في قالب قشيب، وبخلق حسن حميد!

هذا، وفي قوله تعالى ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ ما يبين أنه مما يتعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ ولذا قد جاء النص عليه في غير ما موضع من كتاب الله تعالى ربنا الرحمن من ذكر حكيم ومن أي كريم.

بيد أن ذكره في هذه السورة الكريمة وعلى هذا النحو مما يعد تشريفا لها بلا ريب، ذلك لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى، ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص.

وكون ما جاء من ذكر لقصاص الأولين تثبيتا للنبي، وذكرى للمؤمنين، ليتفق تماما مع طريقة الكتاب الكريم والذكر الحكيم في عرضه لسير الأولين كيما تكون زادا للدعاة العاملين وهم في سبيلهم إلى دعوة الناس إلى الخير مستلهمين العون حين يجابهون بما قد جوبه به الأولون ليتذكروا أنها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وكونها سنة أي يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون.

وتخصيص المؤمنين بذلك هو تشوف من الشارع الحكيم بأنهم هم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء على الحقيقة. وهو ثناء عليهم إذ أخذوا الكتاب بقوة، وهو تنويه بهم إذ بادروا إلى الخيرات، وإذ تابوا على الموبقات، وإذ قد سارعوا إلى كل معروف، وإذ قد تناهوا عن كل منكر.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وهي تسليية أخرى من الله تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله^(١).

يقول تعالى ذكره: إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك ، فيجحدوا نبوتك ، وينكروا آيات الله أنها من عنده ، فلا يحزنك ذلك ، واصبر على تكذيبهم إياك، وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله ، حتى يأتي نصر الله ،

فقد كذبت رسل من قبلك أرسلتهم إلى أمهم، فنالوهم بمكروه ، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه ، حتى حكم الله بينهم وبينهم.

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾، يقول: ولا مغير لكلمات الله و " كلماته " تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، من وعده إياه النصر على من خالفه وضاده ، والظفر على من تولى عنه وأدبر "ولقد جاءك من نبي المرسلين"، يقول: ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أمهم. وما صنعت بهم حين جحدوا آياتي وتمادوا في غيهم وضلالهم^(٢).

وانظر إلى بيان القرآن المبين، وهو يأخذنا في سياق بلاغي كريم، تكاد النفوس أن تستغرق من حلاوته، ولتشرع القلوب أن تطمئن لطلاوته، وهو إذ يختصر مبنى الآية الكريمة على نحوها هكذا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾!

ذلك لأنه كان من الممكن أن يكون السياق هكذا: وقد جاءك نبا من أنباء المرسلين! إذ هو الواقع على الحقيقة، لما قد جاءنا الله تعالى به من أنباء على كثرتها ثبينا لقلوب أوليائه حينما يعلمون أن هذه سنته، وحينما يوقنون أن هذه هي طريقته سبحانه مع السالكين مسالك الهدى، وهم إذ يدعون أقوامهم إليه فتراهم ينكصون، وتراهم يعادون

(١) تفسير الطبري: ٩ / ٣٨٠

(٢) تفسير الطبري: ج ٥ / ١٨٢

من قد جاء بالهدى وهو على صراط مستقيم من عند الله تعالى، وإذ هم قد كان حالهم ﴿لَا يُدْرِكُ مِنْكُمْ جِزَاءٌ وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

ولما لم يذكر الله تعالى سبحانه كلمة (أنباء) لأنها بذلكم الذكر ربما خالفت طريقة الكتاب الكريم القائمة على البيان البليغ في أوسع سبيل له إلى ذلك، ومن كون مجيئها ربما كان حشواً أدخل بطريقة النظم الكريم، وكونه إذ قد أتى على ذلكم وجه من الإعجاز الذي أبكم كل بليغ! فكان بالاستعاضة عنها بذكر حرف الجر (من) ليعين معناها، حيث قد خلا النص من مبنائها، وليترك مساحة واسعة لعطائه البلاغي المجيد في مقابلة قوم كانوا يعرفون معاني البلاغة فأتاهم ببليغ من القول يعجزون هم أنفسهم على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وصدق الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه وهو يقول ﴿قُلْ لَّيِّنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتتوالى تسلييات الله تعالى ربنا الرحمن لرسله الكرام، وهم إذ يدعون قومهم، وهم إذ يجابهونهم بعداء مستحكم، وشر مستطير، ليكون من ثم إذن باعثا على نفس التسلية، وبذات المستوى لعباده المصطفين الأخيار، وهم في طريق إبلاغهم أمر ربهم إلى قومهم.

إذ لما كان النصر الرباني، وإذ لما كان التأييد الإلهي حليفين لمن تزكي، وذكر اسم ربه فصلى، تطبيقا على ما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الشمس: ١٤-١٥]. وإذ لما كان فلاح الإنسان في تزكية ذات نفسه بالتوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد، فإنه بذلك يكون قد نجح وأدرك طلبته فلاحا وزكاة، وحاله إذ قد تطهر من الكفر وأدراجه، وإذ قد تخلى عن الشرك وآثامه، وإذ قد خلت نفسه من معاصي الله تعالى، على سائر أنواعها، وعمل بما أمره الله تعالى به، فأدى فرائضه. وذكر الله فوحده، ودعاه ورغب إليه؛ إذ إن كل ذلك من ذكره تعالى.

ومن حيث لم يخص الله تعالى من ذكره نوعا دون نوع. فقد دل على عموم الذكر ما دلت عليه الآية الكريمة من معاني العموم والشمول والإطلاق، لتهيم كل نفس في أنواع الذكر المشروع ما ساغ لها أن تسبح، والله المستعان.

ومنه فانتظر أنت يا محمد أيضا من النصرة والظفر مثل الذي كان مني فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم ، واقتد بهم في صبرهم على ما لقوا من قومهم، ذلك لأنه تعالى قال أيضا ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. فدل على ما للصبر من قيمة في استمطار رحمت الله تعالى ونصره وتأييده لأوليائه، ودل أيضا على وجوب العمل مع، وجوب عدم استعجال النتائج، فحيثما كان العمل مشروعا، وعلى وفق كتاب الله تعالى، وسنة رسوله محمد ﷺ، وبذل فيه من الوسع ما حقق به العبد قول ربه الرحمن سبحانه ﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

فهناك يكون العبد مظنة عدم المؤاخذه من الله تعالى ربه الرحمن سبحانه من جانب، ومن جانب آخر يحقق الله تعالى سنته الجارية في جزائه للعاملين الصابرين، لأنه تعالى قد وعد، ووعد الصديق الكريم، أنه سبحانه لا يضيع أجر من صبر فأحسن، وهو الكريم المنان سبحانه بكل منة على كل عبد من عبيده، وذلك على صدق ما أقول قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

فالذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، فإنه تعالى لا يضيع ثواب من أحسن عملا فأطاع الله، واتبع أمره ونهيه، بل يجازيه بطاعته وعمله الحسن جنات عدن تجري من تحتها الأنهار^(١).

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة الكهف: الآية ٣٠

ومنه كان وبمفهوم المخالفة أن الذين يخالفون أمره تعالى ويعصونه ويجاهرونه تعالى بما قد حرم عليهم، فإنه تعالى يغار، وأشد ما تكون غيرته سبحانه يوم أن تنتهك حرماته، ويوم ألا يحسب العصاة حسابهم، وهم يحادون الله تعالى في عملهم السيئ، فيتخذون لهم ربا دون من خلق، ويتخذون لهم مشرعا دون من له وحده حق التشريع، ويتخذون لهم حكما بغير حكمه، وكسبهم الحرام، وفي عيشهم النكد بعدا عن منهجه تعالى.

ودلك على صدق ما أقول قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥]. وقوله تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «إن الله تعالى يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه» متفق عليه.

ومنه يكون ذلك هو نفس الزاد - كما أسلفت - لعبيده الذين تصدروا للدعوة عاملين، في حقلها دائبين، وهم في مسيرهم يحتسبون ما يصيبهم في ذلكم على الله تعالى الذي وعد صابرا محتسبا أن يكون أجره عليه وحده، وما أعظم أجرا كونه كان من الله تعالى العلي الكريم سبحانه، ذلك لأنه قال ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥] [تفسير الطبري عند هذه الآية].



المبحث الثاني

دراسة سير الأولين اقتداء بهدي المهتدين

ومنه قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

قال أبو حنيفة رحمه الله: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم^(١).

وقال الجنيد رحمه الله: الحكايات جند من جند الله عز وجل يقوي بها إيمان المريدين^(٢).

وبهدي من هدى الله تعالى يكون الاقتداء. ذلك لأن هدايته تعالى أمر تطمئن له القلوب، وغاية يبتغيها أولوا الألباب والنهى. وليس بعد هداية الله تعالى لعبد لبحث في صدقها، لتكون عبرة وسبيلا للاقتداء به، والاقتداء بسننهم، حال كونه قد ترسم خطاهم في كل هدي اهتدوا به، وحال كونه قد اتخذ ما تركوه وراءه ظهريا، تماما بتمام! ولما كان أمرا منه تعالى فوجب له الانصياع، وحرمة في شأنه المخالفة. ذلك لأنه تعالى - فطرة - لا يأمر عباده إلا بما فيه هدايتهم، ولا ينهاهم عن شيء سبحانه إلا وكان في نهيه عنه سعادتهم يوم أن ينتهوا عما نهاهم عنه سبحانه.

والاقتداء طلب موافقة الغير في فعله، ويمكن أن يكون المعنى أن اصبر كما صبروا كما يمكن أن يكون معناه الاقتداء بهم في كونهم قد وحدوا ربهم، ولم يشركوا به شيئا.

وليس يبعد أن يكون هذا مرادا لله تعالى، كما لا يحال أن يكون المعنى الآخر مرادا هو الآخر. ويجوز تبعا أن يكون الثالث مقصودا ربانيا من وراء أمره تعالى. ذلك لأن

(١) الإعلان بالتوبيخ، شمس الدين السخاوي: ٣٣

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة، د: حسين بن حسين عفاني: ١٠٩/١

التوحيد والدعوة إليه باعتبارهما أصل الدين، إنما يصاحبهما جدال وحراك وخصام وعناد، وكل ذلك بحاجة إلى صبر كما لا يخفى، حتى كان منه قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر: ١-٣]. فدل على أن التواصي بالحق إنما يستتبعه ضرورة صبر لما سبق بيانه.

وإذا كان التوحيد هو غاية بعث الرسل، ومن أجله قد أنزلت الكتب، ومن شأنه خلق الله تعالى الجنة والنار، ومن سببه انقسم الناس إلى فريقين ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠]. إلا أنه ليس يمنع من ذلكم اختلاف في الشرائع مع بقاء أصل الدين واحدا.

ومنه كانت الشرائع مختلفة باختلاف الأزمان والأماكن التي كانت محلا لتنزل رسالات الله تعالى، كما الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]. وكما قال رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي^(١).

وقد احتج بعض العلماء بهذه الآية ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِرُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص.

فعن أنس بن مالك: أن أخت الربيع، أم حارثة، جرحت إنسانا، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القصاص، القصاص، فقالت أم الربيع: يا رسول الله، أيقترض من فلانة؟ والله لا يقتص منها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سبحان الله يا أم الربيع، القصاص كتاب الله، قالت: لا، والله لا يقتص

(١) صحيح البخاري: ٣٤٤٢

منها أبدا، قال: فما زالت حتى قبلوا الدية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره^(١).

وليس في كتاب الله تعالى نص على القصاص في السنن إلا في هذه الآية؛ وهي خبر عن شرع التوراة، ومع ذلك فحكم بها، وأحال عليها. وإلى هذا ذهب معظم أصحاب مالك وأصحاب الشافعي، وأنه يجب العمل بما وجد منها.

المبحث الثالث

العبرة والعظة

وهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١].

ذلك لأنه الله تعالى ربنا الرحمن ما كان ليذكر قصص الأولين من الرسل مع أقوامهم إلا لهذه الغاية، وحسبها أن تكون وحدها، ذلك لأن العبرة والعظة هما المؤثران في القلب، بحيث تدفعانه دفعا إلى الاعتبار، ومن ثم يكون تنفيذ أمره تعالى بلا موارد أو تلكؤ أو جدال.

ذلك وأنه تعالى له سننه الجارية في ذكر أخبار المرسلين مع أقوامهم، وكيف أنه تعالى برحمته قد أنجى المؤمنين، وكيف أنه سبحانه بعدله قد أهلك الكافرين، عبرة وعظة معا.

وانظر كيف كانت العبرة مخاطبا بها أولو الألباب كما في قوله تعالى (عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) والألباب هي العقول. ذلك لأن العقول السليمة يوم أن يخلى بينها وبين هواها، ويوم أن تحجب عنها آلة إعلامية التي كان من وظيفتها سحر الناس عن الحق وإسترها بهم،

(١) صحيح مسلم: ١٦٧٥

أقول: يوم أن يخلى بين الناس بعقولهم الفطرية، وبين هذه المؤثرات الخارجية الفاتنة، فإن النتيجة لسوف تكون محسومة ولاشك لصالح الخير والهدى.

ذلك لأنهما - الخير والهدى - من الفطرة التي قد فطر الله تعالى ربنا الرحمن عبيده عليها، كونه ربهم الحق، وكونه إلههم الواجبة عبادته وحده بلا شريك في ملك، كما أنه بذلك يكون إلههم وحده في ألوهيته بلا شريك في أمره ونهيته، ذلك لأنه تعالى قال وقوله الحق المبين ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

والأصل أن حديثه تعالى إيجابي. أي أنه صدق كله، وأي أنه يتفاعل مع الواقع المحيط، وليس بمعزل عنه، وبينهما من التفاعل ما يشي كونه حديثا عمليا تميزه حركته الذاتية مع الوجود كله، وتخصصه واقعيته النابعة من خصائصه تلك، بحيث أمكنته من قلوب واعية به ساقها إلى حيث يكون الهدى في أعماق التاريخ كله، على مر الزمان، وعلى مر المكان معا!

ذلك لأنه (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق، وأنى لقائل أنه مختلق وقد كان حديث صدق؟ وأنى لقائل أنه كذب وقد كان حديثا مبينا عما قد تناقلته أخبار الأمم، وجاء مطابقا لما عليه أهل القصص المتواترين؟

ومن ثم فإنه (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَقَصِّصَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات،

والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المجملية، والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات.

فلهذا كان: ﴿ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتغنون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة^(١).

المبحث الرابع

معرفة سنن الله تعالى الكونية من نصره وتمكينه للمؤمنين،

وهزيمته وخذلانه للكافرين، ولو بعد حين

ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَلَّمْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢].

وبذلكم حسم يطمئن مسلم إلى وعد ربه الرحمن سبحانه بنصره تعالى وتأيده لأوليائه، وهم رسله وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأنت خير بمجيء مؤكدات عدة أسبغت على النص الكريم صدق الوعد ويقين النصر بإذنه تعالى، من وجود حرف اللام الدال على القسم، ومن ورود حرف التحقيق (قد) وما يشي به من لزوم وقوع ما سبقت به كلمة الله تعالى من نصره للعصبة المؤمنة، يوم أن قامت بأمر ربها مؤمنة به على وجه التوحيد له ربا وإلهاً، وما يقتضيه ذلك من إيمان

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٢ / ٥١٦

بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه. وكذا؛ من مجيء النظم على الفعل الماضي (سَبَقَتْ) وهو دال بكفائه على تحقق وقوع كلمته تعالى.

وأقول: إن تحقق وقوع كلمته تعالى نصره لعباده المؤمنين ليس بحاجة إلى تأكيد! ذلك لأنه قول فصل، وذلك أيضا لأنه من الله تعالى، وقوله تعالى كله صدق، وخبره سبحانه كله يقين!

لكنه لما كان في علمه تعالى أن قوما قد يعتورهم ظن، ولو كان ضئيلا، فجاء التوكيد بأركانه الأربعة، من كونه جاء مقرونا بحرف اللام الدال على القسم، ومن ورود حرف التحقيق (قد)، ومن مجيء الفعل الماضي الدال على تحقق الوقوع، ومن كونه قبل وبعد ذلك هو قول الله تعالى الفصل المبين.

وهو أيضا من سننه تعالى في مجارة للواقع، وتلمس طبائع الناس المختلفة في تلقيها لخبر الله تعالى. وإلا ما كان لازما ورود كثير من إقسامه تعالى في القرآن الحكيم، والذكر المجيد.

وكلمته تعالى هو قوله، وأمره الذي سبق. وهو سبق قول منه تعالى لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون، فقد مضى بهذا منه تعالى القضاء والحكم في أم الكتاب، وهو أنهم لهم النصر والغلبة بالحجج والبراهين الدامغة، كما أن لهم النصر والغلبة في ميدان المعركة حين أخذوا بأسبابها، ذلك لأنه تعالى قضى وحكم، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٤٧].

وليس ثم تعارض بين ما سلف من ذكر للآية السابقة، وبين قوله تعالى ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وبسط هذا له موضع آخر.

وانظر إلى لفتات القرآن الحانية وهو يذكر المرسلين بصفات الخنو واللفظ والسمو، حين يقدم بأنهم عباده، مما يشي بتحقيق معاني النصر لهم والتمكين والغلبة بأمره، ذلكم لأنهم عباده، وذلكم لأنهم رسله أيضا!

وهو أيضا ما يجعل الإنسان المسلم مطمئنا إلى وعده تعالى الصدق المبين في نصره لعباده، يوم أن تحقق فيهم وصف العبودية لله تعالى وحده خالصة له أيضا، لأن ذلك مما أفهمه من سياق القرآن المجيد، أنها عبودية خالصة لله تعالى وحده، وهي بذلك قد تحقق معها ناموسه تعالى، وسنته الجارية، من نصره وتمكينه لمن كانت منهم العبودية له تعالى وحده، قائمة على وجهها.

وعود إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي أنه تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وهو اطمئنان آخر أن تكون كلمته تعالى هي وعدا بجنانه لعباده، وفوزا برضوانه لأوليائه في الآخرة، كما كانت معيته تعالى معهم نصرا وتمكيناً في الدنيا، وهو فلاح مركب إذن يشيع في الكون ثقة في وعده تعالى، مما يشحذ معه همم العاملين في الحقل الإسلامي طمعا في نصره تعالى، ورغبة في تأييده في الدارين معا.

وإفادة النظم الكريم أن النصر لعباده من المرسلين والتابعين، إنما يكون على أعدائه المناوئين للدعوة وللدعاة بها على مر التاريخ الضارب في القدم.

والملاحظ الأساس بلاغة أن النظم لم يبين على من يكون النصر والتمكين! وذلك عليه أن نصره دائما يكون لعباده على أعدائه، وتلك مسلمة كونية، فوق أنها مسلمة شرعية، إذ لما كان الناس في شأنهم مع الدعوة فريقين، فريقا هدى، وفريقا حق عليهم الضلالة، ولما كان المهتدون هم المنصورين، فدل على أن الضالين هم المهزومون فتأمل!

ومنه قوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

إذ بين سبحانه أن الغلبة له تعالى، ولرسله الكرام، وبالتبع تكون لعباده المخلصين ممن اصطفاهم ربهم عبادا على الحق قائمين لا يضرهم مخالفتهم إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ من حديث جابر بن عبد الله: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة^(١).

وعلى نفس السياق السابق، وعلى طريقة القرآن المجيد يبين تعالى أن الغلبة له ولرسله، وجاءت ههنا ظاهرة، لكن المغلوب ظل مستترا لدلالة السياق عليه، وهي من اختصارات القرآن المجيد التي عودناها عليها دائما.

وجاء عن الطبري رحمه الله تعالى ما أكد هذا المنحى، وصدق به، حيث قال ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ يقول: قضى الله وخط في أم الكتاب، لأغلبن أنا ورسلي من حادني وشاقني^(٢).

فجاءت غلبته تعالى له سبحانه، ولرسله الكرام، ودل السياق على أن المغلوب هم المحادون لله تعالى، المشاقون لأمره سبحانه.

وجمعا بين دلالة الآية الأولى، وهي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾^(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٢] وبين دلالة الآية الثانية، وهي قوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢١] حيث ذكر في متن كل من الآيتين ما لم يذكر في الأخرى لتكون الآيتان معا (كلا واحدا لا يتجزأ)!

حيث قد نصت الآية الأولى على سبب نصره تعالى لأوليائه، وهو كونهم أولياؤه، وقد قاموا بواجب نصره دينه دعوة إليه وصبرا عليه. لكنها لم تنص على موجب النصر، وهو

(١) صحيح مسلم: ١٩٢٣

(٢) تفسير الطبري، تفسير سورة المجادلة: الآية ٢١

القوة والعزة، وهو الذي جاء به نص الآية الثانية، كما قال تعالى فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾ فتأمل!

والآية الثانية قد نصت على موجب النصر والغلبة، وهو القوة والعزة، وإن اشتركت مع الآية الأولى في بيان السبب وهو أن كون المنصورين هم أولياؤه المتقون.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾ دال على أنه تعالى جل ثناؤه ذو قوة وقدرة على كل من حاده، ورسوله أن يهلكه، وأنه سبحانه ذو عزة فلا يقدر أحد أن ينتصر منه إذا هو أهلك وليه، أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء.

وأنت ترى مدى التلازم القرآني دائما بين ذكر القوة وذكر العزة معا دائما في الكتاب الحكيم، ذلك أنه يمكن أن يكون قويا فيغلب، لكنه لا يمنع أن يغلب مرة أو مرتين أو غيرهما! فجاء نظم النص بذكر العزة للدلالة على كونه تعالى غالبا أبدا وغير مغلوب أبدا، وهي من تفردات القرآن الحكيم، والذكر المبين، فتأمل!

المبحث الخامس

تحقق نصر الله للفئة المؤمنة

(غزوة الأحزاب أنموذج)

وتلك مسألة هامة في التصور الإسلامي. ذلك لأنه تعالى ناصر أوليائه، وإن تطاول بهم الزمان. ذلك وأنه لربما بدا في بعض الدهور أن الفئة المؤمنة مغلوبة على أمرها لصالح صناديد الكفر. ذلك وأن الضلال تأخذه عنفوان القوة، ولتغرنه آفة الكبر؛ ليسير عتوا في أرض الله تعالى، مزهوا بقوته، منتفخا بجبروته. وذلكم وضع يمكن أن يكون سببا في فتنة ثلة من المؤمنين. لكن الأخذ بزمام الأمور ليس يكون في حسابان الذين أوتوا العلم منهم

على ذلكم نحو أبدا. ذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

وكان في حس المؤمنين على مدار التاريخ ماجرت عليه سنة الله تعالى من كر وفر، وهو كما أسلفت سابقا من الأخذ بالسبب، وكيفا لا يكون في عقد أحد أن نصره تعالى لسوف يقدم إهداء لهؤلاء على طبق من ذهب، دونما حركة دائبة هي من أخص خصائص المؤمنين الواعين الرشيدين.

ذلك وأنه من لزوم انتصار المؤمنين أن يختبر صفهم ليتبين المخلص من المنافق. وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال. وكأني بالنص القرآني الكريم قد حذف هذا السطر كله ليحل محله قولا فصلا (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)! ليبين حالهم تماما يوم أن جوبهوا بمعسكر الكفر كله أمامهم ليستأصل شأفتهم عن آخرهم، أو هكذا زعم، وهم أولاء أيضا في الطرف المقابل كما حكى الله تعالى عنهم ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ [الأحزاب: ١٠].

وهذا يحصل وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم! يوم الأحزاب! وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المسلمين، وهم كانوا على أكثر تقدير نحو ثلاثة آلاف، أو كما قيل: سبعمائة، أو كما جاء في حديث حذيفة الذي أورده الشوكاني في فتح القدير كما سوف يرد إن شاء الله تعالى أنهم كانوا ثلاث مائة أو نحوها، ويكون هذا على أقل تقدير. وأنت ترى كم يمثل هذا العدد أو ذاك في معركة غير متكافئة تماما بين معسكر الكفر كله، وبين هذه الفئة المؤمنة، وهي مازالت في طور تكوينها، إن حسب على أساس الزمن في عداد الجيوش، أو حسب على أساس العتاد، وهم توا قد جاؤوا من مكة، ولما لم يتجهزوا بعد لمقابلة جيوش لا جيش واحد فتأمل! حتى كان من شأنهم

وقد أسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجال والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري [اليهودي]، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ١١].

ومكثوا محاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريبا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله علي، رضي الله عنه، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار، ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٩]. وهذه الرياح كما قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده حديث عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)^(١).

وهذه صورة حية تنبض بالحركة والإيجابية كما نقلها شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى حيث قال أيضا: "حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني عبيد

(١) صحيح البخاري: (١٠٣٥)

الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف. قال: فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لي، وقال: من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا. قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحدا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه. قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفدها إلى الأرض^(١).

وهو نص كما قلت يبين عن حال هذا الرهط الكريم في مدى تحملهم للحق وتبعاته، وإلى أي مدى يمكن أن يتخيله عقل، وهم أولاء قد باعوا أنفسهم لخالقها، وكأنما هي وديعته تعالى إليهم يردونها إليه تعالى، يوم أن يفرض موقف لذلك طوعية واختيارا وحسبة لله تعالى ربهم الرحمن سبحانه!

لكن الله تعالى رحمة منه تعالى وفضلا لم يكن ليذر هؤلاء وحدهم في أرض المعركة يجابهون عدوهم وحدهم، وإنما كان عونه تعالى لهم في كل مرحلة من مراحل النزال، مما يضيفي على جو المعركة سكينه واطمئنانا لنصره تعالى الذي وعد ولحسمه سبحانه كما ورد ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]

ودلك على صدق ما أقول قوله تعالى: (وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى أنه: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد

(١) تفسير الطبري ج ١٠/ ٢٦٣

رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بدا - إذ دعاني باسمي - أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تدعهم علي، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمي في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا تدعهم علي، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيتهم فأخبرته بخبر القوم وفرغت، قررت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان^(١).

وقد جاء حديث حذيفة كما أورده الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير مبينا أمر الريح، وأمر المدد بجند الله تعالى الملائكة الكرام عليهم السلام معا. فعن عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحا، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون: ﴿يُوتَنَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فينسلون، ونحن ثلاث مئة أو نحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا، حتى مر علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني

(١) صحيح مسلم: ١٧٨٨

وأنا جاث على ركبتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة. قال: حذيفة؟ فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله؛ كراهية أن أقوم. قال: قم. فقممت، فقال: إنه كان في القوم خبر، فأتني بخبر القوم. قال: وأنا من أشد القوم فزعا وأشدهم قرا، فخرجت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته. قال: فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئا. فلما وليت قال: يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني. فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم، يقول بيده على النار ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل. ثم دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبرا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم. ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسا معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم؛ أني تركتهم يترحلون، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩] الآية^(١).

وعود على بدء أقول: إن إرسال هذه الريح من عنده تعالى كعون منه تعالى، وكذا إمداده تعالى لهذه الفئة المؤمنة بالملائكة الكرام عليهم السلام جندا من عند الله تعالى، دال في حقيقته على صدق ما أقول، من حيث إن سنته تعالى لجارية في تمحيص الصف المسلم، وتجهيزه بعقيدة الإيمان والبدل، ومن ثم يكون مدده تعالى في مراحل لاحقة لهذا التأسيس، ولما أن كانت هذه الفئة المؤمنة في أرض المعركة باذلة مهجها رخيصة في سبيل

(١) الشوكاني فتح القدير: الشوكاني: ٣٧٦/٤

الله تعالى ربها الرحمن , ويحسن الربط بين هذا وذاك لإيضاح المسألة والله الهادي والموفق وهو سبحانه المستعان وبه الثقة وعليه التكلان.

وهذه رواية الحاكم والبيهقي كما رواهما الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير سورة الأحزاب، وكذا في البداية والنهاية، بما فيهما من توضيح آخر من حذيفة رضي الله تعالى عنه نفسه لتبين صدق هؤلاء الجليل مع ربهم الرحمن سبحانه ومدى طاعتهم لقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان مدى حب القائد لجنده ودعائه الله تعالى لهم وهو بيان آخر لمعلم النبوة عنه صلى الله عليه وسلم.

قد أخرج الحاكم والبيهقي في "الدلائل"، من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة مشاهدتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال جلساؤه: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك. لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون: ﴿إِنَّ بَيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا حتى أتى علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي، ما يجاوز ركبتي. قال: فأتاني صلى الله عليه وسلم وأنا جاث على ركبتي فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة. قال: "حذيفة". فتقاصرت بالأرض فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم. قال: قم، فقممت، فقال: إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم " - قال: وأنا من أشد الناس فزعا، وأشدّهم قرا - قال: فخرجت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم، احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته. قال: فوالله ما

خلق الله فزعا ولا قرا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئا. قال: فلما وليت قال: يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني. قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهما من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتيني، فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم، وفرستهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتصفت في الطريق أو نحو من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعي القر وجعلت أقرقف، فأومأ إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وهو يصلي، فدنوت منه، فأسبل علي شملته. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أنني تركتهم يترحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾ (١).

وقوله: (إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ) أي: الأحزاب (وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) فكما جاء عن حذيفة أنهم بنو قريظة، (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَّغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) أي: من شدة الخوف والفرع، (وَقَظُنُّوا بِاللَّهِ الظَّنُونَ ۝). وظن بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٣١

قال معتب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف - : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط! ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون^(١).

وإذا كانت هذه سنته تعالى في الرعيل الأول من الذين جاهدوا في الله تعالى حق جهاده، ومن كان فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجودها في أجيال أخرى لاحقة على مر الزمان أقوم قيلا.

لكنه تعالى لا بد وأن يتلي الفئة المؤمنة تمحيصا لها وصقلا، كما قال تعالى ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]. وزلزلوا زلزالا شديدا أي حركوا تحريكا.

قال ابن سلام: أي حركوا بالخوف تحريكا شديدا. وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق. وقيل: إنه اضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه^(٢).

وعود إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

فقد أورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) سؤالا فقال: قد علم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصر في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين.

(١) تفسير ابن كثير: ج ٣ / ٤٨١

(٢) تفسير القرطبي: ج ١٤ / ١٤٧

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرّة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم^(١).

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت، وأنا أكره مساءته^(١).

ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا.

ولهذا أيضا لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢

فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله - سبحانه - نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكماها، ودخل الناس في دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]. أي: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل^(١).

ويوم أن يعلم الله تعالى من جنده صدقهم، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم ههنا - وههنا فقط - قد علم الله تعالى أنهم أولياؤه، ومنه تحقق ذلك الأمن لهم من الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى قد وصف نفرا هم أولاء تراهم ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وذلك لأنه تعالى لما ذكر أن المنافقين، عاهدوا الله، لا يولون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ) وهو إيفاءهم

(١) تفسير ابن كثير: ج ٧/ ١٣٧

بما قد عاهدوا الله تعالى عليه كله تاما غير منقوص، وهو من بلاغة النظم الكريم، من حيث إنك تراهم وكأنهم قد أوفوا بعهدهم كله مع ربهم الحق الرحمن سبحانه.

وهذه شامة لهم تكاد ترفع بها الرؤوس، وتطمئن لها القلوب أن نفرا مازالوا في التاريخ يوفون بعهدهم كله غير منقوص تاما كاملا! فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبلوا أنفسهم في طاعته.

(فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ)، وهو إمعان آخر يدلي بدلو في مدى البيان لبذل كل ما في الوسع مما يمكنهم بذله في سبيل الله تعالى ربهم الرحمن سبحانه، من حيث إن هذه إرادته منهم، ومن حيث إن هذا هو مطلوبه سبحانه منهم، فقاموا به كله غير منقوص من بذل مهجهم في سبيله تعالى، فكان جزاؤهم إذن ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۝١٩﴾ [هود: ١٠٩].

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ) وهو تقسيم منح النظم جمالا - وعلى طريقة الكتاب المبين - لما يديه من كون أن هذا الفئة المؤمنة كلها على قلب رجل واحد من العطاء والبذل في سبيل الله تعالى ربها الرحمن، فهذا قد قضى نجه وانتهى، وذاك ينتظر دوره المرسوم في بذل كل غال ونفيس في سبيل مولاه الحق الرحمن سبحانه، وكأنك تلمس هذه اللمسات القرآنية، وهي تحالج شغاف قلب مؤمن بالله، كما أنها لتأخذ بلب كل مريد للحق مبتغيا إليه سبيلا. وهؤلاء هم وكأنهم في طابور ينتظر كل دوره باذلا راضيا مرضيا ساعيا في نشاط شارعا في حركة دائبة في قضاء ما عليه، وكأنه دين يسارع لقضائه عن رضا نفس واطمئنان لموعود الله تعالى سبحانه ووفاء نجه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك، مجد ولطالما أن البذل بتيكم مهج هو لله!

(وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا) كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا وكأنهم على سبق ما كانوا عليه من كونهم (صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) فهم ماضون على عهدهم، لا يلوون، ولا يتغيرون،

وقد أكد حقيقتهم تلك مجيء النظم على صيغة المفعول المطلق المؤكد للفعل، دلالة على تأكيده، ودلالة أخرى على صدق تلبسهم به.

كما وأنه يكون حاضرا في الذهن أن الله تعالى أما وقد تكفل بنصره لعباده المؤمنين، وكما قلت إن ذلكم لقائم يوم أن علم الله تعالى صدق النوايا، وإخلاصا له تعالى وحده دونما سواه، مصحوبا بعمل صالح يرضاه، كونه كان قائما على شرعه، وما دلت عليه نصوص الكتاب الحكيم والذكر المبين، وما جاءت به سنة رسول صلى الله عليه وسلم الله كما قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

هذا . ويكون حاضرا في الذهن أيضا، أن الله تعالى عندما يؤاخذ قوما، أو عندما ينتقم من فئة، حالا عليها غضبه، وقائما بها سخطه، فإنما كان ذلك لسبقهم كفرهم، ومحادثهم لله تعالى الخالق البارئ المصور، وتعديا على حكمه وشرعه، وتبديلا لما سنه في كونه، مما يكون معه صلاح العباد في العاجل والآجل، ذلك لأنه تعالى قال ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآئُهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴾ [سبا: ١٧].

ومنه (فهذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبا من إرسالنا عليهم سيل العرم، حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم، جزاء منا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا)^(١).

وعليه فيكون قائما أيضا أن الله تعالى حال إنزاله غضبه، أو إحلاله نقمته، فإنما يكون ذلك لخير العبيد، فلعلهم أن يؤبوا، ولعلهم أن يرجعوا، وإلا فإن الله تعالى ربنا الرحمن، وكما روى أبو هريرة: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه^(٢).

(١) تفسير الطبري: ج ١٠/ ٣٦٥

(٢) صحيح مسلم: ٢٩٨٥

فإنه تعالى كذلك أغنى ما يكون من أن يحل بأحد عقوبة تشفيا، كما حال العبيد مع أغيارهم، أو فقرا إلى ذلكم، ليتم به غناه سبحانه، ذلك لأنه تعالى قال أيضا تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٥٥﴾ [فاطر: ١٥]

هذا . وإن سنته تعالى الجارية عند حلول النقم، وإن طريقته تعالى يوم أن يخذل قوما، أو أن ينزل بهم بطشه الذي لا يرد عن القوم الكافرين، فإنما كان ذلك كله لتوافر أسبابه، من كفر قد كان منهم بربهم الرحمن سبحانه، ومن شرك معه في ألوهيته، وهو تعالى أغنى عنه، وعن فعلوه.

ومنه لا يكون لكفر مزية على كفر آخر، كما أنه لا مزية لكافر على كافر آخر أيضا، من حيث كان ذاك كفرا، ومن حيث كان ذلك كافرا، وانظر إلى قوله تعالى ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُؤْتِيَكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣﴾ [القمر: ٤٣]. فيحل العذاب، وينزل النكال على كل صنف قد كفر، وعلى كل أمة قد أشركت.

ومجيء صيغة بهذا الاستفهام الإنكاري التعجبي (أَكْفَارُكُمْ) موح أيما إحياء في نفي المحسوية عن نظام الله تعالى.

ذلكم النظام القائم على العدل المطلق، ومنه لا يتسنى لمدع ادعاء أن في إمكانه الخروج عن شرعه، أو يتوهم إمكان الاستثناء من أمره ونهيه، ولذا خاطب الله تعالى ذكره كفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ٢٠﴾ إذ إنه ليس كفاركم معشر قريش خيرا من أولئك الذين حلت بهم نقمته تعالى من قوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابه تعالى، ونقمته على كفرهم به سبحانه، وتكذيبهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم.

وهذا السبيل المتخذ مع كفار قريش، كما هو السبيل الذي استحقته كل أمة كفرت بربها أبداً، وهو ما يسبغ على هذا المنهج السديد صبغة العدل والمساواة، وهي سنته تعالى في أخذ كل خارج، وهي طريقته سبحانه في النكال بكل شارد.

وهو كقوله تعالى ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ [الطلاق: ٨].

وانظر إلى قوله تعالى (وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ) ليدلك على عموم صنيعه تعالى بسائر من كفر، فليس أحد بخارج عن ذلكم الناموس، كما أنه ليس لمدع أن يستدل بغيره، ولا عليك بمن كان به خطأ من حكم.

فإنما هم في كفرهم بالله تعالى وتكذيبهم رسوله، كمثّل هذه الأمم التي وصف الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه أمرهم، وعقوبته تعالى النازلة بهم جزاء كفرهم به سبحانه، وهذا هو نفسه كالذي نزل بغيرهم، إن لم يتوبوا، وإن لم ينيبوا.

هذا. . وإنه ليعالج مما قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا حل بأعدائه، وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا شافيا.

وبيان ذلك كله إنما كان لإبراز كيف يكون أمر دراسة القصص القرآني والأمر الرباني، ليكون الجميع مركزا فيهم ذلكم خوف، ومرسوم أمامهم ذلكم وجل، ألا يكونوا مثلهم، والله المستعان.

الفصل السادس

القصص القرآني أحسن القصص

وذكر قصص الكتاب مليح ملاحظته، وروايته جميل جماله، وأنس في مطالعته وتناغم في حكايته.

وسأتعرض لذلك في ثلاثة مباحث، يخصص الأول منها في ذكر التعريف والأهمية، ويكرس الثاني منها في خصائصه ومميزاته، ويتناول الثالث منها بيان سبب كون قصص القرآن المجيد أحسن القصص.

المبحث الأول

التعريف والأهمية

وسيكون بحثه بإذنه تعالى من خلال ثلاثة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول

تعريف القصص القرآني وأهميته

أولا تعريف القصص:

القصص والقص لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضا.

أهمية القصص القرآني:

والقصص القرآني أحسن القصص. كما قال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]

ودلك على أنه أحسن القصص تسميته تعالى لقصص القرآن المجيد كونه (أَحْسَنَ الْقَصَصِ)، فقله تعالى قول فصل، وليس يكون لأحد بعده من قول.

وكأن قوله تعالى (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) كاف بذاته أن يكون هو الموجب لكون قصصه هو أحسن القصص. ذلك لأنه وحي، وذلك لأنه قرآن كريم. وكلاهما يتناوبان التأكيد على هذه الحقيقة السرمدية، كون أن القرآن الحكيم حاكم! وليس بعد حكمه من حكم. وكأنه لقول للحاكمين بغيره: لقد أبعدتم النجعة فلا حق إليه اهتديتم ولا عدل به حكمتم!

وهو نداء لكل من أراد حكماً ألا يحكم إلا بقسط، وهو أمر لكل من أراد عدلاً ألا عدل – العدل المطلق – إلا في الوحيين، وهما الكتاب والسنة، ففيهما الخير كله، وبهما العدل كله، والقسط كله، ذلك وأنه قد أنبأك الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، وأن فيهما الهدى كله، وذلكم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، و لكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله، و سنة نبيه^(١)).

ذلك ولأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. إلا ويضمن كتابه موجبات ذلكم عدل، وإلا لينزل فيه حكمه لسائر أقضية الناس وأمورهم، على اختلاف الزمان وعلى اختلاف المكان معا. وذلك تأسيساً على قواعد كلية أفنى أهل

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٤٠

الحق فيها أعمارهم ليقولوا للناس أجمعين كما قال تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمَّا لَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ومنه قوله تعالى أيضا ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرَبِّيَ مُّشْرِكٌ ﴾ [الأنعام: ١٩].

فأي شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ومن ثم يجيب الله تعالى نفسه أن أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب.

وذلكم هو المسوغ لكون حكمه تعالى هو الحكم القسط، وذلكم هو الموجب ألا يكون هناك حكم في كونه تعالى خارجا عما حكم، وبه ألزم، والله المستعان.

ثم إنه وعلى اعتبار أن الله تعالى هو أكبر الأشياء شهادة، وكونه تعالى شهيدا بين رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبين قومه، ومن حيث كونه تعالى عالما بالحق من المبتطل، والرشيد في فعله وقوله من السفية، ومنه فقد تمت نعمته سبحانه على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن أرضاه به حكما عدلا.

وتلك كلية شرعية أنبأك عنها الكتاب المبين فتعلق بها تعلق الغريق تهفو نفسه إلى النجاة.

وعود على بدء فإن الله تعالى سبحانه يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (نحن نقص عليك) يا محمد، وهو تنويه بذكره، وتشوف بقيمته، وإبراز لأهميته - ﷺ - كما قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]

وليست توجد أمة بغير قائد، وهو فرض ليس يوجد وقوعه في كونه تعالى، مذ أن خلق بريته، ومذ أن برأ نسمة - سبحانه - وعلى فرضه فليس يكون مصيرها إلا إلى بوار،

فما بالك بقائد هو من اختيار ربه، واجتباء مولاه، وحيث كان من وصفه ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكون قصص القرآن المجيد (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ذلك لأنه بوحيه تعالى إليه صلى الله عليه وسلم هذا القرآن، فيخبره فيه ربنا الرحمن سبحانه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة، والكتب التي أنزلها تعالى في العصور الخالية (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ) أي وإن كنت يا محمد من قبل أن نوحيه إليك لمن الغافلين عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئا منه، ذلك أنه كانت من حكمته تعالى أن يرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا أميا، ليس يقرأ، وليس يكتب! كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

والقصص القرآني عموما بوصفه تاريخا من عند الله تعالى غزيرة عبره، وكثيفة فوائده، وذلك لما سبق من كونه (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) وليس يكون كذلك إلا حال كونه كان بها مليئا، وإلا حال كونها كانت بين نظمه الكريم وآيه الذكر الحكيم، لتستمد ذلكم الاعتبار، ولتتنسم منها - نحن - ذلكم الندى وذلكم الزكاء.

وكان من فوائده وعبره ما قص الله سبحانه في كتابه كثيرا من قصص الأنبياء وغيرهم، كما قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩] وكما قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْفُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠].

ولئن كان قصصه أحسن القصص، فإنه كذلك أنفع القصص، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

المطلب الثاني

أنواع القصص القرآني

أولاً: فدرب هو خبر عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

ثانياً: ودرب هو نبأ عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

ثالثاً: ودرب هو سوق لحوادث وأقوام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

ومن القصص القرآني ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

المطلب الثالث

تكرار القصص القرآني

وحكمة تكرار لحدث أو تاريخ أو قصص أنه بيان أهمية ذلكم حدث وانه تنويه بذلكم تاريخ وانه اهتمام بتيكم قصة. لأن تكرارها إن دل فإنه يدل على العناية بها، وتوكيدها لتثبيتها في قلوب الناس، مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبا فيما أتى من القصص في السور المكية، والعكس فيما أتى في السور المدنية، وبيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقضيه الحال، وظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.

بيد أنه إذا اتفقنا على أن ثمة ذكرا لقصص قرآني على مختلف سورته الكريمة وآياته البينات، إلا أننا يجب أن نتفق على أنه تكرار بمعنى مختلف، وبذكر آخر مباين عن أخيه الذي ورد في سورة ما، بحيث يعطي إطلالة جديدة على السمع، وبحيث يشعر بذلك من تفكر، وبحيث يدرك ذلك من تدبر.

فكان بهذه اللطيفة من الذكر الذي أسميناه تكرارا تجاوزا، ولكنه ليس منه إلا رسمه، ولكنه ليس منه في طريقة تناوله وحكايته وخبره وعرضه، بحيث يحسبه متأمل أنه عرض لمرته الأولى على المسامع، حتى وكأنه لتنهمر من لطفه المدامع، وحتى وكأنه من نسيمة تهلّل المطالع!

المبحث الثاني

خصائص القصص القرآني المجيد

وأجل سبب كون قصص الذكر الحكيم والقرآن المجيد أحسن القصص في ثلاثة مطالب فيما يلي:

المطلب الأول

إنها نبأ حق وخبر صدق

ومنه قوله تعالى ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

إذ إن النص يقف وقفته المعهودة في بيان أن ما يأتي خبراً عن الله تعالى، إنما وجب أخذه على ذلكم محمل، من كونه صدقاً لا ريب فيه، ومن كونه حقاً ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومنه فليس لقائل أن يقف على غير ما وقف عليه الكتاب المجيد، إذ لو كانت هنالك فائدة في غير ما ذكر، ما أخفاها الله تعالى ربنا الرحمن عنا، بل أنزلها رحمة من لدنه ولطفاً، وذلكم من مقتضى لطفه سبحانه، وهو من موجبات رحمته، وهو أيضاً من سائغ ما ينم عنه قوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإنما كانت آفة الأغيار أنهم حاولوا إخراج النص القرآني عن إلفه بتحميله مالا يحتمل، أو بغض طرف عما يحتمل، وهما طرفا نقيض كان من المؤمل في عباد الله تعالى المخلصين أن يعوه، وكان وجوباً عليهم أن يفقهوه، فقه علم وعمل في آن.

ومنه قد أراحوا واستراحوا، ونالوا رضا الرحمن، وفازوا بعونه وتوفيقه وتسديده، لكن قوما آخرين لما أخذوا كتاب الله تعالى ربنا الرحمن مادة للبحث فيما وراء مبتغى النص ذاته، فكانت النتيجة المرة أن حادوا، وكانت الثمرة الحنظل أن مالوا- وبأنفسهم - ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٥ ﴾ [التوبة: ١١٥].

ومنه قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ٧ ﴾ [آل عمران: ٧].

وإنما كانت دائرة البحث الإنساني السائغة - إن جاز القول - فيما يمكن بحثه من كيفية إعمال النص ودراسة فقهه على أصول العلم المتبعة عند أهله ليوافق الله تعالى من شاء من عبادته الذين علم فيهم خيراً للعمل بما أنزل ولطاعة ما أخبر وللانقياد لما أنبى، والله الهادي.

أما حين يؤخذ كتاب الله تعالى ربنا الرحمن مادة عبث، وطريق غواية، وسبيل كبر ما هم ببالغيه، فعندها لا طاقة لأحد إذن بتحمل وبال أمره، وحينها لا قبل لأحد بتبعة إثمه، لما قال الله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًَّ آيَةٍ لَا يَأْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَائِهَا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَائِهَا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٤٦ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ومنه كان قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. بيانا لحال جماعة من الناس ووصفهم حال تنزل أمر الله تعالى عليهم (أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) وتلك مدحة، وانظر إلى حال أغيار تنزل عليهم أمر الله تعالى ﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦]. وهذه سواة. فتأمل!

ومن لوثة أغيار أنهم يكلفون أنفسهم فوق ما يطيقون، ويريدون أن يطوعوا النص الكريم إلى غير حيث يريده منهم، ومن هنا وقعت الطامة العظمي، بصرفهم أنفسهم عن هداه، وتلمس النجاة فيما عداه!

ولكن الخير والهدى في شذاه. ولكن الحق والرشد في معناه، ولكن الخلاص فيما استكناه من كريم هداه، ومن تأمل مبناه، فتأمل!

ومنه كان لزوم النص - في حدود النص - وهذا مقتضى التصديق بالنص!

أما غيره فهو تيه من فوقه تيه، ليأخذ المسكين نفسه بنفسه إلى ظلمات، كان قد أغناه عنها ربه الرحمن، رحمة منه تعالى وفضلا.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]. ليدلك على عملك حين تنزل القرآن الحكيم، وأن يروح بك الذهن والعقل والخيال والتصور إلى الاستغراق في النص علما به وعملا في آن، بدل أن ينصرف ذهن إلى حيث لم يرد منه النظم، وليقف به على حدوده في أن يصدق، وفي أن يقاد طواعية واختيارا إلى حيث قد أراد منه النص وحسبه.

ذلك أن قوما بدل أن يقفوا عند النص الحكيم من النظر إلى فتية آمنوا بربهم، ولما لم يكلفوا أنفسهم كثيرا في شرح ذلكم إيمان، أنبأنا عنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝﴾ [الكهف: ١٦]. في بيان عام يبين عن ماهية ذلكم الإيمان الذي قاد أهله وهم (فَتِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ) صغار ربما كانوا في عمر الأحداث ولا افتتات إلى أن يعرفوا أنه من مقتضى إيمانهم أن يزايلاوا الشرك وأهله معاً، وهذا هو مقتضى الإيمان بالله تعالى ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

أقول كان قمن أن يقام بحق النص وتنزيله إلى حيث قد أراد الله تعالى له تنزيلاً، لأن ذلكم كما أسلفت يدخل في أخص خصائص العبودية الحققة لله تعالى، ذلك لأنه أعمل قوله صلى الله عليه وسلم كما جاء عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى ناس من خثعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم فوداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الدية ثم قال: أنا بريء من كل مسلم أقام مع المشركين لا تراءى ناراها^(١).

فخبره تعالى إذن خبر صدق ونبأه سبحانه نبأ يقين في (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ) فهؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف الذين سأل المشركون من مشركي قومك، عن نبئهم كانوا فتية آمنوا بربهم على نحو سبق ذكر طرف منه، ولذا؛ فكان جزاؤهم (وَرَدَّاهُمْ هُدًى). وتلك مكافأة الله تعالى إلى كل سالك فزادهم سبحانه إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل.

(١) رواه الطبراني، مجمع الزوائد، كتاب الجهاد، باب النهي عن مساكنة الكفار، ورجاله ثقات: ٩٢٩٠

أقول: هذا ما كان ينبغي على كل متعرض لكتاب الله تعالى أن يأخذه به، مصدقا نبأه، موقنا خبره، مطيعا أمره، منتهيا عما عنه قد نهى. والله الهادي إلى كل عمل نافع، وهو سبحانه الموفق إلى كل عمل صالح، وبه الثقة وحده، وعليه التكلان وحده.

وقد جاءت آيات عديدة في كتاب الله تعالى ربنا الرحمن لتؤكد على هذه الحقيقة السرمديّة من كون خبره نبأ صدق، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن هذا الذي أنبأتك به، يا محمد، من أمر عيسى فقصصته عليك من أنبائه، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم وروح مني، هو القصص والنبأ الحق، فاعلم ذلك. واعلم أنه ليس للخلق معبود يستوجب عليهم العبادة بملكه إياهم إلا معبودك الذي تعبده، وهو الله العزيز الحكيم^(١).

وإن كان من قول بعد قول ذلكم الإمام الراسخ - والعذر منه رحمه الله تعالى - أن كل قصص في القرآن المجيد على اختلاف طريقة وروده في الكتاب المبين إنما جاء خادما لقضية العبودية الكبرى لله تعالى والتي ما خلق الوجود كله إلا لكي يعبد الله تعالى وحده بلا شريك وليس يدرى إلى أي مدى سوف تذهب البشرية من خلاله إلى التعدي على ذلكم الحق الأصيل لله تعالى وحده، بعد أن ساق الله تعالى ربنا الرحمن من قصص الأولين، ما منه ترتعد الفرائص لما حل بالشاردين، وما منه تخر الجبابر سجدا داخرين لله تعالى وحده خوفا وطمعا.

ذلك لأنها تحكي قصة خلقه تعالى لعبده ونبيه عيسى عليه السلام في أنصع صورة يكون عليها بيان أنه عبد أنعم الله تعالى وجعله هدى لبني إسرائيل وأنه عبد قد تعبده الله تعالى ومذ أن كان في المهدي صبيا وما أتى به من خوارق العادات من إحياء للمرضى وغيره مما

(١) تفسير الطبري: ج ٣ / ٢٩٥

قصه الله تعالى في كتابه إنما كان من طبيعة ما أكرم به النبيون من ربهم الرحمن سبحانه لمواجهته أقوامهم من جنس ما قد برعوا فيه مما قد تعداه بمراحل تحر له سبحانه الجبابر سجدا لما قد عهدوه من جنس ما قد كان عندهم وما فاقه بمراحل هم يعجزون عن تفسيرها والله الهادي.

ودلك على صدق ما أقوله قوله تعالى الحق الصدق المبين ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم قوله (إن عيسى عبد الله وكلمته) فقالوا: أرنا عبدا خلق من غير أب ؛ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم - : (آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فأدم عليه السلام ليس له أب ولا أم). فذلك قوله تعالى: ولا يأتونك بمثل أي في عيسى إلا جئناك بالحق في آدم وأحسن تفسيراً.

(ثم ساء لهم وساء لوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى ليسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى».

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فأبوا أن يقرؤا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعة وله يومئذ عدة نسوة^(١).

(١) تفسير ابن كثير، تفسير سورة آل عمران: الآية ٦١

وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك. فقال: (كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب). فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل الله تعالى: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب إلى قوله: فنجعل لعنة الله على الكاذبين. فدعاهم النبي - ﷺ - فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: (الإسلام أو الجزية أو الحرب) فأقروا بالجزية على ما يأتي. وتم الكلام عند قوله (آدم).

وكان يمكن للقرآن المبين أن يكتفي بالقول (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ) دونما ذكر قوله تعالى (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)، لكن القرآن الحكيم دائماً يأتي بالنصوص جامعة لسائر المعاني اللطيفة، بحيث تقطع كل قول يمكن أن يجابهها بنقيضة كان قد أتمها النص ابتداءً، وكونها أيضاً تأتي مانعة أن يدخل فيها ما ليس يمكن أن يكون منها البتة، أو أنه يخرج منها ما لا بد لها منه طبيعة. وتلك من مغازات القرآن الحكيم وتفرداته المعهودة.

ومنه جاء النص هكذا حاكماً ضابطاً ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. ليدل على قدرته تعالى النافذة لا كتفصيل لخلق هذا أو ذاك، وإنما لبيان القدرة المطلقة النافذة على الخلق كيفما كان أمره، وأينما كان قدره، وحيثما كانت إرادته تعالى!

فخلق آدم والقدرة عليه هو نفسه خلق عيسى والقدرة عليه! بقطع النظر عن كيفية خلق آدم عليه السلام من تراب، أو كطريقة خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وإنما هي القدرة المطلقة من كل قيد، وإنما هي الإرادة النافذة على كل حد. فتأمل!

ولذا كان من المأمول أن تنهض نفوس قد تنازعت الله تعالى في قدرته، وظنها ذاك أنها في معزل عن الهلاك أن تلتزم حدودها، فلا تهلك ذوات أنفسها فيما لا طاقة لها بتخيله،

175

ليدلك هذا على أن صنف ما يؤتى الناس من ربهم الحق سبحانه يظل عنده علمه،
ويظل لديه سبحانه خزائن الحق فيه بلا ريب ولا شك في قليل أو كثير.

ولتظل قدرات الناس جميعهم قاصرة، وما أدراك ما قاصرة!

وليدلك على قدرته تعالى النافذة حتى كان من أمره أنه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وليدلك على قدرته سبحانه الباهرة، ما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما
من حديث عبد الله -أي ابن مسعود- قال (جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين
على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع،
فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول
الخبر ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] (١).

ومنه كانت عزته سبحانه لأنه تعالى (العزیز) في انتقامه ممن عصاه، وخالف أمره، وادعى
معه إلها غيره، أو عبد ربا سواه.

ومنه كانت حكمته تعالى لأنه سبحانه (الحكيم) في تدبيره، لا يدخل ما دبره وهن، ولا
يلحقه خلل، والحمد لله رب العالمين.

(١) صحيح البخاري: ٤٨١١

المطلب الثاني

قيامها على العلم اليقين

وقيام قصص الذكر الحكيم على علم اليقين. لينفي عنها ظنا ولو كان في أي معنى من معانيه. وتلك كلية أنبانا عنها قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧].

وذلك أمر فصل، وذلك لأنه تعالى وهو المخبر بها فكان عالما سبحانه بتفاصيلها ودقائقها، وعلى الوجه الذي نزلت به تماما، بحيث لا يبقى منه شيء كان مفيدا ذكره إلا وجاء الذكر الحكيم ببيانه، وما عنه قد عدل فاعلم أنه ليس من ورائه ما أفاد، ومنه كان عدم ذكره، ولأن الكتاب الحكيم إنما هو كتاب كليات لا دقائق ليس من ورائها كثير طول.

وهو من معاني علمه سبحانه، وهو من معالم وسعه أيضا، كما أنبأنا عن ذلك قوله سبحانه ﴿ فَأَيُّمَا تُلَؤُلُوا فَتُمْ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]. ومن وسعه أيضا إحاطته بكل شيء من دقائق هذا القصص الكريم لما قصه علينا ربنا الرحمن سبحانه في الكتاب الحكيم. ومنه قوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُلُّ شَيْءٌ مَّحِيطٌ ﴾ [فصلت: ٥٤].

ويبين معنى قوله تعالى (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ) كما جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم،

وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار، ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة^(١).

وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم^(٢).

وقوله (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)، دال على معنى الشهود والحضور بما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، بيد أن منه أفيد نبأ عنه تعالى، ولا يكون إلا بعلمه، وعلى وفق مراده سبحانه وتقديره، وليس يشذ شيء في كونه تعالى عن مراده سبحانه، وهو مما يكون حاصله النظر إلى ما قص القرآن، أو أمر به، إلا كونه حقيقة وجب اتباع مقتضاها، وإلا يقينا سلم العبيد أمرهم إلى الله تعالى على وفق ما قص وعلى وفق ما أمر سبحانه.

ودلك على صدق ما أقول أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقيق؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ذلك لأنه تعالى قال ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ^(٣).

ومنه قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

ذلك لأنه تعالى عندما كان من أمره أنه قد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وأنه لما كان سبحانه قد اتخذ نبيه إبراهيم خليلاً، وإنما كان على حيثية أنه حنفي، وكفى به موجبا،

(١) البخاري: ٧٤٤٣

(٢) تفسير الطبري: ٥ / ٤٣١

(٣) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٣١

فدل على أنه تعالى ومن مقتضى أنه له ما في السماوات وما في الأرض ومن مقتضاه كان بكل شيء محيطاً، ومنه فخلته تعالى لعبد من عبيده إنما كانت في مقامها الأول لأنه حنيفي كما أسلفت، ومنه فدل ذلك على أن علاقة الرب تعالى بينه وبين عبيده جميعاً إنما هي على أساس هذه العبودية الخالصة له تعالى وحده، ومن ثم فادعاء أن عزيزاً ابن الله أو أن عيسى عليه السلام ابن الله هو شطط لا يعطي لأحد منحة هذا الوهم، ولا يعطيها عليهما السلام أحدهما أو كليهما ذلكم موجب، وعلى فرض وقوعه جدلاً، ومنه فالرجوع إلى الأصل الأصيل والأساس الصحيح فيما يجب أن تكون عليه علاقة الرب بالمربوبين إنما على ذلكم أساس هو الأولى بالاتباع، وهو الأوحاد في القبول.

فعن أبي هريرة: ما أدري أتبع لعين هو، أم لا، وما أدري أعزير نبي هو، أم لا^(١).

ومنه أيضاً تسقط كل مزاعم القوم، وتوهين ذلكم الإدعاء، ومن ثم تسقط معه تبعاً أو هامهم حيث كان من شأنهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

وعود على بدء، وإنما كان نبي الله إبراهيم عليه السلام خليلاً، وإنما كان من معاني الخليل أنه من الاختصاص، فالله عز وجل أعلم إذن بما اختص به إبراهيم عليه السلام في وقته للرسالة.

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً^(٢).

(١) صحيح أبي داود الألباني: ٤٦٧٤

(٢) صحيح مسلم: ٢٣٨٣

ومنه أن ما يهم ذكره في هذا المقام بيان أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو نبي الله تعالى الحنيفي الخليل، ولما لم يركن إلى ذلك، ولما أن جاهد في الله تعالى حق جهاده، فقام لله تعالى موحدًا حنيفيًا في نفسه، ودعا قومه إلى عبادة الله تعالى وحده بلا شريك، وناصب من حاد الله تعالى العداء، وكان أول من كان له النصيب الأوفر في ذلك أبوه، ولما أن قام بنفسه مفردًا وكسر أصنام القوم وحده، وعن آخرها، ولما أن لم تهف نفسه إلى مثل زعم أولاء، كونه نصيرًا لله، ومحبا له، ومنه فكان له أن يتحلل من كل تبعة! ليركن إليها، فدل على أن الخلّة والاصطفاء شيء، وأن التزام منهج الله تعالى بناء عليه شيء آخر تمامًا، وأن زعمًا بحبة الله تعالى لعبده من عبده لا يخول له خروجًا عما رسمه الله تعالى من علاقة سبق بيانها يجب ألا يكون غيرها بين العبيد كلهم وبين ربهم الرحمن سبحانه، وهنا - وفقط هنا - يمكن قبول قول بحبة أو خلّة أو ما شابههما.

ودراسة أمره تعالى في القرآن الكريم لمسائل التاريخ إنما يجب أن تكون نابعة من مثل ذلكم وقائمة عليه في آن، ولا تكون في معزل عن سياقه ودلالاته وأماراته ضرورة، واستنتاج العبر والعظات النافعة من وراء ذكر قصص هنا أو أمر هناك، وإنما كانت كلها لبيان أمر توحيده تعالى وعدم الإشراك به شيئًا ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

المطلب الثالث

تناولها علاج قضية العبودية □

(آيات من سورة يوسف أنموذج)

وكأنني بقتصص القرآن العظيم إنما جاءت لا لتسليّة العبيد قراءة، ولا لزيادة ما لديهم ثقافة، بل إنما كان ذلك لعلاج قضية الوجود كله، وهي مسألة عبادة تعالى وحده بلا شريك، لا على وفق هوى أحدنا أو نظامه، وإنما على وفق شرعه تعالى وإرادته.

ومن هنا أؤكد كما أكد غيري ولاشك على ضرورة تناول القصص القرآني من ذلكم جانب كيما نكون مصيبين حال تناولنا لدراسة الكتاب المبين حق دراسته لا في معزل عن قضية الألوهية.

حتى صرنا وحتى صار غيرنا في دهشة من قول فريق من الناس (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله) وهم ينذرون لغيره، وهم يأتمرون بغير أمره، وهو ينتهون عن غير نهيه، وهم يحلون ما حرم، وهم يحرمون ما أحل! ونسوا أن الشهادة لا تكون حقا إلا عن حضور وعن علم يشهدان على كونها قضية محسومة في الوجدان.

ودلك على صدق ما أقول كيف كان من توفيق الله تعالى لسيدنا يوسف عليه السلام، وكيف أنه تناول قصته كلها من أولها إلى آخرها تعريفا بقضية الوجود كله، وتطويعا لها كأحسن ما يكون التطويع، وتعريفا بها كأحسن ما يكون التعريف، وهي تلكم المتعلقة بتصحيح حياة الناس موافقة لشرع الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، وكيف أن ذلك وحده كان كافيا لتلخيص القصة كلها حول ذلكم الأمر الأهم، والبالغ في أهميته مبلغا كان مرادفا لما قد أراده الله تعالى حقيقة من وراء سرد قصة كهذه، بل ومن وراء قصصه في

الذكر الحكيم كله، بل ومن وراء خلقه للوجود كله من أساس، وانظر إلى قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. ليدلك أكثر عن صدق قلبي وبوركت.

وانظر إلى كيفية استغلال الحدث لخدمة هذه المسألة الأم، وكيف كان توفيق سيدنا يوسف عليه السلام في تطويع قصته كلها لسبر أغوارها، ومن حيث قال الله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُمَا إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٣٧ - ٤١].

وكأني به عليه السلام معرضا عن حكايته كلها، على نحو ما ذكر الكتاب المبين ليكون همه الأساس هو ذلكم القول الفصل ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُمَا إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٣٧ - ٤٠].

وكأنه عليه السلام قد وفق أحسن توفيق وأبلغه لما أن قد استغل حدث الرؤيا ولينبأهما نبأ هو في حياتهم وغيرهم أهم من حدث الرؤيا، بل وما حدث الرؤيا في مقابلة حدثه هو من أول القصة إلى آخرها؟! فذلكم لا يساوي شيئاً كثيراً في مواجهتها.

بل لعلي لا أبالغ، إذا قلت إنه اتخذ عنصر التشويق، وانتهازها فرصة، ومن خلال هذا التشويق، أن يبلغ أمر ربه تعالى، وإذها هما يسمعان، ومن إنصات، ومن ثم ليقول لهما قوله، في تعبير الرؤيا، وهذا ملمح جد حسن وجميل!

أما قضية الوجود كله، وهي مسألة الألوهية لله تعالى وحده بلا شريك، بل إن هذه القصة وغيرها لم يكن لينزل نظم كريم فيها إلا تطويعاً لخدمة هذا الأمر وغرسه في النفوس، ليجري فيها كما يجري الدم في العروق!

والتشويق بالإقبال عليه أمر هام في كيفية تطويع الحدث لخدمة الدعوة إلى الله تعالى، ومنه يفيد أصحاب الدعوات كيف يمكنهم تطوير هذا الأمر لإشاعة الخير بين الناس باستغلال أفضيتهم نفسها تطويعاً لذلك، كما حدث مع نبي الله يوسف عليه السلام. إذ كان استغلاله لترقب تعبيره رؤياهما أمراً جديراً في كيف أنه أفلح في إسماعهم كلمة الله تعالى، وهما يترقبان فيسمعان دمج مسألة الرؤيا في مسألة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى على وجهه، لا كما قد ورثاه، ولا كما قد عهدا عليه قومهما، ليكونا هما نفسيهما فيما بعد شعلة خير ومنازة هدى، لا ليكون عبده ونبیه وحده في الميدان، وتلك منحة من الله تعالى وتوفيق منه سبحانه لنبیه يوسف عليه السلام، ولمن حذا حذوه في مهارة استغلال الحدث لخدمة القضية الأساس، وهي مسألة العبودية الخالصة لله تعالى وحده.

ومن حيث لم يتركهم خيارى، فقد أوماً إلى أن مسألة تأويل رؤياهما ليست أمراً جليلاً ليس يقدر عليه، لتتكون لديهم هالة من صدقه، وهالة أخرى من إمكانياته، فيحرصون ويثقون ويتنظرون!

وهي مسألة أخرى في كيفية شحذ همم المدعو كلها، واستنهاض ما لديه من مشاعره كلها أيضا، كيما يمكن للداعية أن يدفع فيها الحق، فتلقى قبولاً كلياً، لا تشوبه شائبة من اعتراض، ولا تعكر من صفوه شبهة، ولا تنال من استقامته شهوة، ومن ثم يخرجون مسلمين حقاً، ليكون باب إدخالهم إلى الملة صحيحاً بلا دخن، ومنه يستمسكون ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويظهر أن إمكان تأويله رؤياهما من القرب، بمكان قرب حلول وقت طعامهم، وهو من بلاغة النظم الحكيم أيما بلاغة، وهو من توفيق الرب الحكيم لعبد أيما توفيق، ليغرس فيهم الأمل بقرب حلول التأويل، كقرب زمن مجيء طعامهم!

وكون طعامهم (ترزقانه)، فهو تمهيد آخر إلى أنه وكمثل ما إن طعامكم يأتيكم على غير جهد جهيد منكم، وقد أعد لكم سلفاً، وكمثل قرب مجيئه إليكم على حين جوع وظماً منكم، جعلت منه نفوسكم مشرّبة إليه، ومنه مسألة تأويل رؤياكما، ولسوف تأتيكم كفلق الصباح فانتظروا!

وهي ملاححة في البيان، وتشويق بلغ أفقا أوسع ما يمكن تصوره في كيفية إمكان الداعية أن يجعل من المدعوين يحبسون أنفاسهم لتلقي أمر الدعوة باحتراف وانسجام تامين تامين!

وليس يكون رزق رزقا إلا حال كونه كان نافعا، وليس يكون نافعا إلا حال كونه كان طعاما، كقوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ إِنِّي لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقوله سبحانه ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] ، وقوله جل وعلا ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. وإلا حال

كونه كان إنفاقا كقوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٥]. وإلا حال كونه كان عطاء كما كان الحال إبان عصور الخلافة الإسلامية أن كانوا يسمون ما يعطى للجند بأنه عطاء.

وليس يفهم من قوله (إِلَّا بِنَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) أنه عليه السلام قد يتجاسر على ادعاء علم غيب أو ما شابهه، وإنما يجب أن يفهم منه ما يليق بمقام عبد فقير إلى مولاه، ولا سيما إذا كان نبيا، أو هكذا سوف يكون، وهكذا كان، يسند كل نعمة هو فيها إلى خالقها ومسديها في المقام الأول وفي المقام الأخير معا، ذلك أنه يعي تماما قول ربه الرحمن سبحانه ﴿ وَمَا يَكُومَنَ نَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]

لكنه وإن شئت فقل هو استشراف لفضله تعالى ومنه وعطائه، وهو حسن ظن عبد بربه ملازم له أبدا ملازمته لعبوديته لربه الرحمن ومولاه سبحانه إن شئت فقل. ولكنها فراسة عبد منحها الله تعالى إياه إن شئت فقل أيضا.

ومنه يمكنه بفضل ربه مولاه أيضا أن يتصرف وفق المواقف التي يحتاج فيها إلى سند مولاه وعطائه ومنه وفضله وكرمه كيما يكون هاديا ﴿ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجَا مُنِيرَا ﴾ [الأحزاب: ٤٦]

ومنه ذلكم الكشف، ومنه ذلكم الإسناد الذي جاء طوعية منه واختيارا، وجاء منه عبوديته لربه الرحمن في أوسع معانيها دقيقتها وجليلها حيث قال (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) وهو من التمهيد اللائق كيما يكون محل ثقة حال دعوتهم لما هو آت فتأمل!

وكأنما قد لاحظ منهم عجبا من قوله، وكأنما قد شاهد منهم لهفة لما يقول، وإذ به ينشر عقيدته في سماحة وائتلاف (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)!

وكأنما قد أراد أن يعلمهم تعليما صادقا أن ذلك (مِمَّا)! وكأن كل من أكرم بوسام العبودية يرزقه ربه علما كثيرا، كان ذلكم بعضا من بعضه!

ولم يكن كاذبا حين قوله لهم (مِمَّا)! وذلك لأنه مفترض أنه وقد أعد للنبوة ومنه فكان صادقا كأصدق ما يكون الصدق في معانيه، وذلك لأنه قد أثبت براعة فيما بعد في حل مشكلاتهم، ومشكلات المجتمع المختلفة فيما بعد، من مثل مسألة الجانب الاقتصادي كما قال تعالى ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. وكيف كان توفيق ربه له في حلها بأدق ما يمكن أن يصل إليه عباقرة الاقتصاد في يومهم ذاك وفي يومنا هذا أيضا!

وهو شحذ همم آخر؛ استعدادا لتلقيهم ذلكم الأمر العظيم من بعد قليل.

بل هو مما قد أوقد في جنباتهم عوامل الاستعداد والتلقي لقبول ما سوف يلقي على أسماعهم لاحقا!

وهو من طريق التأليف وشحذ الهمم الذي يجب أن تعيه العصبية المؤمنة حين دعوة الناس إلى ربهم الحق سبحانه.

ونظر إلى قوله (مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) وكيف يكون من سداد أن ذلك العطاء في مراحل تلك إنما ناسب أن يكون من شأن ربوبية الله تعالى لعبده، وهو ملحظ دقيق. إذ لما كان العطاء والرزق والخلق والإحياء والإماتة وإنزال المطر وغير ذلك من نعم له تترى على العبيد مما كان من حق ربوبيته تعالى وواجبها، فكان منه توفيقه تعالى لعبده ونبيه يوسف عليه السلام أن يشحذ الهمم بعطاء الربوبية كيما يمكنها تلقي أمر الألوهية بغير مواربة أو لوثة، وحينها تسمو بالعبد إلى آفاق العزة والكرامة، ذلك لأنه قد اتخذ تعالى وحده وليا من دون سائر ما خلق، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الصِّكِّتُ بِهِ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وكأنما كان من سر ذلكم العطاء، وكأنما كان من سبب تلکم المنح، ما منه كان مدخلا مباشرا إلى صلب ما أراد بثه فيهم، وإلى حقيقة ما ابتغى دعوتهم إليه، فقال ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]!

وترك الشيء تخليته. ومنه لا يبقى منه شيء، وهو من براعة اختيار النظم القرآني للكلمة في موضعها لتؤدي معنى ما كان لغيره أن يؤديه، وهو من تمام البيان القرآني للذكر الحكيم في مجيء هذا اللفظ بذاته ليدل على معنى التخلية في أوسع معانيها، دلالة على مجانبة الشرك كله، والتخلية منه في كل معنى من معانيه أيضا.

وأريد أن أقدم مقدمة جديرة: ذلك أنك تلاحظ أخي القارئ الكريم ما يشير إليه قوله تعالى ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]! وما تحمله من معاني التوكيد الدال على صدق الترك. وما يدل عليه لفظ الترك من كونه قد ترك الشرك - كله - غير راغب فيه، بل مبغض له، وإلى التوحيد - كله - وهو راغب فيه - كله -، ومقبل عليه، وهو ملحظ كريم من وراء النظم الكريم فتأمله وبوركت.

كما وأن فيه معنى مزائلة الكفر تركا لا تبقى معه بقية من ترك، فالانتقال من الجاهلية كلها إلى الإسلام كله، فذلكم هو الضامن بإذنه تعالى أن يكون الإنسان لربه موحدا.

ومنه قوله ﷺ من رواية طارق بن أشيم الأشجعي (من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله. وفي رواية: من وحد الله... ثم ذكر، بمثله^(١)).

والشاهد الانسلاخ من الشرك كله إلى الإسلام كله، بدلالة قوله ﷺ (بما) أي بكل ما كان من شأنه أنه من أمر الشرك والإشراك.

(١) صحيح مسلم: ٢٣

ومنه قوله ﷺ من رواية أبي ذر الغفاري (لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم^(١)).

والشاهد قوله ﷺ (إنك امرؤ فيك جاهلية) فدل على مقت الإسلام للجاهلية ولو كانت واحدة!

ومنه كانت نضاعة العقيدة، وشفافيتها في قلوب المؤمنين، وبالأخص الرسل والأنبياء منهم كما قال تعالى ﴿ قَالَ يَقْتُمْرُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٧]. أي ليس بي سفاهة ولو كانت واحدة! وذلك لأنني (رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) فرسله تعالى منزهون عن الضلال في أية صورة كانت من صورته وفي أي معنى كان من معانيه. وكيف يليق قبول أن أحدهم يمكن أن يتلبس بضلالة - ولو كانت واحدة - وهو إنما أرسل لبيان الضلال ليجتنبوه، وليبان الحق فيعملوه؟

وليس يكون توحيد إلا إذا سبقه ترك كلي للشرك كله وأهله معه. وكان منه قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بل كان منه حديث رسول الله ﷺ من رواية عبادة بن الصامت (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته

(١) صحيح البخاري: ٣٠

ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل. [وفي رواية زاد]: من أبواب الجنة الثمانية، أيها شاء^(١).

ومنه كان بيان نبي الله يوسف عليه السلام لهذه الكلية ليكون سنداً واحداً متصلاً بإخوته الأنبياء أن الترك كله لملة القوم كلها هو عنوان التوحيد في قوله مرة أخرى ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾!

ومنه تكون العناية، ومنه يكون التوفيق، ومنه يكون العون، ومنه يكون السداد، والله المستعان.

وتركه لملة القوم له فيه موجب. ذلك لأنهم (لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)! وهو موجب مفحم يقذف في القلب تفكيراً طويلاً عريضاً لاستكناه حقيقة ما غرق الإنسان فيه من ضلال، وهو في نفس الوقت موجب لإيقاظ جانب الخير فيه من ناحية أخرى، لينهض مفكراً، ولعله أن يعود، وهو ما يمكنني تسميته ب (الصدمة). وكان من موجبها هي الأخرى أن تجعل الإنسان ليفكر في شأنه الماضي من كفر صريح، وما يجب أن يكون عليه شأنه الحاضر من إيمان صحيح.

وهو درس أوحيه للدعاة العاملين أن ينهضوا به في دعوتهم، وهو ترياق بإذن الله تعالى من أدواء العي والسامة العقدية التي أصيبتها ديننا في مقتل، لعدم إيضاح الرؤية في الدعوة، كما هنا نستجمع قوانا لنعرفها من سيدنا يوسف عليه السلام وهو إذ ذاك يدعو قومه!

أما حين تأخذنا (لا صراحة) في دعوة الناس، وابتداء الدعوة على حين من الخلل، فالنتيجة الحتمية لذلك هو الخلل نفسه. فكما أنهم دعوا من غير الباب النبوي الكريم، فلسوف يخرجون منه أيضاً، لأنهم لم يدعوا على أساس من الدين صحيح.

(١) صحيح البخاري: ٣٤٣٥

ولئن كان الترك هو من حظ ملة الكفر على الوجه السالف بيانه ،إلا أنه يقابله اتباع مطلق لملة أخرى هي ملة الآباء والحنفاء الربانيين.

ودلك على هكذا معنى: ما جاء في لسان العرب، لابن منظور، حيث قال: وتبعت الشيء تبوعا: سرت في أثره؛ واتبعه وأتبعه وتتبعه قفاه وتطلبه متبعا له وكذلك تتبعه وتتبعته متبعا.

وهو ما يعني اتباعا كاملا غير منقوص ومنه قوله ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟^(١)).

والاتباع بلا ترك كما أن الترك بلا اتباع وهما طرفا نقيض. فالمسلم تارك للكفر بالكلية كما أنه تابع للإسلام بالكلية.

وهوما كان من شأن نبي الله يوسف عليه السلام كما دل عليه نص الآية الكريمة (واتبعت).

وليس يقول قائل إن هذا اتباعا كما أن ذاك اتباع. فإن القوم كان من شأنهم وأمثالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ذلك لأنه تعالى جعل سند الحنفية متصلا من كونه ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨]. ومنه دل على أنهم كانوا ﴿حَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْلُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴾ [الحج: ٣١]. كما أن نظم الآية التي بين أيدينا يقطع بأنهم كانوا

(١) صحيح البخاري: ٣٤٥٦

لا يشركون به تعالى شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ٣٨]. ولو شيئاً واحداً!

وزيادة تأكيد على خلوه من آفة شرك ولو واحدة ذلك عليها مجيء حرف الجر (من) لتنفي خبث الشرك عنه في قليله وفي كثيره معا ليصفو قلب إلى مولاه متوكلاً عليه تعالى في مواجهة قومه كلهم وهو زاد التقوى حينما تضافر عليه القلب ليهبه طاقات خلاقة تمكنه من مواجهة الباطل ولو كان وحده.

وهي طاقة دلنا عليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وهكذا يكون الحق في ذاته قويا، وهكذا يستمد أهل الحق قوتهم من حقهم الذي يتلبسون به، ألا تراهم يبذلون مهجهم في سبيل نصرته له، والذود عنه!

ذلك لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له تعالى وحده كما قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكما جاء في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى أنه قال (حدثني زهير بن حرب، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا روح بن القاسم، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه) (١).

وعبر سيدنا يوسف عليه السلام بالملة دلالة على الإسلام. وإطلاق اسم الملة على الإسلام من حيث كونه ديناً وكل ملة هي دين فكان من باب الاشتراك اللفظي.

إلا أنه ليس يفوت بيان أنه وإن كان قد عبر عن الإسلام بلفظ الملة إلا أن ما جاء بعدها يعني به الملة الحنيفية الإبراهيمية التي ما انفك الناس يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فتأمل!

ودلك على صدق ما أقول قوله تعالى: ﴿ دِينًا قِسْمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ١٦١]. فدل على أن الملة الإبراهيمية والحنيفية الإبراهيمية هي الدين القيم وليس غيرها ومنه قال الله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]. فالملة هي الدين والدين هو الحنيفية، والحنيفية هي الفطرة وهي ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي تركه لتيكم ملة لا ينهض دليلا على كونه قد مارس طقسا ولو واحدا من طقوسها يوما ما. وذلك هو شأن الحنفاء في كل أحيانهم ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [الحج: ٣١]. فهم جميعا حنفاء لله تعالى أبدا، غير مشركين به أبدا!

وذلك علاوة على أنه قد سدد موجب تركه لملتهم من حيث إنه قال ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧]. فهم لا يؤمنون بالله وبالتالي كانوا بذلك كافرين.

بيد أن لطيفة قد أبرزها النص الكريم، ذلك لأنه وإن كان قد ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون، إلا أن ما يجعل من ذلكم ترك كونه إعجازا، إمكان أن يأتيه، وهو من وقفات القرآن الحكيم الذكر المبين، ذلك أنه أيضا ومن حيث إمكان عدم الترك فدل على طاقة كامنة من القوة بمكان بحيث أزاحته عن الكفر وأهله، مع إمكانه أن يكون منهم كفرا كما كان منهم مجتمعا.

ودلك على مدى تجرده ومدى إخلاصه كونه كان مولى لملك القوم آنئذ، وهو ما يشي بقوة هذا الدين، وحمل من قد تسربت به أفئدة المؤمنين ألا مولى لهم غيره تعالى وألا

رب لهم سواه سبحانه، ﴿ذَلِكَ يَأْنَّ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [١١] ﴿[محمد: ١١].

ذلك أن تبعية للسيد جبلة كان من شأنها أن تؤثر في قراره، وكان من شأنها أن تعوق من مساره!

لكنها العقيدة حين تستحكم في القلوب، ولكنه اليقين حين يملك على المرء كل ما فيه من وجدان وضمير وأحاسيس ومشاعر وتصورات، لتنصهر كلها أمام الحق مجيبة داعيه، وملبية مؤذنه!

ولئن كان من بيان آخر لازم فأقول: إن كون فئة يؤمنون بالله تعالى في جانب من جوانب حياتهم أو حتى في جوانب دون أخرى هو ما يوجب إطلاق الكفر عليهم وهو ما يتفق مع قوله تعالى أيضا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. وقد سبق تأكيد هذه الحقيقة لكن ذكرها ههنا من باب التسلسل الذي يوجبه البيان.

وذلك لأنه عليه السلام قد كان في زمانه الأقباط، ومعلوم أنهم كانوا يدينون بعقيدة البعث والحساب، لكنهم لما أشركوا فكان وكأنهم لم تنفعهم عقيدتهم تلك في البعث والنشور والحساب، ومنه كان البيان أيضا.

وليس يمنع من احتجاج أن كان فيهم الكنعانيون وأنهم ما كانوا يدينون دين الحق في عقيدة البعث والنشور، فسياق النص جاء عاما ليشمل أولاء وأولئك.

وزيادة ضمير الفصل (وَهُمْ مُشْرِكُونَ) زيادة اهتمام بشأنهم ذلك ل ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

وأراد باتباع ملة آبائه على طول نسبه عليه السلام إنباء حسنا ألا عذر لناقص إن كان من أهل الكتاب، أو غيره، في استدبار قضية الألوهية على نصاعتها، وأليس لأحد من سند في ترك ما وراء ذلك من توحيد خالص لله تعالى.

هذا، وإن استدعاه عليه السلام لأبائه في ذلكم موقف إنما هو لحسن احتجاج في مواجهتهم، إذ لما كانوا على الحنيفية وهي الإسلام، وعلى طول ذلكم السند الكريم الضارب في الزمان، فدل على أن كفر غيرهم هش لا سند له، كما هذا الذي شرف به يوسف عليه السلام في مواجهتهم، علاوة على ما يحمل بين جنباته من عوامل السقوط والوهن في آن.

وإنما ذكر الآباء في معرض كهذا استشرافاً لفضلهم، كما أنه اعتزازاً بسيرتهم، أن كانوا حنفاء لله تعالى غير مشركين به، ولم يتلبسوا بدنس شرك يكون درنه ناقضاً لإيمانهم، وتلك سيرة الحق دائماً وأبداً على طول الزمان وعرضه! وهو أيضاً من باب التأسى بالخير وأهله، كما قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلِهِمْ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْه أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

هذا، وإن نبي الله يوسف عليه السلام أراد أن يتأسى بما قد جرت عليه سنته تعالى من مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]. ومن مثل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

وهو مما يزيد الحق وأهله قوة في مواجهة معسكرات الشرك وأهله، وهو أيضاً مما يزيدهم قوة إلى قوتهم في استمساكهم بالحق، وهو أيضاً مما يشي بخذلان الباطل وأهله معاً، حينما يجدون سنداً طويلاً لأهل الحق هكذا متواتراً بين ناظرينهم، ولعلمهم أن يهتدوا بعد إذ قد اقتدوا بهم.

ذلك أن نبي الله يوسف عليه السلام يملك من سند النبيين ما لم يتوافر عليه غيره من الأنبياء والمرسلين إن من قبله وإن من بعده معا. وانظر إلى حديث رسول الله ﷺ لأنبئك عن صدق قولي، ولما أن قال ﷺ (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام^(١)).

ذلك وإن استمسك أهل الحق بدينهم الإسلام إنما كان نابعا من سلطته وما يملك من حق يدمغ به الباطل وأهله، وإذ إن الحق له سلطان كأقوى ما يكون السلطان، وإنما تقوم به الحجة البالغة في مواجهة الخصوم من المتكبرين، ومنه قوله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وإن ترك الكفر وأهله معه، وإن اتباع ملة الخنفاء، لجدير أن يكون فضلا من الله تعالى ورضوانا، ومنه قال (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا) وهو من باب ترغيب القوم أن يدخلوا في دين الله تعالى أفواجا من حيث كونه ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٨].!

وزيادة ترغيب على حين تشويق منه عليه السلام. ذلك عليها النظم الحكيم في قوله (وَعَلَى النَّاسِ)، فكل من سوف يدخل في دينه تعالى تاركا الكفر والكافرين ومتبرئا من الشرك والمشركين فذلكم لأنه ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) صحيح البخاري: ٣٣٨٢

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) وهو بيان آخر لشحذ همم القوم لأن يباينوا كفرهم والكافرين ويدخلوا في نظم المؤمنين، وذلك عندما يشير إلى أن مسألة الشكر، ومن كون أن الله تعالى قد خلق فهو الأحق وحده بالعبادة دون ما سواه، ومن حيث إنه تعالى قد أغدق الناس بنعمه تترى، فذلك على أن ذلك من موجب شكره تعالى، ومنه كان توحيده تبعا لذلكم واجبا.

أكرر وهذه من ملاحظات النظم الكريم، ومن توفيق عبيد من عباد الله تعالى المخلصين أن يستدعي جوانب الخير في المدعو، لتسوقه سوفا إلى الإيمان بالله تعالى الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

والانصهار في الحق ديدن الصالحين، ونظام الموحدين، وطريق المخبطين، وسبيل الناجين. ومنه كان انصهار نبي الله يوسف عليه السلام في الحق، حتى كان من شأنه جريانه في عروقه جريان دمه معه تماما بتمام، ومنه كان ذلكم التوفيق الذي حالفه فضلا من الله تعالى ونعمة ورضوانا، أن كان منارة خير وداعية هدى لقومه آنذاك.

الفصل السابع: أسباب النكال وموجبات الاستئصال

ولأنه تعالى عدل ﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فقد أبان شرعه أسباب الأخذ وموجبات العقاب كيما ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وتأسيسا على ذلكم بيان قرآني مجيد سوف أتعرض لذكر هذه الأسباب تفصيلا غير ممل، وإيجازا غير غل وذلك من خلال ستة مباحث متتالية هي:

المبحث الأول

الظلم والكفر ومنه التكذيب

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

ومن أمثال العرب في الشبه: من أشبه أباه فما ظلم.

قال الأصمعي: ما ظلم أي ما وضع الشبه في غير موضعه.

وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم^(١).

والظلم هو تجاوز الحد، وله صور عديدة، لكن أعظمها هو الشرك بالله تعالى ربنا الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ هُوَ يَعْظُهُمْ وَيَنْبَغِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(١) معجم لسان العرب لابن منظور، مادة ظلم

وجاء في صحيح البخاري شرحا لهذه الآية الكريمة ما نصه (عن عبد الله رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يلبس إيمانه بظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٣] ﴿١﴾).

قال ابن حجر: تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به (٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وبادئ ذي بدء أقول إن نظرة إلى النص ممهورة ببعض تأمل لتأخذ القلوب أخذا ولتهز المشاعر هزا! فإن قيل: وما سبب؟ قلت: رعدة يصابها من قرأ (وَالْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا). فكل من تتحقق فيه صفة الكفر من هيئة أو أمة أو طائفة أو فئة فإنما كان لها من التدمير والاستئصال (أَمْثَلُهَا). ذلك لأنها لم ترعو لما قد جاءها الذكر الحكيم والبلاغ المبين محذرا ومنذرا!

وكعادة القرآن الحكيم أنه يؤطر سننه على طريق الاعتبار، كيما يخاطب النفس ما تبقى فيها من رصيد الخير يدفعها دفعا إلى الإيمان به تعالى لتجنب عاقبة الكفر به تعالى من التدمير الكلي، والذي يحمل بين جنباته كل معنى ممكن من معاني الاستئصال الكلي أيضا، بحيث لا تبقى منهم باقية، وذلك على ذلكم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) صحيح البخاري: ٦٧٧٤

(٢) فتح الباري ٨/ ٣٥٥

الْكَتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴿[الفرقان: ٣٥-٣٦].

وهي سنته تعالى في كل مكذب، كما قال تعالى أيضا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِيطَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَا يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴿[الفرقان: ٣٧-٤٠].

وكعادة القرآن المجيد فإنه يأتي بذكر الكافرين وما كان عليه مصيرهم تنبيها لكل من قد كان على نهجهم من الأمم اللاحقة. مما أفهم منه دلالة الآية وأمثالها على وجوب الإيمان بالله تعالى ذلك لأنه تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿٧﴾ [الزمر: ٧].

ووجوب اجتناب الكفر كما وجوب الإيمان الحق بالله تعالى ربنا الرحمن سببان متلازمان للوقاية من عاقبة ذلك والمتثلة في التدمير!

ذلك لأنه تعالى وإن كان من سننه الإمهال، إلا أنه تعالى من سننه أيضا عدم الإهمال!

وأمره فيهم على الاستدراج ونسأله تعالى السلامة.

عن عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ۖ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤] ، ذلك لأنه تعالى إذا أخذ فإنما يكون أخذه مما لا

يطيقه بشر، وذلك لأنه تعالى قال أيضا ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

ذلك وأنه تعالى كان أخذه مسببا، وذلك لأنهم ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧].

ومنه قوله ﷺ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. قال: ثم قرأ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

والكفر والظلم والتكذيب ألفاظ متباعدة مبنى، إلا أنها متألّفة ومتقاربة معنى. وكلها تتفق على معنى يشملها متمثلا في العدوان على سلطان الله تعالى في الأرض، فلطالما كان قد تحقق فيها شرط ذلكم العدوان على سلطان الله تعالى في الحكم والتشريع فإنها والحال ذلكم تكون كافرة ظالمة مكذبة.

ولست أحمل نفسي حملا لا أطيقه، فإن ذلك أمر عام، يحتاج في تخصيصه إلى بسط آخر، كما أنه إجمالي، يعوزه التقييد في محل آخر أيضا، وإنزاله على واقع ما، هو بحاجة إلى تأصيل آخر، وحين تتوافر شروطه، وتتنفي موانعه، وكما هو مبسوط في غير هذا الموضع أيضا.

(١) مسند أحمد: ١٧٣١١

(٢) صحيح البخاري: ٤٦٨٦

لكنني أردت - وحسب - أن أبين مفهوما عاما جاءت به الملة الحنيفية الإبراهيمية، أما تنزيله على الواقع فهو بحاجة إلى بحث آخر على كل حال.

وغاية أمري أنني أرى كما يرى غير غيور تعديا على سلطان ربنا الرحمن سبحانه في الأرض.

وهو أمر يجب تداركه كيما لا يلحقنا التدمير، وهو سقم قمن علاجه، وكيما لا يصيبنا الاستئصال، والله المستعان.

وشأن الظلم كما شأن الكفر وخيم، ووقوعه من منتصب للديانة مؤذن بخذلانه. وارتكابه من لئيم زنديق أوقع في إيلامه. وأئخن في إيجاعه.

وانظر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال ما نصه (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا يروى: (الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)^(١).

وهذا الذي يتأيد بقول الإمام الذهبي رحمه الله تعالى (قلت: فرحنا بمصير الأمر إليهم، ولكن - والله - ساءنا ما جرى؛ لما جرى من سيول الدماء، والسبي، والنهب - فإنا لله وإنا إليه راجعون - فالدولة الظالمة مع الأمن وحقق الدماء، ولا دولة عادلة تنتهك دونها المحارم، وأنى لها العدل؟ بل أتت دولة أعجمية خراسانية جبارة، ما أشبه الليلة بالبارحة)^(٢).

وأعظم بالشرك ظلما! كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝﴾ [مريم: ٨٩-٩١]

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، (ج ٢٨/ ص ٦٣)

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: (٥٨/ ٦)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قول رسول الله ﷺ (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم^(١)).

وإنما كان ماحل بالأمم الغابرة من أهل الشرك جزاء على ظلمهم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا كَانِ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۚ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِرَصَادٍ ۝﴾ [الفجر: ٩-١٤].

ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذُرٍ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَجْرَارٌ نَّخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۝﴾ [القمر: ١٨-٢٠] وقال تعالى: ﴿وَكُرِّ قَصْمَنَا مِنْ قَرِيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١١]. وقال ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ۝﴾ [الحج: ٤٥]

وقال عن قوم فرعون، ومن نحا نحوهم، واتبع سبيلهم ﴿كَذَّابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٥٤]

وجاء عن ابن كثير رحمه الله تعالى أنه سبحانه (فعل بهؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم فقلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل^(٢)).

وسبق بيان أنه تعالى إنما جعل عقوبته للأمم الكافرة سنة جارية له في خلقه، كما قال سبحانه ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝﴾ [فاطر: ٤٣].

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٠/٢

وجاء عن الطبري رحمه الله تعالى أنه (يقول تعالى ذكره: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نعمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم)^(١).

وقد جاءت آياته تعالى ترى متوعة الأمم الكافرة بسنة الله الماضية في سائر من أشرك وفي كل من كفر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى (هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابا شديدا إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ١٠١﴾ [هود: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُكْرًا ٩٨﴾ [الطلاق: ٩-٨]^(٢).

وهذه سنته تعالى لا مهرب منها ولا محيص عنها، إذ هي قدر الله الذي لا يغلب، وقد يؤخره الله ليلبلغ أجله، لكنه ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

قال القرطبي: (أي أجرى الله العذاب على الكفار، ويجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثله من استحقه لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره)^(٣).

(١) تفسير الطبري ١٤٦/٢٢

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧/٣

(٣) تفسير القرطبي ٣٦٠/١٤

ومن الظلم الطغيان وظلم العباد: ومنه قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لَكُمْ لَمَا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

قال ابن كثير: "الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم. وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر"^(١).

وهو على عادة الكتاب الحكيم والذكر المبين بيان موجب الإهلاك، وحين ظلم العباد، ذلك الإهلاك الذي لا يتأخر حلوله، ولما يتوافر سببه، ومنه يحذر عاقل ألا يظلم، ومنه ينأى ذو لب عن ظلم، وإن دق، فإن الذنب يتعاضم بتكراره، وإن الذنب ليتعاضم بتهاون عبد لدى اقترافه له، وإن الذنب ليتعاضم حين استصغار مذنّب به.

وإن الذنب لينكت في قلب مقترفه نكتة سوداء، حتى يكون عليه كالران، كما جاء من حديثه ﷺ من طريق أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب، ونزع، واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: كلا بل ران على قلوبهم)^(٢).

ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أيضا (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه، وهو الران الذي ذكر الله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)^(٣).

وإن الذنب ليتعاضم حين لا يقدر امرؤ ربه حق قدره، وقد كان ذلكم عدم الإقدار من أسباب هلاك أمم، فتأمل!

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٩

(٢) الترغيب والترهيب، المنذري: ٤/ ١٢٠. وقال الألباني: إسناده صحيح، أو حسن، أو ما قاربهما.

(٣) صحيح الترمذي: ٣٣٣٤

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟)^(١).

وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً: لو كشفت غطائي حتى يراني فيستيقن ويعلم كيف أفعل لخلقهم إذا أمتهم؟ وقبضت السماوات والأرضين ثم قلت: أنا الملك من ذا الذي له الملك دوني؟! ثم أريهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنونها، وأريهم النار وما أعددت لهم من كل شر فيستيقنونها. ولكن عمداً غيبت ذلك عنهم؛ لأعلم كيف يعملون، وقد بيته لهم^(٢).

وجاء عن ابن كثير رحمه الله تعالى أيضاً أن (الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتهم بسبب كفرهم وعنادهم. وكذلك أنتم أيها المشركون: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر)^(٣).

ودلك أن الله تعالى يعجل عقوبة الظلم في الدنيا قبل الآخرة، ما رواه أبو بكره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ذنب أحرق أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي)^(٤).

وعن قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها عليكم أنفسكم لا يضركم من

(١) صحيح البخاري: ٧٣٨٢

(٢) السلسلة الضعيفة، الألباني: ٥٦٠٨

(٣) تفسير ابن كثير ١٦٩/٤

(٤) صحيح الأدب المفرد، الألباني: ٤٨

ضل إذا اهتديتم وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب^(١).

وتأخر عقوبة الظلم حين من الدهر استدراج من الله تعالى.

روى البخاري رحمه الله تعالى من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل يملئ للظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ وكذلك أخذ ربك، إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)^(٢).

ومنه قوله تعالى ﴿وَأْمُرْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدَ مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]. وقوله تعالى ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُؤُودًا﴾ [الطارق: ١٧].

يقول: أمهلهم أنا قليلا وأنظرهم للموعود الذي هو وقت حلول النعمة بهم^(٣).

المبحث الثاني

انتشار الخطيئات، وفشو المنكرات، وقلة الجزاءات والعقوبات

ومنه أكل الربا: كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٦]

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٣٣٨

(٢) صحيح البخاري: ٤٦٨٦

(٣) تفسير الطبري، تفسير سورة الطارق: الآية ١٧

فعن عبد الله بن مسعود عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله. قال: قلت: وكاتبه، وشاهديه؟ قال: إنما نحدث بما سمعنا^(١)).

ومنه انتشار الزنا: كما جاء من حديث أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها (لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا، فيوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب^(٢)).

وعن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث^(٣).

ومنه النقص والتطيف في الكيل والميزان: كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱۰ إِذَا كَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۱۱ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝۱۲﴾ [المطففين: ١-٣].

ومنه العتو والكبر والغرور: قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۝۱۰ وَثَمُودًا ۝۱۱ فَمَا أَبْقَى ۝۱۲ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ۝۱۳﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

وجاء في تفسير الطبري رحمه الله تعالى أنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلما لأنفسهم، وأعظم كفرا بربهم، وأشد طغيانا وتمردا على الله من

(١) صحيح مسلم: ١٥٩٧

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرنؤوط: ٢٦٨٣٠، خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

(٣) صحيح البخاري: ٦٧١٦

الذين أهلكهم من بعد من الأمم , وكان طغيانهم الذي وصفهم الله به , وأنهم كانوا بذلك أكثر طغيانا من غيرهم من الأمم^(١).

وقال الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

حيث كانت القرون الماضية والأمم السالفة أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، وقد أوتوا في ذلكم من أسباب الإمارة والتمكين ما لم يبلغوه أو قريبا منه، وكانوا مع ذلك أطول أعمار مما كان سببا آخر من موجبات الإعمار، ومع ذلك حل بهم ما قد ذكره الله تعالى من انتقامه ووعيدة، على وفق سنته الجارية في كل ظالم معتد عتل زعيم.

وقد حكى النبي صلى الله عليه وسلم قصة بني إسرائيل عندما أصابهم شيء من العزة بالكثرة والعدد، فجاءتهم العقوبة من الله تعالى، وأصابتهم سنن الله العادلة التي تحيق بمن أصابه شيء من الكبر أو الغرور أو العزة بغير الله.

فعن صهيب، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى همس شيئا لا أفهمه ولا يخبرنا به، قال: أفطنتم لي؟ قلنا: نعم. قال: إني ذكرت نبيا من الأنبياء أعطي جنودا من قومه، فقال: من يكافئ هؤلاء، أو من يقوم هؤلاء؟ أو غيرها من الكلام، فأوحى إليه: أن اختر لقومك إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم، أو الجوع، أو الموت، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنت نبي الله، نكل ذلك إليك، خر لنا، فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة، فصلى ما شاء الله، قال: ثم قال: أي رب، أما عدو من غيرهم فلا، أو الجوع فلا، ولكن الموت فسلط عليهم الموت، فمات منهم

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ١٠٣

سبعون ألفاً، فهمسي الذي ترون أني أقول: اللهم بك أقاتل، وبك أصاول، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

وهو درس بليغ أيما بلاغة لمن يأخذه غرور القوة والبأس والطغيان.

وانظر إلى عجيب صنيعه تعالى بقارون لما أن راح به شطط فكر وسذاجة بال حينما قد استعظم صغره، وأمام قوة الله تعالى الملك العزيز الجبار المتكبر حين ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن دُونِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

وليكون مآله ما ناسب جرمه، وليكون وباله ما تعاضم عنده كبره، وليكون عاقبة أمره ما ماثل حياله طغيانه وغروره، حين قال الله تعالى: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١]

ومنه الغلو في الدين: ومنه حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال (قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على راحلته: هات القط لي. فلقطت له حصيات هن حصى الخذف، فلما وضعتهن في يده، قال: بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)^(٢).

قال المناوي: إياكم والغلو في الدين. أي التشديد فيه ومجاوزة الحد والبحث عن غوامض الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها^(٣).

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٣٣٨٣

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٣٠٥٧

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٣ / ١٦٢

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم^(١).

قال ابن حجر: ما كان على وجه التعنت والتكلف^(٢).

وعن جندب بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا^(٣).

قال النووي رحمه الله تعالى: المراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدين بكفرهم وابتداعهم، فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل فعلهم^(٤).

ومنه كفران النعم:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَا تَبْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝ ﴾ [سبأ: ١٥-١٧]. وقال تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ ﴾ [سبأ: ١٩]. وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) صحيح البخاري: ٦٨٩٦

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ١٥ / ١٥٢

(٣) صحيح مسلم: ٤٩٤٨

(٤) فتح النعم شرح صحيح مسلم - ج ١٠ / ٢٠٤

قال الطبري في بيان معنى الآية: "ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه إن عذابي لشديد، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي"^(١).

وحكى الله مصارع الأمم التي كفرت نعم الله فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال المناوي: "ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم، وفي الحكم: من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها".

وقال الغزالي: "والشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه ينعقد وتتحول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]"^(٢).

وقال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره"^(٣).

وانظر إلى ثنائه تعالى على ثلة أخلصوا دينهم لله وكان من إخلاصهم تبوؤهم مكانة الأمر والنهي في أممهم، وما كان إليه مصير قوم أهلكتهم الله تعالى بظلمهم، وكأنني أقف

(١) تفسير الطبري ١٨٦/١٣

(٢) فيض القدير، المناوي: ٤١/٣

(٣) تفسير الطبري ١٢١/١٣

على أن من ظلمهم ترفهم، وأن من ظلمهم جرمهم، وأن من جرمهم العداء المستحكم للعداء العاملين، والأميرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، وإنما قلت ذلك لأنها سمة القوم، وهي لصيقة بهم في كل آن، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

وقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨].

وانظر إلى موجب إهلاك الله تعالى لأهل الكتاب من اليهود ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [٧٨] كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وانظر إلى حديث رسول الله ﷺ من رواية جرير بن عبد الله (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز وأكثر ممن يعمله، ثم لم يغيروه، إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب)^(١).

فعن زكرياء، قال: سمعت عامرا، يقول: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٥٧٤٩

من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا^(١).

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء (فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكليلة حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مدهانة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في إتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها)^(٢).

وإنما تعم المنكرات وتفشو حين لا يتوافر الدعاة العاملون على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس يكون ذلك قائما إلا حين يضيق أهل الزمان عليهم أمرهم، فلاهم يأمرهم كما يجب، ولاهم ينهون كما ينبغي، لأن الحصار والتضييق والتغيب كان مصير ثلة من هؤلاء، والله تعالى هو المستعان، وبه الثقة، وعليه التكلان.

ومنه تصبح المنكرات عند القوم أمرا مألوفًا مما يكون سببا لحلول النقمة من السماء حينها حسبما جرت عليه سنته تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير.

(١) البخاري: ٢٣٨٨

(٢) الإحياء، الغزالي: ج ٢/ ٣٠٦

فعن حذيفة ابن اليمان عن رسول الله ﷺ قال (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم)^(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المثونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)^(٢).

وقال القرطبي: "وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يغير عوقب الجميع"^(٣).

وعن قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب^(٤).

(١) صحيح الترمذي: ٢١٦٩

(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني: (١/ ١٦٧)

(٣) تفسير القرطبي: ٤٠١/١

(٤) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٧٧٥

قال القاري: إذا كان الذين لا يعملون المعاصي أكثر من الذين يعملونها فلم يمنعهم عنها عذاب قاله القاري^(١).

وقال العزيزي: لأن من لم يعمل إذ كانوا أكثر من يعمل كانوا قادرين على تغيير المنكر غالباً فتركهم له رضي به انتهى^(٢).

وقال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم إليهم فيعذبهم الله بالعذاب)^(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر عليه العامة أن تغيره ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله تعالى في هلاك العامة والخاصة)^(٤).

وانظر إلى المداينة وعاقبتها. لتكشف عن طبيعة أهل الفساد فيوادون أن لو يدهن مسلم لهم مرة ليكون في صفهم يوماً كما يكونون في صفه مرة أخرى مماثلة، كشفاً عن جهل مطبق بحقيقة الحق في أنه ليس من طبيعته هو الآخر أن يلتقي مع الباطل في أي منعطف من منعطفاته، وليس من طبيعته أن يتقابل معه في أي منحى من منحياته.

فالحق عال في قمته السامقة! ومن ذا يطول ذؤابته! وهو سام في درجته! ومن ذا يجاري هامته!

(١) عون المعبود: ٣٢٩/١١

(٢) عون المعبود: ٣٢٩/١١

(٣) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٧ / ٣٩١

(٤) أحمد ح، ١٧٢٦٧، الطبراني ١٧/١٣٨، ورجاله ثقات، قال ابن حجر: إسناده حسن، فتح الباري ٤/١٣

قال الله تعالى ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦]. وقال تعالى ﴿ وَذُؤْا لَوْ تَذَهْنُ فَيَذَهْنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [القلَم: ٩]. فودوا لو ترخص لهم فيرخصون، أو تلين في دينك فيلينون في دينهم.

وبه ينالهم النكال، وبموجه يطالهم الاستئصال.

قال المباركفوري رحمه الله تعالى: تصيبكم عامة بسبب مدهانتكم^(١).

وعن ابن أبي مليكة قال قالت أسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أنا على حوضي أنتظر من يرد علي فيؤخذ بناس من دوني فأقول أمتي فيقال لا تدري مشوا على القهقري قال ابن أبي مليكة اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن^(٢).

وإذا كان العقاب الدنيوي حالا بالجميع إلا أن ذلك ليس يعني حلول العذاب في الآخرة على هذا الجميع، فكل محاسب عن عمله، وكل يبعث على نيته.

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال (إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله عز وجل بعذاب من عنده فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: بلى، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان)^(٣).

قال القرطبي: فإن قيل فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنون ليس بظالم؟ قيل يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة^(٤).

(١) تحفة الأحوذى ٦/٣٢٩

(٢) صحيح البخاري: ٦٦٤١

(٣) مسند الإمام أحمد: ج ١٨/٢٦٤٧٥

(٤) تفسير القرطبي ١٠/١٢٠

وعن الزهري، أخبرني حمزة بن عبد الله بن عمر، أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أنزل الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم^(١).

المبحث الثالث

التنافس في الدنيا والشح بما فيها

وهو بلية أهل كل زمان، وهو داء آل كل حين، ولما يستشر في عصب أمة أو أن يجري في عروق قوم، فإنما قد أذنوا هم بهلاك أنفسهم، وذلك لأن فيه اعتراضا على منحة الله لقوم، وذلك لأنه فيه بلاء مستطير حين لا ترعوي فئة من الناس، أو فئام من القوم، أن يكون مآل سخطهم على أقدار الله تعالى، متمثلا في أنه لم أعطى هذا؟! ولم منح ذاك؟! وهو طعن في حقيقة الإيمان من أساس، وبقليل من التأمل لا بكثير منه. تراه باديا أمام الأعين.

فعن المسور بن مخرمة أنه أخبره أن عمرو بن عوف الأنصاري وهو حليف لبني عامر بن لؤي وكان شهد بدرا أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتهما وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافت صلاة الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم وقال أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء قالوا أجل يا رسول الله قال فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط

(١) صحيح البخاري: ٦٧٢٦

عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم^(١).

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا)^(٢).

قال ابن حجر: فيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين^(٣).

ولعل سببا لطغيان أحدهم يكون متمثلا في طغيانه. وذلك لما قد رأى من نفسه استغناء عن غيره، وتبعا يكون من ذلكم الغير هو الله تعالى ربنا الرحمن، وهو اعتداء على ربوبيته تعالى من أساس.

ودلك على صدق ما أقول قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ ﴿٦﴾ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿٧﴾ [العلق: ٦-٧].

من حيث أن قد جعل الله تعالى من استغنائه سببا لطغيانه، ونسى مسكين ألا غنى له عن سند تعالى في كثرة أموره وتعدادها، ذلك لأن المرء متقلب في أحوال شتى لا يكاد لها حصرا، ولا يمكنه لها عدا، وبالتالي كان قمن به أن يركن لا إلى أحد سوى مولاه الله تعالى وحده.

وإن الإنسان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه فيكفر به لأن رأى نفسه استغنت^(٤).

وكان من رحمته تعالى أن أعطى، وكان من فضله تعالى أن منح، وكان من جوده تعالى أن وهب، وكان من كرمه تعالى أن أغدق. لكن فثاما غرهم صنيعة، وبدل أن يسندوا فضله

(١) صحيح البخاري: ٢٩٨٨

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ١٦٩٨

(٣) فتح الباري، ابن حجر: ٢٦٣/٦

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٣٠ / ٣٢١.

إليه، ويرجعوا أمره إليه، تراهم يتنكبون طريقهم، وتراهم يضلون سبيلهم، حتى كان من بسطه تعالى رزقا إليهم سببا في بغيهم، وهو كما قال الله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرا وبطرا^(١).

وأنت خير بسوء طوية امرئ هذا شأنه، وأنت بصير بخيبة عبد ذاك، أمره.

المبحث الرابع

الترف وانتشار الفساد

ولعلمه تعالى المسبق في كتابه المكنون أن قوما سوف يستحقون الهلاك لمقتضى خروجهم عن منهجه تعالى، واعتداء منهم على سلطان الله تعالى في الأرض، وربنا الرحمن سبحانه في حكمه أن ذلكم جرم استحق مرتكبوه الخذلان، وأن ذلك تعد كان من نصيب مرتكبه الاستئصال، فكانت منه سنته تعالى الجارية، أن مكن منهم مترفي قومهم ليأخذوا بأسباب هلاكهم، ليحق قوله تعالى الحق الفصل في تدميرهم - وعن آخرهم - بحيث لا يتبقى منهم أثر، اللهم إلا تحلة ما يمكن أن يكون آية لغيرهم من أسلافهم من بعد، ولعلمهم يتتهون، وإلا فأنت ترى كثيرا من هذه البقايا والقوم ينظرون وتراهم متبلدين، والأنكى أنهم جعلوا منها مزارات لهو، وسياحات عبث، ولما لم يراعوا، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

(١) تفسير ابن كثير: ٩٩ / ٤

وانظر مرة أخرى إلى قوله تعالى (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) لترى حزما، ولترى إيقاعا مفعما بالنكال والعذاب المهين، ولتسمع جرسا وكأنما تعيش الحدث - عن بعد - وأنت ترى صنيع ربك العزيز الجبار بأولاء فنام تجروا على سلطانه فأخذوه اعتداء، ولترتعد فرائصك وأنت تعيش الحدث - عن بعد - ناظرا بعيني رأسك لترى كيف سبيل إلى وقد أمكن الله تعالى منهم فدمرهم كلهم وتدميرا ليست تبقى منهم معه بقية إلا كما أسلفت، والله المستعان.

وكان من سنته تعالى - كما أسلفت آنفا - أن قوما أترفوا يكونون سبيلا إلى اجتثاث قوم قد اعتدوا على سلطانه تعالى في الأرض، وهم أولا الموصوفون بالسادة والكبراء في موضع آخر من كتابه تعالى، ليدلك على قواسم مشتركة بين الهالكين من كونهم مترفين تارة، ومن كونهم كبراء تارة أخرى، ومن كونهم سادة في تارة ثالثة، ومن كونهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله تعالى تارة رابعة، أو من كونهم أي مصطلح يوافق معناه ذلكم المعنى العام وهو الاعتداء على سلطان الله تعالى في الأرض بنبد شرعه وإحلال شرع آخر مكانه في تارة خامسة، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۗ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَاهُمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨]. وقال تعالى ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتَنَا سَوْءَ مَا عَلَيْنَا أَجْرَ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١﴾ [الشورى: ٢١].

المبحث الخامس

ترك الجهاد والإخلاء إلى الأرض

والجهاد ذروة سنام الإسلام، وحيثما كان كانت عزتها، وحينما لم يكن وقعت ذلتها، ويراه كل منصف رأي العين.

فعن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بجائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: "إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها"، فأنزل الله تعالى: وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد"، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية^(١).

والحديث يدل على أن المراد بالإلقاء الأيدي إلى التهلكة هو الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)^(٣).

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا في أهله بخير، أصابه الله سبحانه بقارعة قبل يوم القيامة^(١).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٥١٢

(٢) تحفة الأحوذى، المباركفوري: ج ٨ / ٣١٢

(٣) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٤٦٢

والقارعة من شدائد الدهر وهي الداهية^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَلُثْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

"وليس العذاب الذي يتهددهم هو عذاب الآخرة فقط، بل عذاب الدنيا والآخرة، عذاب الذل الذي يصيب القاعدين عن الجهاد، عذاب الحرمان من الخيرات التي يستفيد منها العدو الكافر ويحرمها أهلها، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة أضعاف ما كان يتطلبه منها جهاد الأعداء"^(٣).

المبحث السادس

مخالفة أمر النبي ﷺ

قال الله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

ومخالفة أمره صلى الله عليه وسلم توجب المخافة. ذلك لأنه إنما قد أرسله ربه سبحانه لحياة الناس حياة طيبة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنفال: ١٠١].

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٢٤٩

(٢) لسان العرب لابن منظور: ج ١٢/ ٧٦

(٣) الظلال: (٣/ ١٦٥٥)

٢٤]. وذلك لأن مخالفته صلى الله عليه وسلم آثمٌ إنما تكون وكأن الناس يقولون بلسان الحال إنهم مستغنون، ومنه تكون مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم بالتوحيد والإسلام موجبة لحلول فتنة الكفر المستحق للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

قال الطبري رحمه الله تعالى (الذين يصنعون هذا - أي مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم - أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم. الفتنة هاهنا: الكفر أو يصيبهم في عاجل الدنيا عذاب من الله موجه، على صنيعهم ذلك، وخلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(١).

وقوله (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته [وسنته]. وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا ما كان.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد)^(٢).

أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا أو ظاهرا (أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ) أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، (أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك.

وعن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدجلوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة النور: الآية ٦٣

(٢) صحيح البخاري: ٢٦٩٧

فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق^(١).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال (بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم)^(٢).

(١) صحيح الإمام مسلم: ٤٣٥٥

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٢١/٧

الفصل الثامن

صور العذاب على وفق موجبها من الأسباب

مدخل إلى المسألة

إن الذي يجري من تهاون بحدود الله تعالى في الأرض، وإن الذي نراه من هوان أمتنا على كافة الأصعدة، ليرميان بالكرة في ملعب الدعاة العاملين، ليشخصوا الداء حقا، ومنه يوفقون إلى تشخيص الدواء حقا كذلككم.

ومنه وجب الوقوف على أسباب مصارع الأمم، ومن ثم الوقوف بجيدة هي الأخرى أمام ذكر طرق الأخذ والاستئصال على وفق سنن الله تعالى الجارية ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

بيد أن هذا الذي يحصل في كونه تعالى، وما قد طرأ على هذا الكون نفسه من أزل فإنما كان على حسب سنن الله تعالى الجارية - وكما أسلفت - من أنه تعالى وحسب كل فريق وما سعى، فإن كان من الذين بغوا في الأرض واستكبروا، فإن العاقبة فيهم هي الأخذ والتدمير والاستئصال كل حسب منهج مرسوم له سلفا حسبما اقتضته إرادة الله تعالى، وإن كان من الذين وحدوا وأخلصوا دينهم لله تعالى فيكون أيضا مصيرهم المحتوم على حسب سننه تعالى في الذين آمنوا وعملوا الصالحات كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا فَاسْتَكَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

وإن كان هؤلاء وهؤلاء فإنما يخضعون لسنته تعالى في صورتها العامة وكل يجري إلى أجل مسمى كما قال تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقد سبق إيراد كثير من آيات القرآن العظيم والسنة النبوية الصحيحة ما أنبأنا عن مدى عذاب قد أعد للناكسين وعن مدى زجر قد توعد به الشاردون كيما يكون هالة من الترهيب لقوم ولعلمهم أن يعودوا كيما يكون زاجرا لآخرين ولعلمهم أن يؤوبوا. ولأن الجرم ليس واحدا، ولأن سبيل كل قوم كان في التعدي على منهجه تعالى متباينا - إلى حد ما - عما سواهم، فكان منه تباين الانتقام الرباني منهم كل على وفق ما أعده الله تعالى له، إن في الدنيا وإن في الآخرة معا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء؛ وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان. وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان هذا عذابه هؤلاء وذنوبهم مع الشرك عقور الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشد عذابا. ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حق وأقام الفتن واستهان بجرمات الله علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون^(١)).

(١) مجموع الفتاوى: ٢٥٠/١٦

قال السعدي ({ فكلّا } من هؤلاء الأمم المكذبة { أخذنا بذنبه } على قدره، وبعقوبة مناسبة له)^(١).

ولأن الجزاء من جنس العمل فقد كان ما يحل بأمة من عذاب الله تعالى لها من جنس جرمهم ومما يتوافق مع اثمهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى (وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لأثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببا لمنع الغيث من السماء والقحط والجذب وجعل ظلم المساكين والبخس في المكايل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سببا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ولا يعطفون إن استعطفوا وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم جائرين وتارة بأمراض عامة وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له والعامل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون وإلى دار البوار صائرون والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره وبالله التوفيق)^(٢).

وأشرع بيانا لصور العذاب الذي أحله الله تعالى على أهل كل نحلة حسبما كان على وفق موجبها من أسباب خروجهم على منهجه تعالى.

وسوف يكون ذلكم من خلال عرضها في تسعة مباحث على النحو التالي:

(١) تيسير الكريم ٦٠ / ٤

(٢) زاد المعاد، ابن القيم: ٣٢٩ / ٤

المبحث الأول

الغرق والطوفان

١ - ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقد خص بهذا قوم نوح، وكما أنه كان أول رسول أرسله الله تعالى إلى الناس، فكان تبعا لذلك أن يكون الطوفان أول عذاب قد أحله الله تعالى على الناس.

ومنه أفيد أن ظلمهم كان موجب استئصالهم بالعذاب وأن كفرهم كان سبب أخذهم بالطوفان وهو إغراقهم بالماء، كما قال تعالى (وَهُمْ ظَالِمُونَ). وكما قال تعالى أيضا ﴿ مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا ﴾ [نوح: ٢٥]. ومن كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا فأدخلوا نارا^(١).

٢ - وعذب الله تعالى فرعون وجنوده بالإغراق في اليم أجمعين كما قال تعالى (ثم عذب الله فرعون وجنوده بالغرق في اليم ﴿ فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وموجبا الإغراق هما ما يقتضيه قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ).

فالتكذيب بآيات الله تعالى بعدم إعمالها في الضمائر والحركات والسكنات وفي قيم الناس وموازينهم وتصوراتهم، وكذا والغفلة عنها أن تكون كذلك نظام حياة يعيش عليه الناس ومن حيث إنهم مربوبون لربهم الرحمن سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥] وانظر إلى فعل الشرط (فَلَمَّا ءَاسَفُونَا)

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧١

ليدلك على موجب تحقق جوابه ونتيجته بأنهم (ءَاسَفُونَ)! و (ءَاسَفُونَ) لفظ من مفردات العربية مختار بعناية ربانية يستغرق فيها لب أحدنا وعقله بحيث يؤدي معنى الخروج عن منهجه تعالى في تحد واضح لمقام الألوهية العظيم، وعدم المبالاة باستدراج الله تعالى للعبيد بالنعم، وقد يمكن ألا يكون، ولكنه من باب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤] لكنهم لما (ءَاسَفُونَ)! أي أسخطونا بذنوبهم وكفرهم، فكان وقوع جوابه (أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)، ونتيجته (فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

وهو خروج بحيث ما بقيت بقية معه يمكن معها رجوع إلى الجادة وإلى النجاة وإلى السداد والتوفيق والنجاة، ولذا كان الانتقام موجب ذلك وسببه، فتأمل!

٣ - كما عذب الله تعالى مملكة سبأ بالسيل والطوفان كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِیْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

٤ - وقد توعد الله تعالى الآمنين من مكروه بعذاب القصف من الريح والذي يتبعه غرقهم جميعهم بموجب الإهلاك العام وهو (بِمَا كَفَرُوا)، فقال سبحانه ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٦٩].

المبحث الثاني

الريح

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ﴾ [الحاقة: ٦].

وإنما كانت ريحا لتحمل بين جنباتها من التهديد والزجر والوعيد ما ناسب كفر عاد قوم هود فأهلكهم الله (بريح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)، على حد وصف القرآن المجيد.

فإن قيل: وما (صَرْصَرٍ)؟ قلت: هي الشديدة العصف والشديدة البرودة معا، لتعصف كل من كان في طريقها، ولا شك أنهم كلهم كانوا في طريقها، بجامع اجتماعهم على الكفر ومناصبه نبي الله هودا العداء، فليست لتذر من أحد في طريقها إلا وكان من نصيبه الأخذ والجرف والإزاحة والاستئصال والتدمير! وهي شديدة برودتها، لينضاف إلى شدة هبوبها مشهد تكاد القلوب لتخلع من هولها، ولتكاد العروق ليتجمد دماؤها من شديد بردها. والله المستعان.

بيد أنني أريد أن ألمح وصفا للكلمة (صَرْصَرٍ) كونها تحمل بين معانيها ذلكم التخالل بين جزيئاتها، وذلكم العدد الهائل من مركباتها، وذلكم الكم الهائل من ضراوتها، وذلكم الهبوب العاتي من موجاتها، وذلكم التفاعل الهائل من وزنها (فعلل)، لتدل على كل معنى ممكن لضراوتها، ولتدل على كل معنى ممكن أيضا من أصواتها، ولتدل على كل معنى ممكن من التتابع في موجات أخذها وعتوها، لأولاء قوم عتوا عن أمر بهم، وهي على ذلك الوصف (صَرْصَرٍ).

ولذا كان منه ذلكم القول الفصل المجيد من القرآن الحكيم والذكر المبين ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتِخَزَوا فِي خَوَافٍ ۚ﴾ [الحاقة: ٧]. لتعطي معنى الإذلال والصغار أيضا في أوسع معانيهما، إذ إنه كان يمكن أن يأخذهم الله تعالى في لمح بصر أو

هو أقرب! ولكنه الإمعان في الإمهال، ليكون بعده الإمعان في الإذلال - كما قلت -
نظير ذلكم كفر بربهم، وكان من شأن عذابهم ألا يقع إلا بعد إذ قد دعوا، وإلا بعد إذ
قد أمهلوا وهي سنته تعالى قبل أخذه، وهو سبيله سبحانه قبل مقتته.

وقد جاء تسمية هذه الأيام التي أخذ القوم فيها ﴿ صَرَعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ خَلٍ خَاوِيَةٍ ۝ ﴾ بالأيام
النحسات، وذلكم كما الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ
مُحْسَنَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾ [فصلت: ١٦]
ودلك على عظيم وصفها بذلكم وصف أنه نعت موح بمعاني التتابع والشؤم والنكد
والشدة. وهي أيام ذات شر. بحيث قد حوته كله لبيأس حلیم من بقية خير فيها، وهو
إمعان آخر في العذاب الشديد والنكال الأليم، والله المستعان.

وإن قيل: وما (عَاتِيَةٍ)؟ قلت: أي تجاوزت في شدة هبوبها وعظيم عصفوها مقدارها
المعروف في الهبوب والبرد. ذلك القدر الذي لم يألّفه القوم في حياتهم اليومية مع الريح!
وكان لذلك أن يحصل لتغاير ما اعتاده القوم من ريح، فلم يشهدوا لذلك من مثيل حتى
كادت منه أوداجهم أن تنتفخ خوفا وهلعا!

ومنه قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا) [فصلت: ١٦].

وليست تكون ريحا إلا يوم أن كانت لتحمل بين جنباتها العذاب الأليم، كما قال تعالى
﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا أَسْعَجَلَكُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ۝ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. وأقف مشدوها أمام دلالة وصف الله تعالى للعذاب الذي حل
بالقوم بأنه (عَذَابٌ أَلِيمٌ)! فإنه عذاب عام، ليحمل بين جنباته صنوف العذاب في شدته،
وليجمع بين جنباته عموم الألم وحسوته!

وكأنما القوم وقد اعتادوا وصفا غير ما ألم بهم، وإذ بهم وكأن حالهم ومقالمهم (قَالُوا هَذَا
عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)، وإنما كان من سذاجة فكرهم، وإنما كان من بلادة حسهم، أن غاية نتاج

تيكم الريح أن يكون مطرا، يسقون منه أنفسهم، وتشرب منه أنعامهم، وتروى منه زراعاتهم، وحسب! ليأتي ذلكم الحسم الرباني في صورته التي تجلجل لها الأفئدة والأبصار، ليرد عليهم زعمهم الضئيل المتهافت نازلا في شدته المنشودة وقائلا في نبرته المعهودة (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)!

فإن قيل وما الذي استعجلوه؟ قلت: ماجرت عليه عادة القوم من استخفافهم بأنبيائهم يوم أن قالوا ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا كُنتُمْ تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ [هود: ٣٢].

وكان من عذابها أنها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فهي تخرب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه مما أرسلت بهلاكه، وذلك لأنها لم تدمر هودا، ومن كان آمن به.

وهذا ضرب آخر من الإعجاز، إذ إنه كان فيهم وبين أظهرهم، لتستثنيهم الريح في عتوها، وتميزهم فلا تكاد تكون عليهم إلا كما كانت نار النمرود يوم أن أعدها لنبي الله إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وكان من قدرها أنها من الضالة ما يوحى بألا أثر لها في النكال والأخذ والاستئصال، لكنها إرادته تعالى يوم أن يسلب نارا أثرها من الإحراق، ولكنه إعجازه سبحانه يوم أن يأخذ قوما كفروا بحجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ﴾ ﴿٤﴾ [الفيل: ٤]. حتى كان من وصفها كونها حجارة من طين، وأما قدرها فقد كان دون الحمصة وفوق العدسة، على نحو ما قيل، وهو ما يتواءم مع ما ذكر عن قتادة، قال: كانت مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها^(١).

(١) تفسير الطبري عند هذه الآية

عن ابن عباس، قال: ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا، فنزع خاتمه^(١).

والحاصل أن عذابه تعالى مثخن ومؤلم وشديد بقطع النظر عن قدر ما كان لذكركم كما. وقوله (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ) يقول: فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا، فلا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها. أما هم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٣]. وهو إمعان آخر في العذاب، وهو إمعان آخر في الذكر المشؤم لأولاء قوم كان من شأنهم تنكب هدي ربهم أن يهلكهم وألا يهلك مساكنهم!

فإن في ذلك من بقاء الأثر ما الله تعالى به عليم، من بقاء سيرتهم علما عليهم، وشارة عنهم، أنهم كانوا كافرين، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَئِيشَةً مَعَ مَسَكِنِهِمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

ودلك على ذلك الحشد الهائل للفظ (مَصْرَصٍ)، ماجرت عليه عادة القرآن الكريم من ذكر ألفاظ من هذا التركيب الصرفي الكريم في مواطن ما كان ليحسن أن يأتي إلا بها أو مثلها لتؤدي معناه الذي أحسب أن الله تعالى قد أراده منه يوم أن كان محله هذا المكان أو ذاك من كتابه العظيم القرآن الكريم.

ودلك على ذلك أيضا نظر في تفكر، واعتبار في تأمل، إلى ألفاظ كثيرة جاءت هكذا على ذلك الوزن (فعلل) من مثل (عَسَسَ)، في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ [التكوير: ١٧]. ومن مثل (زُلْزِلَتْ، زِلْزَالَهَا)، من قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١].

وإنما كان كل ذلك كذلك، ليمنح النص حركة دائبة، وليهب النظم تفاعلا، كان هو السابغ عليه كساء من الإيجابية، التي كانت نصا أصيلا من أصول خصائص التصور

(١) تفسير الطبري، ٣/٣١٣: ج ١/٢٩٤

الإسلامي ومقوماته، ومنه نصوص الذكر الحكيم، وآيات الكتاب المبين. ولولا ذلكم حراك، ولولا ذلكم تماوج بين تيكم النصوص، لظل نص الكتاب الحكيم خاملا بلا أثر، ولبقي نظم القرآن العظيم ساكنا بلا حركة!

وإنما حكيت نص القرآن المجيد ليؤدي اللفظ معناه، وهو في مكانه وسياقه القرآني المجيد. ذلك لأنه لا يمكن له أن يؤدي معناه على ذلكم الوصف الموحى بـ (الفعلة) إلا إذا كان منظوما كنظم القرآن! وإلا إذا كان موضوعا كوضع القرآن. فتأمل!

وليس يعني ذلك أن يخلو حينئذ من جرسه، وليس معناه أن يتجرد حين ذاك من أثره، فإنما هي اللغة، وإنما هو حبكها، وإنما هو نظمها.

بيد أنه وليس حبك كحبك القرآن العظيم، وليس نظم كنظم الذكر الحكيم. فتأمل!

ذلك لأنه معجز في معناه، كما أنه معجز أيضا في مبناه، فتأمل!

فإن قيل: وما موجب ما حل بقوم عاد من ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ﴾؟

قلت: أترك القارئ الكريم أمام هذه اللوحة التصويرية المجيدة من كتاب الله تعالى ربنا الرحمن القرآن العظيم، وهي إذ تعبر لنا كأشمل ما يكون التعبير، وهي إذ تصف لنا كأجل ما يكون الوصف، حين حكى لنا موقف القوم العنيد مع نبهم هود عليه السلام.

وأكتفي بعرضها كما عرضها القرآن الكريم بغير تدخل من قلبي، فأخاف أن أشوب حلاوة النص، وأخشى أن أشوش على قارئ كريم بالفاظ مني، تعكر عليه صفاء قد حل به، وهو إذ ذاك يقرأ القرآن الكريم، وهو إذ ها هو وكأنني أراه يترنم الذكر الحكيم، وهو بمعزل عن مثل قولي، فأتركه ليستظل بظلال النص الوارفة. لتراه من بعدها خاشعا مخبئا، ولترمقه على إثرها خارا قانتا!

وأدعه ليتنسم نسيمة بنفسه، كيما يعيش مشدوها مرتين!

مرة من منطق القوم وهم في بلادتهم، ومن مقتهم وهم في سذاجتهم، وهم إذ ذاك يعارضون نبي الله تعالى هودا عليه السلام، في تحد واضح كان من شأنه أن يحل بهم ما قد حل!

ومرة أخرى من طلاوة النص وحلاوته ومن عجيب تأثيره في القلوب بانحسارها إلى جهة إعجازه، فتراها مأخوذة بأخذه، وتحسبها رهينة أثره، وحبيسة بيبانه وأدبه!

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْتَظِرُونَ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْتَظِرُونَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْحَيْتُمُ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ءِلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۖ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَانجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

ولأن الريح كانت عذاب قوم هود، فقد كان نبينا محمد ﷺ إذا رأى ريحا ظهر ذلك في وجهه.

وأكتفي بذلكم وصف لحاله ﷺ، وهي إذ ذاك تهب عاصفة! ذلك أنه ﷺ ليستحضر مع ذلك ما قد حل بأمة عتت عن أمر ربها ورسله، وكأنني به ﷺ وقد تمثلت أمامه صورة ما

حل بها من العذاب الأليم ما الله تعالى به عليم. وذلك من موجب قوله تعالى ﴿وَكَايِّنَ مِنَ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ ٨ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا حُشْرًا ﴿٩﴾ [الطلاق: ٨-٩]. ومستحضرا في الوقت نفسه أن ذلك يمكن أن يحل بأخرى وقد سلكت نفس الطريق، وقد نهجت ذات النهج الأعوج الأرذل، وكأني به ﷺ وقد تصور أمامه صورة ما حل بها من العذاب الأليم ما الله تعالى به عليم.

ففي صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها أنه (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح، قال: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به، قالت: وإذا تخيلت السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت، سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: لعله، يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَتْهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] (١).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا) (٢).

(١) صحيح مسلم: ٨٩٩

(٢) صحيح البخاري: ٤٨٢٨

المبحث الثالث

الحاصب

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

١- وهم قوم لوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] والعرب تسمى الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصبا.

ومنه قول الأخطل:

ولقد علمت إذا العشار تروحت هدى الرئال يكبهن شمالا

ترمي العضاه بحاصب من ثلجها حتى يبيت على العضاه جفالا

ونحن إذن أمام عذاب مركب من حاصب ومن إمطارهم (حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ)، ولتدبر أن يسبح في خيال، وأن يروح في اعتبار، لما حل بأولاء من صنوف العذاب في آن، تعبيرا عن نكال محيق، وتأويلا لاستئصال سحيق!

ولعلي لا أروح بعيدا إذا قلت: إن ذلكم العذاب المركب إنما كان من موجهه على هذه الصورة الممعة في حلول غضبه تعالى على قوم لوط، وإنما كان ذلكم لما أتوا به من كفر بواح، ولما قد كان وصف نبي الله تعالى لوط لجرمهم ذلكم الإثم الذي لم يأت أحد من العالمين على سبيل العموم والاشترار في تيكهم خطيئة تتأبأها نفوس سامقة، وترفع عنها فطر أبية عالية سامية. طاولت عنان السماء في عزة، وعانقت قمم الجبال في أنفة!

وإنما كانت مقارفتهم لذلك إثم فاضح، وإنما كانت مزاولتهم لذلك خطأ فادح، وعلى سبيل المجاهرة فذلكم إثم كبير، وهو أيضا شر مستطير، وذلكم تعد مشين على ناموس الفطرة الربانية التي فطر الله تعالى الناس عليها، وذلكم لخروجهم عن الفطرة في أخص معانيها يوم أن شنع عليهم نبي الله تعالى لوط عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وإنه لمنبئ كذلك على انعدام حياء هو زينة امرئ كان قد تزيا به، وهو هيبة حنيفة لذي عقل كان قد تسربل به.

عن ربعي بن حراش، حدثنا أبو مسعود، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت).

ويعن نبي الله تعالى لوط عليه السلام في مواجهتهم بإثمهم بقوله ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١].

ويزيد إمعانا مرة أخرى بمواجهتهم وحده في عزة نبي، وفي أنفة ناموس الفطرة السامية التي تعلقو فوق كل دنيء من قول أو فعل.

وهو ناموس آخر ليؤكد مرة أخرى على ذلكم الزاد وتلكم الطاقة الخلاقة التي يشحن بها أهل الحق في مواجهة الباطل ولو كان الإنسان وحده! ولو كان الباطل منتفشا غرته أمانيه، وغره بالله تعالى الغرور.

وبمثل هذه العزة وعلى سبيل ذلكم الإباء تجدد الدعوة زادها، لتسلك أبية طريقها، ولتسلك أيضا في سمو دربها.

وإنما كان مقصودا به قوم لوط، وإنما كان حالا بهم أيضا، لما أكرره دائما أن ذلكم هو موجب كفرهم بالله العزيز الوهاب، وإنما كان سببا لتكذب طريق ربهم الكريم التواب.

ودلك على أنه تعالى إذا أخذ فإنما يأخذ بسبب، وإذا انتقم فإنما كان انتقامه بموجب، قوله سبحانه ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

فدل على أن ظلمهم سبق عذابهم فكان سببا له.

ودل أيضا على أن كل ظالم ليس في معزل عن أخذ كهذا!

ومنه وجوب حذر من أخذ الله تعالى ربنا الرحمن لأية أمة أو فصيل أو جماعة تنتكب طريقه، أو تستدبر سبيله، فإنه تعالى يغار، وأشد ما تكون غيرته تعالى أن ترتكب محارمه.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه^(١).

وأعظم باعتداء على سلطانه تعالى في الحكم والتشريع أن يكون لذلك سببا لأنه من أشد محارمه!

وذلكم من مقتضى عدله وحكمته أيضا - سبحانه - عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [٨٣]، قال: يعني ظالمي هذه الأمة. قال: والله ما أجار منها ظلما بعد^(٢)!

وعن السدي: (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)، يقول: من ظلمة العرب، إن لم يتوبوا فيعذبوا بها^(٣).

٢ - وهو العذاب الذي عذب الله به أصحاب الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [١] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [٢] وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن

(١) صحيح مسلم: ٥٠٨٨

(٢) تفسير الطبري: ١٨٤٥٥

(٣) المرجع السابق: ١٨٤٥٦

سَجِيلٍ ﴿٤﴾ [الفيل: ٤-١]. وأصحاب الفيل هم الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم.

٣ - والحاصب هو العذاب الذي حذر الله تعالى قريشا به، فقال سبحانه ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ١٧]. ولما يذكر الله تعالى إرسال حاصب يكون عذابا لكفار قريش جريا على سنة الله تعالى الجارية في الاستئصال والأخذ والتدمير، وهو ما سبق نسخه من سورة الفيل، وإنما كان في ذلكم ملحظ كريم. ذلك أنه تعالى خوفهم بما ليس غائبا عن خيلتهم، وليس غائبا عن تاريخ قد عرفوه، وقد قصه الله تعالى عليهم في سورة كاملة وعرفوه وأدركوه، حتى وكأنا صاروا من معانيه، جريا وراء تصوير النص القرآني المجيد، وكأنا هم يرونه رأي العين.

بل إن النص الكريم عندما ذكر (حَاصِبًا). وكأنا يبدو أنه ذلكم الحاصب الذي هو معروف لديكم وليس غائبا عن قصص تواتر ذكرها، وليس غائبا عن أخبار القوم بعضهم عن بعض.

وقوله تعالى ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ، وهو ما يحمل تهديدا بذكر النذير، أي إنذاري لكم بصدق وقوع ما منه كان الإنذار والتخويف والتهديد.

وقال تعالى ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء: ٦٨].

٤ - ومن جنسه ذلكم الحد الذي جعله الله تعالى عقوبة للزاني المحصن، وهو الرجم.

وعلى عادة القرآن العظيم في تصوير مشهد القوم وعنادهم مع أنبيائهم، وكيف كانت عاقبتهم، فهي لوحة الكتاب المبين لتقص علينا أبناء ما قد سبق من قوم لوط مع نبي الله لوط، كما نص الكتاب المبين:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهَرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ۚ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

المبحث الرابع

الصيحة

والصيحة: الصوت الشديد المهلك.

والصيحة: الهلكة أو العذاب أو الصوت الشديد.

والصيحة في الأصل: الغارة إذا فوجئ الحي بها.

والصيحة: الصياح، صراخ، صوت عال؛ نتيجة عاطفة، كالخوف أو الفرح أو اليأس

والصيحة: النفخ في الصور في الآخرة

وهي عذاب الله تعالى الذي عذب به قوم نبي الله صالح عليه السلام، كما قال تعالى:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧].

وأصاب الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله من عقر ناقة الله وكفرهم به. وهما موجبان لحلول الإهلاك بالصيحة، ذلكم لأنهم كفروا، وذلك لأنهم عقروا الناقة. ولما أن أخذتهم (الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثِيمًا)، أي قد جثمتهم المنايا، وتركتمهم خمودا بأفئدتهم، أصبحوا قد هلكوا.

ولئن قيل هي صيحة جبريل عليه السلام، ولئن قيل هي صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ؛ وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا، إلا أن كل ذلكم ينهض أن يكون جامعا لمدى الانتقام الرباني من قوم كان وصفهم كفر به، ومن قوم كان نعتهم عقر ناقة! ولما اجتمعوا على ذلكم جميعهم! وبقتوتهم جميعها! وعلى ضعف ناقة!

وهو مما ينبئ عن ضحالة عقل، وهو ما يكشف عن سفاهة مسلك، أن يجتمع كل أولاء على حصار ناقة وعقرها، وأكرر جميعهم في صف واحد، وناقة الله وحدها في صف واحد مقابل!

ويا لها من خيبة أن يستقوي قوم بأكملهم على ناقة لا حول لها ولا قوة في مواجهة هذا النفير الأثيم بكبره وعتوه وعنفوانه وجبروته!

وهو مسلك لئيم تراه في كل زمان، ولا يكاد يخلو منه مكان غاب عنه شرع مولانا الله تعالى الرحمن!

فإنك ترى عتادا جرارا مدججا في مواجهة شخص واحد أو فصيل أعزل!

ولذا كان لازما أن تتدخل عناية الله تعالى في ميدان المبارزة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وما أشبه الليلة بالبارحة!

وهو درس لكل عتو متكبر جبار، فإن الله تعالى ليس يترك وليا له وحده في ساحة المواجهة يوم أن يحتدم وطيسها، وإن الله تعالى ليرسل ملائكة غلاظا شدادا ليكونوا في

صف العصبة المؤمنة، يوم أن علم الله تعالى فيها خيرا فأجاب رجاءها، ولبي نداءها ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ ﴿[الأنفال: ٩].

وإن الله تعالى رحيم بفتنة مؤمنة وهبت نفسها لله تعالى أبية مستعصية على وهن وعصية على دخن لأنها تؤمن بحق تام في مواجهة باطل تام أيضا، وإنها لتؤمن بأن الله تعالى معها أينما كانت، وإن عونه تعالى للصيق بها حيثما راحت أو حيثما جاءت أو حيثما دارت، ذلك لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَخِيتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿[الأنفال: ١٢]

ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّلَهَا﴾ ﴿[الشمس: ١٤].

وانظر إلى موجب التدمير وأساس الاستئصال (بِذَنبِهِمْ). وهو تكرار رباني كريم في كل مناسبة ينزل الله تعالى عذابه ليذكر سببه، كيما يكون عالقا في الأذهان، وكيما تتأكد حقيقة عدله تعالى المطلق في مواجهة الشاردين عن دربه والمتنكبين لسبيله.

بيد أن السبب كان أيضا مركبا. ويبدو أنها طبيعة مشتركة، وقاسم جامع بين أهل الكفر، أن ينضم إلى كفرهم موجب آخر للاستئصال، ولما لم يكفهم أنهم كفروا بالله تعالى ربهم الرحمن سبحانه وإنه لعجب أيما عجب!

فأولاء هم قوم صالح كان من ذنبهم وحيث كان من إثمهم كفرهم وعقر ناقة الله تعالى.

وكيما تتأكد لك هذه الحقيقة أخي القارئ الكريم فهلم فتعال لأقف بك على قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)، في تلاحق بين تكذيب نبي الله تعالى صالح، وبين عقر ناقة الله تعالى، وبغير فاصل زمني يكاد يذكر بدلالة توارد فاء العاقبة وتتابعها في كل منهما (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا)!

وهو ما ينم عن طبيعة الجحود المستحكم لأوامر الله تعالى يوم أن يركب قوم رؤوسهم فيحيدون عن منهج ربهم فلا تكاد تمهلهم فطنة ولا تكاد يسعفهم تأمل لعاقبة كفرهم ومآل تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياء أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي^(١).

وقال ابن عباس (يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال)^(٢).

وتراهم في أمور حياتهم الدنيا يسألون القاصي والداني عما يصلح معاشهم فيها.

لكنك رأيتهم لما أن طال الأمر شأن معادهم، وجدتهم وقد أخذتهم الرعونة، وتراهم وقد تملكتهم الصرعة، في خفة شرها مستطير، وفي طيش إثمه مستبين. ولعاقل أن يزن هؤلاء بميزان الشرع والعقل ليعرف ما هم فيه من خور، وليوقن ما هم عليه من خذلان!

ومرة أخرى لأنه تعالى قال ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

وقوله: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) يقول: فكذبوا صالحا في خبره الذي أخبرهم به، من أن الله الذي جعل شرب الناقة يوما، ولهم شرب يوم معلوم، وأن الله يحل بهم نقمته، إن هم عقروها، كما وصفهم جل ثناؤه فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١﴾﴾ [الحاقة: ٤].

ودلك على سوء طوية، وأفادك نكت عهد قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) وقد كان القوم قبل قتل الناقة مسلمين، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم آخر. إلا أنهم بعد تسليمهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٣٨٣

(٢) المرجع السابق: ٣/٣٨٣

ذلك أجمعوا على منعها الشرب، ورضوا بقتلها، وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها، وعقرها من عقرها ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم، فقال جل ثناؤه: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) بدلالة ضمير الجمع واو الجماعة.

عن قتادة، قوله: (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمَ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا) ذكر لنا أن أحيمر ثمود أبى أن يعقرها، حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها^(١).

وهو إذن ما أوجب حلول الانتقام، وهو إذن ما أسرع أجل النكال فحق عليهم حينها قوله تعالى (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمَ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا)، يقول تعالى ذكره: فدمر عليهم ربهم بذنوبهم ذلك، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله صالحا، وعقرهم ناقته (فَسَوَّاهَا) يقول: فسوى الدمدمة عليهم جميعهم، فلم يفلت منهم أحد.

و (دمدم) أي صاح عليهم صيحة غضب. والمراد بهذه الدمدمة صوت الصاعقة والرجفة التي أهلكوا بها.

وتارة يجيء إسناد الأخذ للصيحة إمعانا في النكال بالقوم، ذلك لأنهم جميعهم كما قد أجمعوا أمرهم على عقر ناقة واحدة، فهكذا تأخذهم صيحة واحدة، لأن الجزء من جنس العمل، فتأمل! قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءَ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وتارة يجيء إسناد الفعل إلى الله تعالى مباشرة، وهو الأصل في المسائل كلها، وذلك لأن الفعل دمدم موح بظاهره إسناد ذلك إلى الله تعالى، وهو من باب المجاز العقلي لأن الله تعالى هو خالق الصيحة وكيفياتها على الحقيقة.

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٣٠ / ٢٧٠، ٢٨٩٨٢

ووزن دمدّم (فعلل)، وذكرت في موضع آخر قريب كلاما حول الوزن الصرفي (فعلل)، وكشفت عن بلاغته، وأبنت عن فصاحته، بما أغنى ههنا عن إعادته، ومنه فليُنزل ما قيل هناك على ههنا.

وعلى أية حال فإنه كناية عن المبالغة في فعل الإطباق، ذلك لأن المعنى من (دمدّم) أي أطبق عليهم الأرض، (يقال: دمم عليه القبر، إذا أطبقه ودمدّم مكرّر دمم للمبالغة مثل كبكب، وعليه فوزن دمدّم فعلل)^(١).

وقوله تعالى (فَسَوَّيْهَا) أي جعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]. أي لا يخاف الله تعالى تبعة دمدّمته عليهم.

وهو كناية عن معنى الجبروت لله تعالى ربنا الرحمن، وهو إعمال لأسمائه الحسنى في واقع الناس وحياتهم، وهو من مقتضى الإيمان بها على وجهها، وهو أيضا من موجب أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، وهو كذلك من موجب الذكر بعد أن لم يكن له من موجب، ذلك لأنه تعالى القوي الغني، وبلا حاجة إلى ذكره وبلا داع إلى إطرائه، لكن ذكره لذلك وههنا من موجب التحدي في البيان، ومن موجب كبريائه تعالى وعزته وعزيز ملكه وسابغ نعمه واستغنائه.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، تفسير سورة الشمس: الآية ١٥

وظلمهم موجب أخذهم. ذلك لأنهم فعلوا ما لم يكن لهم فعله من عقر ناقة الله وكفرهم به، ولذا فحقت عليهم كلمة الله تعالى أن أخذتهم (الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمِينَ).

وظلمهم هو ذنبهم وهو كفرهم وهو عقرهم الناقة. وهو من لطائف الكتاب الحكيم والذكر المبين، أن يأتي بمفردات كثيرة لتؤدي معنى واحدا، وذلكم لترسيخه في النفوس، وجعلها قائمة به، إن كان خيرا، وحملها على نفرة منه، إن كان شرا.

وقوله تعالى (جَثِيمِينَ) هو معنى ينضاف إلى معنى التسوية كما في قوله تعالى (فَسَوَّيْنَاهَا)، ليشملهم كلهم فقد كانوا كلهم (جَثِيمِينَ) كما قد شمل الأرض كلها بالتسوية على ما حكى الله تعالى في قوله (فَسَوَّيْنَاهَا) أي كلها، ومرة أخرى فهو كناية عن بالغ قوته، ومرة أخرى فهو دليل على سابغ عزته.

وأما عن بالغ قوته فكما سبق البيان أن (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ)، وأن (فَسَوَّيْنَاهَا) كلها، وأن جعلهم كلهم (جَثِيمِينَ) فتراهم وقد جثمتهم المنايا، وتركتمهم خمودا بأفنيتهن، ليكون بجامع حلول أنواع عدة من المعاني لتنهال على من كان صنيعهم ذلكم صنيع بخروجهم عن المنهج وبسلوكهم سلوك أهل الإعوجاج من أهل الردة وأهل الإشراك.

وأما عن سابغ عزته، فإنه ليس من مقدور عاقل أن يتخيل أن يرى الله تعالى عدوانا على ألوهيته ومقاديره في كونه، ثم لا يكون لذلكم من أثر إلا أخذه، وسوف لا يكون لذلك من عاقبة إلا المبادرة بزمام الاقتلاع والتدمير والاستئصال، لأولاء فئام تعدوا على سلطانه وجبروته وحكمه وملكه سبحانه، وذلكم من مقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله.

وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع.

عن عبد الله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر: لا تدخلوا على هؤلاء المعذيين إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم)^(١).

وهذه لوحة القرآن العظيم يرسم فيها قصص ثمود قوم صالح، مع نبى الله تعالى صالح عليه السلام، وكأنما يراها فصيح رأي العين، وهي تخالج كل سكنة من سكناته، وكأنما شهدها، كأحدهم عاينها، وكأنها زاد له على الطريق ألا ينحو نحوهم، وألا يكون مثلهم، بل يكون عبدا ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (١١) قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (١٢) قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (١٣) وَيَتَقَوَّمُوا هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (١٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ (١٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٦) وَآخِذِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ (١٧) كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (١٨) ﴿هود: ٦١-٦٨﴾.

(١) صحيح البخاري: ٤٤٢٠

المبحث الخامس

الخسف

وهو عذاب الله تعالى لقارون لما بغى على قومه، وظن أنه من عليّة قوم، وإنما هم قوم آخرون!

وهو انتقامه تعالى له لما أفسد، ذلك أنه من بغيه فقد أفسد، وذلك لأن البغي داء، ولما أن يستحكم في امرئ أعمى بصيرته، فلا يكاد يرى إلا بمنظار واحد هو عين رأسه هو وحده! ويعميه الله تعالى عن الأفق الواسع الرحب الفسيح بما أجمله الله تعالى به من خير، وبما أودعه سبحانه من مصلحين لا يفسدون، ومن موحدين لا يتكبرون على عباد الله تعالى الملك الحق المبين، لأنهم يعلمون أن ما اجتباهم بهم ربهم، واصطفاهم به على البقية من العبيد، إن هو في الحقيقة إلا الابتلاء ليلوهم، فإما أن كانوا شاكرين فيزيدهم، وإما أن كانوا جاحدين فيستدرجهم قبل أن يقتلعهم، ليكونوا أثرا على شر، وليصبحوا دالة اعتبار لمن عاينوهم، ولمن أتى من بعدهم معا!

ولما لم يهتد قارون ومن كان على مثله إلى سنن الله تعالى الجارية في كونه، في أنه تعالى يزيد الشاكرين ويعذب الجاحدين الحانقين، وذلك من مقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧٧﴾ [إبراهيم: ٧]. فكان مآل صنيعة إلى بوار، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس حسارى، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس على حقيقة كان غائبا مفادها على أعين عمي، وعلى آذان صم، وعلى قلوب غلف، وذلكم على نحو ما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنًا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: ٨٢].

لكن قوما أوتوا العلم من لدن ربهم الحق، فإنهم على بصيرة من أمر دينهم، آناء الليل وأطراف النهار، ولا ثمة ما ينخدعون به في الكون، كائنا ما كان، أو بالغاً ما بلغ، ذلك لأنهم على أرض ثابتة من ذلكم علم، وذلك لأنهم على قدم وساق في ترحالهم إلى حيث رحل النص، أو سكونهم حيث في حيث قعد بهم النص، فلا هم يروحون عنه يميناً لحظة، ولا هم يستنكفون عنه يسرة آناً.

قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِتُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

وانظر إلى عبد أسند النعمة لباريها، لتعرف أن ذلك من تمام نعمة العبودية لله تعالى عليه، ولتوقن أن ذلك هو فضله تعالى قد ساقه إليه، ولتدرك أيضاً أن الله تعالى يزيد شاكرًا، وأنه تعالى يمنح متذللاً لجوده ومنه وكرمه وعطائه ومنحه وابتلاءاته سبحانه.

قال الله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. وليس يقال إن هذا نبي من أنبياء الله تعالى اسمه سليمان، وإن هذا صعلوك اسمه قارون!

فإن من أفراد التاريخ من كان عنواناً على الشكر والامتنان لله تعالى بكل فضل.

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. وليس في حديث قتيبة: وهم كذلك)^(١).

ومن ظهورهم على حق هم عليه كان اعتراف كل عبد منهم بنعمة الله تعالى عليه، وإسناد كل فضل منه تعالى إليه.

(١) صحيح مسلم: ١٩٢٠

ولكنها القريحة الزاكمة، يوم أن تنسلخ نفوس من قيم، ويوم أن تتجرد أرواح من آداب! ومنه قوله تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١]. ومنه قوله تعالى أيضا ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وإنما كانت مقدمات خسف به وبقاره واضحة، ذلك أنه حقا بغى لما أن رأى من نفسه علوا على عبيد الله تعالى مثله، وظن به ظنه السوء أن ذلكم يعطيه مدحة فوق مقام العبودية، وإنما ذلكم الاجتباء كان يجب ألا يغيب عن بال عاقل أنه ابتلاء، وكان وجوبا أن يكون سبيلا إلى الشكر والانطراح بين يدي مسبغ النعمة وهو الله تعالى وحده سبحانه.

وذلك لأنه حقا أفسد، لأنه التمس ما حرم الله عليه من البغي على قومه.

وهو من باب إيراد المعنى بأكثر من وجه، وهو من ملاحظات الذكر الحكيم، كيما تتأكد هذه المعاني في النفوس، وقد سبق بيان جانب من ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا.

وإنما كان من مقدماته، وإنما كان من إرهاباته، ذلك التخويف، وذلك الوعيد، وذلك التهديد، الذي ألحظه من قوله تعالى على لسان القوم، وكأن الله تعالى ينطق بالحق على أفواههم، ليكون درسا عميقا في النفوس لدى قوم يستكبرون أن يفيدوا من رعتهم!

قال الله تعالى: ﴿ * إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [٧٦] وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٧٧] [القصص: ٧٦-٧٧].

لكنه لما لم يرعو، ولما لم يتأدب، ولما لم ينصع، ولما قد استكبر، ولما قد عتا، ولما قد عثا، ولما قد تطاول، ولما قد داس قيم المروءة وآداب الحق، وقد خرج في زينته هو وحده غامطا قومه، ومزدريا جنده، وكأن أرض الله تعالى الذي خلقها له مهذا ليس على أدمها من أحد سواه، ليفتن قوما ضعافا عقولهم وقليلة علومهم ليكون عليه إثمهم وإثمهم معا.

وهو من كمال غضب الله تعالى على مثل ذلكم صنف من الناس، ذلك لأنه يسن بفعلته سنة الاستكبار، والتعالي على منهج الله تعالى القهار، وكذا الخيلاء على قومه، آناء الليل وأطراف النهار، وإن هذا لمن سفه الأخلاق، وإنه لمن ذميم الشيم، وإن ذاك لمن ضيق النفوس، وحنق الديانة.

وانظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)^(١).

كما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُوبُ إِنَّهُ ۖ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القصص: ٧٩].

قال الله تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۝ ﴾ [القصص: ٨١].

(فَخَسَفْنَا)، هكذا تكون لمحة القرآن الكريم بصيغة الجمع ولا يصلح لمواجهة عتو جبار إلا مثل ذلك أسلوب كناية عن قوة مطلقة ومستعصية عن المثال في مواجهة صعلوك ضئيل أرا أن يواجه الألوهية!

(١) صحيح مسلم: ٢٦٧٤

والخسف له معنى مخيف وله جرس مرعب، إنما كان من وصفه ذلكم كيما يبلغ حده المرسوم قدرا من لدن ربنا العزيز الجبار للإثخان في ذلكم صنف أراد أن يتأله في مواجهة الله تعالى، فكان من جزائه خسف، وكان من ردعه أن تذهب به الأرض في أعماقها، وبداره ومن عليها معه^(١)!

وهكذا نكاله تعالى بكل عتو متكبر جبار، فهذا خسف، وذاك غرق، وغيرهما طوفان، وثالثهما صيحة، ورابعهما حاصب،..، والله القادر المهيمن العزيز المتكبر الجبار.

وهو ذهاب المكان ومن عليه وغيوبته في باطن الأرض!

فخسفنا (بِهْء)، وهكذا يكون ضعفه، وهكذا تبدو ضآلته! فهو الآن وحده، ولا تكاد ترى بصيصا من ظهير، ولا تكاد تجد ريحا من ركن إليه يركن، أو جدارا به يحتمي، فالكل قد غاصت به الأرض، وقد خسف بهم جميعهم، فأصبحوا جميعا أجنة في أرحامها، ولكن بلا رحمة تأخذهم بها، ولكن بلا شفقة عليهم منها، فأنى له من ظهير إذن؟!

وهو المعنى الذي أفهمه من قوله تعالى (وَيَدَارِو).

أي بقارون وأهل داره. وقيل: وبداره، لأنه ذكر أن موسى إذ أمر الأرض أن تأخذه أمرها بأخذه، وأخذ من كان معه من جلسائه في داره، وكانوا جماعة جلوسا معه، وهم على مثل الذي هو عليه من النفاق والمؤازرة على أذى موسى^(٢).

وأريد أن أقدم مقدمة مفادها أن الخسف باعتباره عذابا من الله تعالى إلا أنه يبدو أنه يحمل بين طبقات معانيه غضبا من فوقه غضب من الله تعالى. ولعلي ألمس هذا من كونه لم يعذب به أحد من العالمين سواه! فإننا قد رأينا إمكان حلول الطوفان والغرق على غير

(١) تفسير القرطبي ٣١٨/١٣

(٢) تفسير الطبري، تفسير سورة القصص: الآية ٨١.

جماعة من المشركين، فقد عذب به قوم نوح، وقد عذب به قوم فرعون وغيرهم، فدل على إمكان اشتراك قوم في حلول عذاب واحد عليهم، نظير كفرهم وجحودهم، إلا أن الخسف ولعلي لا أكون مجافيا ينظر إليه على أنه وحيد من عذبوا به في التاريخ على حد حكاية القرآن المجيد، ولعل في الطغيان والبغي والفساد والتجرؤ على مقام الألوهية والعتو في معاني العبودية عوامل مجتمعة أن تكون موجبا متحدا لحلول مثل هذا النوع من العذاب.

ودلك على ذلك ما سقته آنفا، ودلك على خطورته أنه العذاب المنتظر لمن ابتلي أن يحل به في آخر الزمان، فليست إذن إلا لحكمة أن ينفرد به قوم على مدار التاريخ حالا بهم إلا أن يكون ذلك من جبروت تعدوا به حدود الأدب مع الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

ودلك على ذلك ما جاء من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قول رسول الله ﷺ (يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث)^(١).

لكنه وبنص الذكر الحكيم ليس ما يمنع من إنزال خسف على قوم قد مكروا السيئات، ومن حلوله بقوم قد كفروا بالله تعالى رب العرش والسموات، ومنه أيضا وجب حذر أيما هو أن يؤخذ على غرة أحدهم بخسف أو ما سواه.

قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥]. وقال تعالى أيضا ﴿ إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سبا: ٩].

تنويه ذو رشد

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢١٨٥

بيد أن فريقا رأيته يخلط بين خسف وبين زلزال. مع أن فارقا بينهما كبيرا، مما يجعل هذا شيئا وذاك شيئا آخر، وذلكم خلط ليس يغير من الحقيقة شيئا.

وعند النظر الأولي لمادة كل من (خسف) و (زلزل) ليجد امرؤ فارقا ليس بحاجة إلى جهد لبيذه ليعين تباينا واضحا بينهما.

مادة خسف:

خسفت الأرض: غارت بما عليها

خسفت به الأرض: اختفى بداخلها

خسف الله بهم الأرض: غيهم فيها، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١]

خسف القمر: ذهب ضوءه، احتجب ضوءه كله أو بعضه عندما تكون الأرض بينه وبين الشمس، أظلم^(١).

وقال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (وحدثنا قتيبة بن سعيد، عن مالك بن أنس، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، ح وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، واللفظ له، قال: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، فقام رسول الله ﷺ يصلي، فأطال القيام جدا، ثم ركع، فأطال الركوع جدا، ثم رفع رأسه، فأطال القيام جدا، وهو دون الركوع الأول، ثم ركع فأطال الركوع جدا، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام، فأطال القيام، وهو دون القيام الأول، ثم ركع، فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم رفع رأسه، فقام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم ركع، فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقد تجلت الشمس، فخطب الناس، فحمد الله وأثنى

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة خسف.

عليه، ثم قال: إن الشمس والقمر من آيات الله، وإنهما لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا، وادعوا الله وصلوا وتصدقوا، يا أمة محمد: إن من أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أمته^(١).

وخسفت عين الماء: غارت

وخسف عينه: فقأها، قلعها

وخسفت عينه: انقلعت

وخسف السقف: سقط

وخسف الشيء: انخرق

وخسف الشيء: خرقة

وخسف الضوء: نقص

وخسف بدنه: هزل

وخسف لونه: تغير

وخسف الرجل: جاع

وخسف الولد: أذله وحمله ما يكره

وخسف البئر: حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير لا يعرف انقطاعا

وخسفت الشيء: قطعه

وخسف للشعراء عين الشعر: ذلل لهم الطريق إليه^(١).

(١) صحيح مسلم: ٩٠١

مادة زلزل:

زلزل الشيء: هزه وحركه حركة شديدة "يزلزل إيمانه - {إن زلزلة الساعة شيء عظيم} - {إذا زلزلت الأرض زلزالها}

زلزل الشخص: أزعجه، خوفه وحذره: اضطربت اضطرابا شديدا

زلزل فلان الماء: شربه أو سلسله في حلقه.

وزلزل الشخص: أزعجه، خوفه وحذره "زلزله بصراخه - {ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا}"^(٢).

وواضح إذن ذلكم الفارق بين مادتي (خسف) و (زلزل) مما يمكن القول منه وبیسر يسیر أن فارقا بينهما كبير من حيث المعنى. خاصة وإذا انضاف إلى ذلكم أن الفعل خسف ثلاثي على وزن (فعل)، وأن الفعل (زلزل) رباعي وعلى وزن (فعلل). وعلى اختلاف بينهما من حيث المبنى، فليس هذا مضعفا من ذاك، وليس الآخر متصرفا من أخيه، مما قد أوحى بتميز كل منهما بمعناه، ومما قد أبان اتصاف كل منهما بمبناه.

ولما جاء ذكر كل منهما في القرآن الحكيم، ذكر منفصلا عن أخيه، وذكر مبينا لمعانيه، ليدل على اختصاص كل منهما بجرسه، وليوحي كل منهما بإيقاعه.

وقد مر بنا حديث كريم طاف بنا الكلام فيه حول بيان الخسف وأسبابه، وحول بيان الخسف ومن عذبوا به.

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة خسف.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة زلزل

فدل على أن الخسف له موضوعه، ودل على أن الزلزال له مضمونه، في مغايرة بينهما من حيث معنى، وفي ممازجة بينهما من حيث إن كلا منهما عذاب توجه إلى قوم شاردين، وعن منهج ربهم مباينين.

ولعل تطوفا آخر حول الزلزال وكنهه، وبيان وروده في الذكر الحكيم ووصفه، ليدو فارق بين خسف وبين زلزال، والله المستعان.

الزلزال:

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج: ٢-١].

وقال تعالى: ﴿إِذَا رَجَّصَ الْأَرْضُ رَجًّا ③ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ④ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ⑤ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑥﴾ [الواقعة: ٧-٤].

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة: ١-٨].

عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل حتى بلغ آخر الآيتين قال فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقوله فلما تأشبوها حوله قال أتدرون أي يوم ذاك قال ذاك يوم ينادى آدم فيناديه ربه تبارك وتعالى يا آدم ابعث بعثا إلى النار فيقول يا رب وما بعث النار قال من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين في النار وواحد في الجنة قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة فلما رأى ذلك قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس

محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني إبليس قال فأسري عنهم ثم قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة حدثنا روح حدثنا سعيد وهشام بن أبي عبد الله فذكر معناه إلا أنه قال فسري عن القوم وقال إلا كثرتاه. وفي رواية البخاري: تغيرت وجوههم ثم أخبرهم ﷺ أن يأجوج ومأجوج ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، وقال: أبشروا واعمَلوا وأمرهم بالعمل، بعمل الصالحات وإرضاء الله سبحانه وتعالى^(١).

الزلازل عذاب من الله:

وكان الزلازل ولا يزال من العذاب الذي يرسله الله على من يشاء من خلقه.

قال مجاهد رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال: الصيحة، والحجارة، والريح.

وقال الله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال مجاهد رحمه الله تعالى: "الرجفة والخسف، وهما عذاب أهل التكذيب" وعن مجاهد قال: "عذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة"^(٢).

فالله تعالى يرسل عذابه من كل صوب ومن كل حذب!

فيرسله تعالى من أعلى ومن أسفل، ومن فوق ومن تحت، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]. ولذلك جاء في دعاء رسول الله ﷺ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع

(١) مسند الإمام أحمد: ١٩٠٥٥

(٢) الأدب المفرد: ٩١٢

هؤلاء الدعوات حين يمسي، وحين يصبح :اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ،
اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عورتي
وأمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن
فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي^(١).

والشاهد من الحديث قوله ﷺ: وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي ؛ لأنه عذاب شديد،
ولأنه أخذ أليم.

وجعل من أشراط الساعة: كثرة الزلازل، لحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (لا
تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر
الهرج - وهو القتل القتل - حتى يكثر فيكم المال فيفيض^(٢)).

وانظر إلى حديث من طريق العرياض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ
قال (يا ابن حوالة! إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل،
والبلابل، والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من
رأسك)^(٣).

فكثرة الزلازل، ووقوعها، دلالة على قرب قيام الساعة، وهي من وجه رحمة من الله
تعالى يكفر بسببها أموراً كثيرة من الذنوب، والمعاصي، والآثام.

وهي من ذلكم وجه تكون رحمة من الله تعالى العلي الأكرم.

وأيده حديث رسول الله ﷺ (أمّتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة،
عذابها في الدنيا، الفتن، والزلازل، والقتل)^(٤).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٠٧٤

(٢) صحيح البخاري: ١٠٣٦

(٣) صحيح الجامع: ٧٨٣٨

(٤) صحيح أبي داود: ٤٢٧٨

الزلازل آيات يخوف الله تعالى بها عباده:

"والزلازل من الآيات التي يخوف الله بها عباده، كما يخوفهم بالكسوف، وغيره من الآيات"^(١). والحوادث لها أسباب، وحكم، فكونها آية يخوف الله بها عباده هي من حكمة ذلك^(٢).

وهي إذن آيات يخوف الله تعالى بها عباده، وكونها لها أسبابه على ما يبين من أقوال علماء علم الأرض، هذه الأسباب لا تنفي كون هذه الزلازل آيات يخوف الله بها عباده، مثل الكسوف له سبب، وله حكمة، السبب معروف من وقوع الكواكب الثلاثة: الأرض، والشمس، والقمر، في مسافات معينة، في ترتيب معين، فيكون من هذا كسوف، ويكون من ذاك خسوف، لكن الحكمة من كل منهما، أنه تعالى يخوف بها عباده.

ومنه فينبغي أن يفصل المسلم، بين سبب وحكمته، ولأن قوما إذا عرضوا قضية ما، ومنه مسألة الزلازل فإنما يعرضونها في لباس من علم، وإنما يدرسونها في غلاف من طبيعة، وبه يفصلون بين قدرته تعالى النافذة وبين ما يجري في كونه بعدا بلغ ما بين السماء والأرض، وكان منه كفرهم، وكان به خروجهم عن السواء وكانت به حيدتهم عن الصراط.

ونحن - معاصر المسلمين - إذا عرفنا ذلك أو سمعنا به فإن أول ما يدور بخلد عاقل منا أن فصلا بين سبب وحكمة، فإن السبب قد يعرفه أو يخطئه عبد من عبيده الله، وهو سبب دنيوي بحت، لكن الحكمة منه، أن الله تعالى يخوف بها عباده.

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ج ١٤/ ١١٧

(٢) المرجع السابق: ١٤/ ١١٧

والقوم كثيرا ما يخبى الله تعالى ظنهم، وغالبا ما يرجع عليهم تخمينهم، فهم يقولون كثيرا إن زلزالا سيقع، وبناء على مقدمات يرونها علمية، وتأسيسا على إرهابات يرونها طبيعية، لكنه في لحظة بصر لا نجد لذلك من أثر، ولكنه في حقيقة الأمر أن ما يحدث في كونه تعالى يجب أن يكون في عقد مسلم أنه بقدر منه تعالى، وإن قيل ألف حساب! فإنه والحال كذلك سيبقى علمه تعالى للغيب أثرا من آثار ربوبيته، ويبقى تدبيره للكون دالا على قيوميته. فتأمل!

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]. والمقصود هو تحقيق قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله تعالى أيضا ﴿ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦٠].

موقف الناس من حصول الزلازل:

وبعض الناس حينما تحصل الزلازل وإنما تراه فكأنما ولم يحدث في الكون من شيء. وهو دلالة على الغفلة، وحرمان اليقظة، وهو برهان خيبة، وانعدام توفيق من الله تعالى لذلك صنف من الناس.

أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات عن محمد بن عبد الملك بن مروان، « أن الأرض زلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضع يده عليها ثم قال: اسكني، فإنه لم يأن لك بعد، فسكنت، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إن ربكم يستعيبكم فأعتبوه، ثم زلزلت بالناس في زمن عمر بن الخطاب فقال: أيها الناس، ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدا.

وهذا إسناد ضعيف عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من طريق آخر بإسناد ضعيف مرسل.

ولذا قال الحافظ ابن عبد البر الأندلسي في الاستذكار والتمهيد: لم يأت عن النبي من وجه صحيح أن الزلزلة كانت في عصره ولا صحت عنه فيها سنة وقد كانت أول ما كانت في الإسلام على عهد عمر فأنكرها وقال: أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم.

وتتابع الابتلاءات و حلول النقم، ليس له من فائدة في مواجهة قلوب ميتة، وأفئدة مظلمة، وأنفس صلبة، لا يكاد عودها أن يلين فيخشع القلب تبعاً لها.

وصدق الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه غداً قال ﴿ وَخُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝ ﴾ ولذلك مهما حدث من الزلازل، والخسف، والآيات، فإن بعض القلوب القاسية لن تتحرك، ولن تلين، وستستمر في الكفر، والعجرفة مهما حصل لها،

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرْجِعُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [التوبة: ١٢٦]. وتأكيذا لما سبق فإنه تعالى يرسل آياته حينما يرسلها كيما تكون دافعا إلى تقوى، وكيما تكون حافزا إلى خوف منه سبحانه ورجاء معا. كما أنها تكون زادا إلى تقواه وإنما كان مؤملا أن تكون رصيذا في مراقبته مولاه.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝ ﴾ [طه: ١١٣].

ومن حكم آياته تعالى في كونه أن يلجأ الناس إليه سبحانه الله، وأن يتضرعوا إليه أثناء الليل وأطراف النهار.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَحْدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، يقول: « لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥] ، قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿ أَوْ يَلْسَكُ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال: «هاتان أهون، - أو أيسر»^(١). وقال الله تعالى: ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: ١٦].

قال ابن حجر: "وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها"^(٢).

المبحث السادس

الجوع والعطش وضيق الأرزاق

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]. وهو مثل عودنا الكتاب الحكيم على ضربه كيما يكون دالة اعتبار للعبد فيما يجريه الله تعالى في كونه. وهو مثل ينسحب ومن ثم على كل حالة ماثلت أو شابها ذلك المناط الذي نزلت فيه.

(١) صحيح البخاري: ٧١٣٣/١٣

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ٨٧/١٣

ومنه كان أهل مكة على طمأنينة في قريتهم. وكانوا في رغد من العيش في معيشتهم، وهامهم يتبدل حالهم إلى حال البؤس والشقاء والخيبة، ولما ان استبدلوا بالحق باطلا، ويوم أن لم يعرفوا نعمة الله تعالى عليهم، فيؤدون حقها في الشكر للمنعم، ولإفراده تعالى بالعبادة وحده ودون سواه.

وهو مثل أيضا ينسحب أثره على كل من رضي بمنهج غير منهجه تعالى مبتغيا فيه السعادة والأمن والسلام.

فالأمن كله في طاعته تعالى، والرغد كله في عبادته سبحانه وحده بلا شريك، كله الصلاح كله في العيش في ظل منهجه تعالى وبلا دخن من مناهج الناس الأرضية، لا في قليل ولا في كثير.

فإن منهج الله تعالى واحد لا يتجزأ. وأخذه كله واجب. وتركه كله أو جزؤه محرم. وإن ما يمج به العالم في دنيا الناس اليوم هو من مقتضى حيدة بعض الناس عن منهجه تعالى، وهو من موجب سخطه تعالى، ولما قد سار به هواه إلى حيث لا يوافق منهج الله تعالى خالقه ورازقه ومولاه.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبْلِهِمْ جَنْتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلِ حَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۖ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ۗ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

وهذا هو الشأن مع كل خارج، وهذا هو السبيل مع كل مدبر. فيبدل الله تعالى عليه أمنه إلى خوف، ويغير الله تعالى عليه سلمه إلى حرب، ويذيقه الله تعالى مرارة الخروج عن المنهج، ويجرعه ربه العزيز وبال أمره، يوم أن سعى في الأرض فسادا. فمرة ههنا مع المعسكر الرأسمالي، ومرة هناك مع المعسكر الاشتراكي، وأمامه الهدى، فلا يكاد ينظر نظرة تأمل، وفيه صلاحه، وفيه أمنه، وفيه رزقه، وفيه سعادته، وفيه رغبته، لكنها هكذا

الآعين وحينما تتنكب طريق الهدى، وهو بين يديها لتبحث لنفسها عن شقاء حثيثة إليه
مسرعة ناجزة.

ذلك لأن عجباً يأخذ بلب أحدنا ولما أن يرى فريقاً يجهد قواه في بحث عن أمن وعنده
أمن ربه، وإن أحدنا ليذهل ولما أن يرى فصيلاً يتعب نفسه باحثاً عن هدى ولديه هدى
ربه!

وقال الله تعالى: ﴿ * اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ [النور: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
النَّاسِ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١]. ولأن النقص في الثمار
والزروع بسبب المعاصي ليزيقهم بعض الذي عملوا^(١).

ولما يتلهم- الله تعالى- بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه على صنيعهم
{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي عن المعاصي^(٢).

قال (وجد في زمن زياد أو ابن زياد صرة فيها حب أمثال النوى عليه مكتوب: هذا نبت
في زمان كان يعمل فيه بالعدل)^(٣).

وانظر إلى عاقبة الفساد، وانظر إلى مآل الإفساد، حيث قال صلى الله عليه وسلم محذراً
من وقوع بعض هذا البلاء (يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ
بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط ؛ حتى يعلنوا بها ؛ إلا فشا فيهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣٢٧/٦

(٢) المرجع السابق: ٣٢٧/٦

(٣) مسند الإمام أحمد: ٧٩٤٩

الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم ينعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم^(١).

وكما أصاب أصحاب الجنة ليحرمهم ربهم رزقهم نظير صنهم به على عباد الله.

وهو حق للمساكين، ولا فضل لأحد في إعطائهم رزقهم، فإنما الفضل كله لله تعالى أن وهب ومنح وأعطى وأفاض وأجاد، وكان من حق ذلكم أن يعطوا عباده منشرحة له صدورهم، لأن ذلكم من معاني الشكر أن يعطي امرؤ طيبة بها نفسه راضية به أحاسيسه وقيمه وتصوراته، ذلك لأنه قد امتن عليه ربه ومولاه أن تكون يده هي اليد العليا، ويد غيره لتكون هي السفلى، ولما لم يرض أن رفعه ربه، ولما لم يشكر أن جعل غيره في درجة أقل من درجته، ولما لم يحسب لذلك قدره، فكان جزاؤه حرمانه، وكان عقابه بؤسه، وكان مآله بوارا، وكانت عقابه خسارا!

وإن يدا تنفق مما آتاها مولاهما وهي تعلم أنه عطاؤه وترد الأمر كله إليه إن هي إلا يد شاكرة وإن هي إلا يد حامدة كان حقا على الله تعالى أن يزيدها نعمة منه وفضلا وكان وعدا منه تعالى أن يريها تفضلا منه وكسبا. ذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٧].

وإن يدا لتعطي مما أعطاهما مولاهما فإنما هي في الحقيقة يد مهذبة! ذلك لأنها واسطة خير وسبب نماء وسبيل طهارة وذلك لأن المال هو في الحقيقة فإنما هو مال الله تعالى الذي قال الله تعالى فيه ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾ [الحديد: ٧].

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٧٩٧٨

فهي يد تعلم أنه مال الله، وهي يد توقن أنها مستخلفة على ما حباها ربها به من نعمه، وما تفضل عليها من جوده، ولذا فإنها تعطي ابتغاء مرضاته، ولذا فإنها تمنح رغبة الأجر والثواب من الله تعالى ربها الحليم الوهاب.

وهذه صورة تحكي لنا صورة هؤلاء نفر حادوا عن السواء، وهذه أقصوصة قوم تروي لنا أنموذجا مرا من نماذج الحانقين وذوي الشح والبخل والتعدي على ملكوته تعالى وسلطانه، ذلك لأنهم حرموا أن العطاء زكاء، وأن الزكاة نماء، وأن المنح رخاء، وأن الهبة سخاء، وأن الإغداق وفاء. وذلكم كله يوم أن تحسن نفس ثقتها بالله ويوم أن يحسن قلب يقينه بمولاه، وإن عطاء لا ينقص، بل يزيد، بل يزيد، بل يزيد!

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۖ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۚ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيرِ ۚ فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ۚ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ فَانْظَرُوا وَهُمْ يَخَفَتُونَ ۚ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ۚ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ۚ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ۚ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۚ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۚ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۚ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ۚ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۚ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۚ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾ [القلم: ١٧-٣٣]. وهي قصة أيضا تحكي لنا عقوقا من وارثين، وتقصص علينا حنقا من أبناء غير بررة لأبيهم، يوم أن حادوا عن منهجه، ويوم عن تنكبوا هداه، فإنه كان يعطي حق الله تعالى من هذه البساتين التي أينعها له مولاه، ومنه فكان يؤدي حق شكره على نعمه، ومنه كان يقوم بواجب زكاتها شكرا لما أسداه مولاه، ومن هباته ومنحه ونداه.

لكنه لما أن ترك دنياه، قامت ورثة نكداء، لا يرفعون حقاً لله تعالى خالق الأرض ورافع السماء، حتى منعوا زكاتهم، وحتى جحدوا حق ربهم، وحتى منعوا الفقراء المساكين من عادة خير كانوا قد تعودوها من أبيهم ذلكم العبد الصالح.

ولنعش الخطب مع الإمام الخبر الترجمان، وهو يحكي لنا قصتهم ولنسبح مع ابن عم رسول الله وهو يروي لنا روايتهم حيث يقول رضي الله تعالى عنه (كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تعداه المنجل فلم يجذه من الكرم، فإذا طرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم. فقالوا: قل المال وكثر العيال؛ فتحالفوا بينهم ليغدو غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين. وهو قوله: إذ أقسموا؛ أي حلفوا "ليصرمنها" ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة من الليل لئلا يتنبه المساكين لهم. والصرم القطع. يقال: صرم العذق عن النخلة. وأصرم النخل أي حان وقت صرامه. مثل أركب المهر وأحصد الزرع، أي حان ركوبه وحصاده.

ثم جاء الحق وزهق الباطل ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ١٩ فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيرِ ﴿ ٢٠ ﴾ [القلم: ١٩-٢٠].

فجاءوها ليلاً فرأوا الجنة مسودة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٨ / ٢٤٠

وأيا ما كان وصف الطائف وأيا ما كان نعتة فإنما هو طائف وحسبنا أن نقف مع النص، فإن غاية ما فيه هو العبرة والموعظة أن أخذت وأن قد (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيرِ). أي احترقت فصارت كالليل الأسود.

قال القرطبي رحمه الله تعالى (في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم)^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ يُظْلِمِ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝﴾ [الحج: ٢٥].

ومنه حديث الأحنف بن قيس، قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقيني أبو بكر فقال أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه)^(٢).

كذلك ذكر هذا العذاب في قصة المؤمن والكافر في سورة الكهف:

قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۚ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۝ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا عَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝﴾

(١) تفسير القرطبي: ١٥٧/٩

(٢) صحيح البخاري: ٣١

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي
لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٤﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٥﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٦﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤]. والمشهور أن هذين كانا رجلين
مصطحبين، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، ويقال: إنه كان لكل منهما مال، فأنفق
المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه، وأما الكافر فإنه اتخذ له بستانين، وهما
الجتان المذكورتان في الآية ولما اغتر هذا الجاهل بما خوله الله به في الدنيا، فجدد الآخرة
وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيرا مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال
له صاحبه وهو يحاوره أي ؛ يجادله ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ
رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧] ويذكر لنا القرآن أنه جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخرب
جنته. ومنه أصحاب الرس، كما قال تعالى: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ ﴿١٢﴾ [ق: ١٢].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أصحاب الرس هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء
فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا)^(١).

المبحث السابع

الخوف والفرقة وتسليط الأعداء والذل وكثرة القتل والحروب

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَسَعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وهو أمر من الله تعالى أن يرسل من يذيق يهود سوء العذاب بصنيعهم، وأن يحلل عليهم
نقمتهم تعالى لسوء فعلهم، والقول منه أن ذلك حاصل إلى يوم القيامة ليجب اطمئناننا

(١) تفسير القرطبي: ٣٢ / ٧

غاية معناه، ذلك لأنهم في عذاب إلى يوم القيامة، ومنه فلا يغرنك ما عليه ظاهر أمرهم من حادثة، ولا يغرنك ما فيه أمرهم من مظاهر خداعة، فإن أهل الحق لا ينطوي عليهم ذلك، لا في قليل ولا في كثير، لأنهم مطمئنون إلى وعيده تعالى لأولاء يهود أن يسومهم الله تعالى سوء العذاب، وإلى يوم القيامة.

ولذا فإن أهل الحق يفهمون الأمن على أنه الأمن النفسي الباعث على الاطمئنان في يوم المرء وغده ومستقبله وفي نفسه التي بين جنبيه، ومنه فإنهم ليسوا في معزل عن ضنك الحياة، وإنما يستعجلهم من بعده درك الشقاء بعد الممات، ليجمعوا بين حسرتي الألم والشتات جزاء كفرهم وتعاليلهم وعتوهم وبغيهم، وذلك جانب أهميته عظيمة.

وإذا انضاف إلى ذلك ما نراه من عتادهم ومن إعدادهم وتخزينهم، فإنما هو دليل انعدام أمن يشهدون به على أنفسهم، وهم في الواقع ليسوا بمعزل عن نص القرآن المجيد أنهم في ضنك وعذاب وتشريد وإلى يوم القيامة! فإن ذلكم كان من موجهه ألا يناموا مطمئنين، وإن ذلكم كان من سببه ألا يقعدوا آمنين. وهو عيش نكد بكل ما تحمله كلمة النكد من معاني الذل والخيبة والخسران والنكال والانهازم.

وبقي على أهل الحق إذن أن يطمئنوا لذلك وعد منه تعالى، وبقي عليهم ألا يقعدوا في بيوتهم منتظرين فرج الله تعالى متواكلين على ذلكم، وهو ليس من السبب، وإنما عليهم أن يقوموا ويسعوا نشطين، وحينها سيجدون أن عونته تعالى سابقهم لإبادة يهود واقتلاع جذورهم من أساس، ولا يخيفنهم من كان معهم على الباطل لأن الباطل كله زبد ورغاء!

ذلك لأنني على ثقة من وعده، وذلك لأنني على يقين من وعيده، لأن ذلكم الوعيد الذي أراه، وقد تأكد واقعا لا محالة على القوم.

ودلك على صدق قولي ما قال الله سبحانه عنه، وما أكده سبحانه بلام القسم في قوله تعالى (يَبْعَثَنَّ)، وما سبقه من حرف الذال المضعف من قوله سبحانه (تَأْذَنَ) ليوجب شديد الأخذ وليطمئن مؤمن إلى ذلكم وعيد منه تعالى، فيشحذ همته، ويضاعف همته.

علاوة على أنه قول فصل ليس بحاجة إلى قسم ابتداء، ولكنه أمره تعالى، ولكنها سنته أن يجري قسما منه تعالى تأكيداً لنا نحن معاشر البشر المساكين، وهو أمر كذلكم يشحذ الهمم الخلاقة، والقمم المبدعة، نحو جهاد القوم واقتلاعهم، لأنه قد سبق من الله تعالى تأكيد لهذه الحقيقة، حتى وقد أصبحت عين اليقين في عقد أهل الحق من المسلمين، وما يزيد الطمأنينة أكثر في القلوب أن ذلكم العذاب الماحق بهم إنما يلاحقهم وإلى يوم القيامة.

وهب لي بالله عليك نفساً يطالها غمض من نوم، أو طرف من نعاس، وهي إذ تراها متقلبة بين هاجس الخوف وآلام التهديد ليلها ونهارها!

وقد صدق الله فكانوا أذل الأمم وأرذلها، وما نراه اليوم من عز وسؤدد فإنما هو من مثل ما أخبرنا ربنا الرحمن سبحانه عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩﴾ [النور: ٣٩].

وإنما هو كذلكم بسبب تخاذل المسلمين عن قتالهم، ومصانعة النصارى لهم بزعم باطل وقول متهافت كذاب أنهم الشعب المبارك، وذلك هو مقتضى قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَلُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: ١١٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقد سبق سوق حديثه صلى الله عليه وسلم محذرا (يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط؛ حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)^(١).

المبحث الثامن

المسخ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم -يوم الجمعة- . فخالفوا إلى السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت، ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها " مدين ". فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم، حتى

(١) سبق تخريجه

إذا ذهب السبت ذهبن , فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا . حتى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شرعا , حتى إذا ذهب السبت ذهبن . فكانوا كذلك , حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان , عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت , فخرمه بخيط , ثم أرسله في الماء , وأوتد له وتدا في الساحل فأوثقه , ثم تركه . حتى إذا كان الغد , جاء فأخذه - أي : إني لم أخذه في يوم السبت - ثم انطلق به فأكله . حتى إذا كان يوم السبت الآخر , عاد لمثل ذلك , ووجد الناس ريح الحيتان , فقال أهل القرية : والله لقد وجدنا ريح الحيتان ! ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل . قال : ففعلوا كما فعل , وأكلوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم بعقوبة , حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق . وقالت طائفة منهم من أهل البقية : ويحكم ! اتقوا الله ! ونهوه عما كانوا يصنعون . وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان , ولم تنه القوم عما صنعوا : ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤] . قال ابن عباس : فبينما هم على ذلك , أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم , وفقدوا الناس فلا يرونهم . فقال بعضهم لبعض : إن للناس لشأنا ! فانظروا ما هو ! فذهبوا ينظرون في دورهم , فوجدوها مغلقة عليهم , قد دخلوا ليلا فغلقوها على أنفسهم , كما يغلق الناس على أنفسهم , فأصبحوا فيها قردة , وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد , والمرأة بعينها وإنها لقردة , والصبي بعينه وإنه لقرد . قال : يقول ابن عباس : فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن سوء , لقلنا أهلك الجميع منهم . قالوا : وهي القرية التي قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] ^(١) .

ولست بواجد قولاً بعد قول الإمام الخبر الترجمان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في بيان خسيصة يهود , وفي ذكر سيرتهم كذلكم ذكرنا ينم عن نفوس نكدة , ويخفي وراءه

(١) تفسير الطبري :

قلوبا هي أشد نكدا حين تتعرض لابتلاء من أمره تعالى لتراها محتالة عصية على الطاعة، ولتجدها ناصبة لواء الخروج عن المنهج عاقدة عزمها عليه، وملتفة حول نصوصه وبنوده، وبما قد أخبرنا به الذكر الحكيم من قول رب العالمين عن كونهم قد ﴿عَتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وعلى ما سبق بيانه عن الإمام الخبر الترجمان.

وهي نفوس ولاشك يسارع عاقل ألا ينحو نحوها، ويسابق حصيف ألا يسلك سبيلها، ذلك لأنها نفوس مشمئزة في فعلها، كما قد أنبأ عن ذلكم قولها وكما قد أبانه عن ذلكم عملها والله المستعان.

ومسخ هو تغير في الصورة. يقال: مسخه الله: أي حول صورته إلى أخرى أقبح منها؛ شوه صورته، أفقده طبيعته الخاصة^(١).

وهي صورة تشير إلى عظيم العذاب وهو انتقام لما يؤول إليه أمر المحتالين على أوامر الله تعالى. وكأنني بهم وقد احتالوا فغيروا صورة إنفاذهم لأمره تعالى. ومنه فكان مسخهم وتحويلهم إلى صورة أخرى تنفر منها النفوس جزاء وفاقا، والجزاء من جنس العمل، والله المستعان.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وليس شر من أولئك نفر، وليس سيء أكثر سوءا من أولاء قوم قد خرجوا على منهج الله تعالى، ليكون من نصيبهم ذلكم الجزاء العظيم، وليكون من جزائهم ذلكم اللعن، وليكون من حظهم ذلكم الغضب، وليكون من عقابهم ذلكم المسخ، ليصبحوا به فريقا قردة وفريقا آخر خنازير.

وما أبشعها صورة!

(١) المعاني الجامع

ولعاقل أن يتمثلها صورة أمام عينيه، ثم ليكون أمره منها كيف نفرته، ثم ليكون أمره منها كيف تكون مشاعره وأحاسيسه، وهو أمام ذلكم مشهد مهول، إذ كيف كانت صورته إنسانا، قد ركبه ربه أحسن تركيب، وإذ قد عدله خالقه أحسن تعديل، وإذ به وقد مسخ قردا يدب، معروفة صورته، مركوزة في العقول طلعت، أو خنزيرا يأكل القاذورات، تهرب من منظره نفوس زكية، وتفر من هوله أعين مبصرة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

وليس يكون ذلكم في يهود وحسب. فإن كل من اتصف بوصفهم، أو نعت بنعتهم، على ما سبق بيانه من خروج، وعلى ما أنف ذكره من احتيال، وعلى ما سلف شرحه من التفاف، فإنما هو في طائلة ذلكم العذاب، وإنما هو في حظيرة ذلكم النكال، ومنه ليحذر عاقل أن ينحو نحوهم، أو أن يكون مثلهم.

فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذا العذاب يكون في هذه الأمة، ووصف ذنب أولئك الممسوخين والذي بسببه يمسخهم الله.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث)^(١).

وقد جاء الخبر أن الزنادقة والقدرية يقع عليهم المسخ والقذف.

فعن عمران بن الحصين قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الخمر^(٢).

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢١٨٥

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٣٦٦٥

وكل ذلكم من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم -، وكل ذلكم من دلائل رسالته - صلى الله عليه وسلم -، فقد وقع في الأمة منه الكثير، والله تعالى هو المسؤول سبحانه أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وذكر الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى أن المسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولا بد، وهو في طائفتين:

١- علماء السوء الكاذبين على الله - جل وعلا - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - الذين قبلوا دين الله وشرعه فقلب الله تبارك وتعالى صورهم كما قبلوا دينه.

٢- المجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم، من المغنين والمفتونين بهم وشربة الخمر والزناة.

وقال رحمه الله تعالى أيضا (وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة - قال شيخنا - يعني ابن تيمية - وإنما ذلك إذا استحلوا هذه المحرمات بالتأويلات الفاسدة فإنهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم حرمها - كانوا كفارا، ولم يكونوا من أمته، ولو كانوا معترفين أنها حرام لأوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ كسائر الذين يفعلون هذه المعاصي، مع اعترافهم بأنها معصية ولما قيل فيهم

"يستحلون" فإن المستحل للشيء هو الذي يفعله معتقدا حله. فيشبه أن يكون استحلالهم للخمر يعني يسمونها بغير اسمها كما جاء في الحديث فيشربون الأنبذة المحرمة ولا يسمونها خمر. واستحلالهم المعازف باعتقادهم أن آلات اللهو مجرد سماع صوت فيه لذة وهذا لا يحرم عندهم تأولا كأصوات الطيور.. وهذه التأويلات ونحوها

واقعة في الطوائف الثلاثة الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها^(١).

هل المسخ الذي وقع على بني اسرائيل مسخ على الحقيقة أم على المجاز؟

قال الإمام مجاهد رحمه الله تعالى (مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلَ الْجَمَارِ بِمِثْلِ أَشْقَارِ﴾ [الجمعة: ٥] ^(٢)).

وعلق عليه الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى فقال (وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ..﴾ [المائدة: ٦٠].

ونصر هذا الاتجاه الشيخ محمد رشيد رضا، حيث قال رحمه الله تعالى (ولا عبرة برد ابن جرير قول مجاهد هذا، وترجيحه القول الآخر فذلك اجتهاده، وكثيرا ما يرد به قول ابن عباس والجمهور. وليس قول مجاهد بالبعيد من استعمال اللغة؛ فمن فصيح اللغة أن تقول: ربي فلان الملك قومه أو جيشه على الشجاعة والغزو، فجعل منهم الأسود الضواري، وكان له منهم الذئاب المفترسة)^(٣).

وقول ابن جرير هذا الذي نعى عليه صاحب المنار، هو ما اتفق وقول جمهرة المفسرين على أن المسخ حقيقة. وسيأتي قريبا إن شاء الله تعالى.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، قال: ثنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على

(١) إغائة اللفهان، ابن قيم الجوزية: ١ / ٣٤٤ - ٣٤٦

(٢) تفسير المراغي: ج ٢ / ٤٦٢

(٣) تفسير المنار عند الآية ٦٠ من سورة المائدة

بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم يوم الجمعة , فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به , فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه , فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها " مدين " , فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها , وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم , حتى إذا ذهب السبت ذهبن , فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا. حتى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شرعا , حتى إذا ذهب السبت ذهبن. فكانوا كذلك , حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان , عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت فخزمه بخيط , ثم أرسله في الماء , وأوتد له وتدا في الساحل , فأوثقه ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه ؛ أي إني لم أخذه في يوم السبت , ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك. ووجد الناس ريح الحيتان. فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان. ثم عثروا على ما صنع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل , وأكلوا سرا زمنا طويلا لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق ,

وقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم اتقوا الله! ونهوه عما كانوا يصنعون. وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لَمْ يَعْطُوا قَوْلًا لِلَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] لسخطنا أفعالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] (١).

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم , وفقدوا الناس فلا يرونهم , فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأنا فانظروا ما هو! فذهبوا ينظرون في دورهم , فوجدوها مغلقة عليهم , قد دخلوا ليلا فغلقوها على أنفسهم كما تغلق الناس على أنفسهم , فأصبحوا فيها قردة , إنهم ليعرفون الرجل بعينه

(١) تفسير الطبري: ٩٥١

وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة ، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء لقلنا أهلك الجميع منهم. قالوا: وهي القرية التي قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] ^(١).

حدثنا بشر ، قال: ثنا يزيد بن زريع ، قال: ثنا سعيد ، عن قتادة قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوفُوا قِرْدَةً خَاسِيْنَ ﴾ [البقرة: ٦٥] أحلت لهم الحيتان وحرمت عليهم يوم السبت بلاء من الله ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. فصار القوم ثلاثة أصناف: فإما صنف فأمسك ونهى عن المعصية ، وإما صنف فأمسك عن حرمة الله. وإما صنف فانتهك حرمة الله ومرد على المعصية ، فلما أبوا إلا الاعتداء إلى ما نهوا عنه ، قال الله لهم: { كُوفُوا قِرْدَةً خَاسِيْنَ } فصاروا قردة لها أذنان ، تعاوي بعد ما كانوا رجالا ونساء ^(٢).

حدثنا الحسن بن يحيى ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال: أنا معمر ، عن قتادة في قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ قال: نهوا عن صيد الحيتان يوم السبت ، فكانت تشرع إليهم يوم السبت ، وبلوا بذلك فاعتدوا فاصطادوها ، فجعلهم الله قردة خاسئين ^(٣).

قال شيبان النحوي، عن قتادة: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوفُوا قِرْدَةً خَاسِيْنَ ﴾ [البقرة: ٦٥] فصار القوم قرودا تعاوي لها أذنان بعد ما كانوا رجالا ونساء ^(٤).

(١) المرجع السابق: ٩٥١

(٢) المرجع السابق: ٩٥٢

(٣) تفسير الطبري: ٩٥٣

(٤) تفسير ابن كثير عند الآية (٦٥) من سورة البقرة

عن السدي: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] قال: فهم أهل أيلة , وهي القرية التي كانت حاضرة البحر. فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت - وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً - لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرج خراطيمهن من الماء , فإذا كان يوم الأحد لزم من سفلى البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت. فذلك قوله: ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

فاشتهى بعضهم السمك , فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً إلى البحر , فإذا كان يوم السبت فتح النهر , فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة , ويريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر , فيمكث , فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه. فجعل الرجل يشوي السمك , فيجد جاره ريجاه , فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره. حتى إذا فشا فيهم أكل السمك قال لهم علماءهم: ويحكم إنما تصطادون السمك يوم السبت , وهو لا يحل لكم! فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه , فقال الفقهاء: لا , ولكنكم صدتموه يوم فتحت له الماء فدخل ; فقالوا: لا. وعتوا أن ينتهوا , فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤]

يقول: لم تعظونهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿ مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة! فقسموا القرية بجدار , ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً , ولعنهم داود. فحمل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم ; فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم , فلما أبطئوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط , فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض , ففتحوا

عنهم فذهبوا في الأرض. فذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

فذلك حين يقول: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة^(١).

قال ابن جرير (وهذا القول الذي قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه الكتاب مخالف له، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت)^(٢).

وتبعه على ذلك الإمام الألوسي حيث قال (وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة وعلى ذلك جمهور المفسرين)^(٣).

وهذه نقول كثير أوردتها بيانا لقول جمهرة المفسرين وانتصارا، أن المسخ حقيقة.

والقول بغيره يفرغ النص من عظته، ويحول النظم عن اعتباره، ويصرفه عن حقيقته، فنكون أمام مجازات، ونكون أمام خيالات يروح كل فيها كل مذهب.

المبحث التاسع

الأمراض والبلايا والطواعين

ومنه حديث البخاري رحمه الله تعالى قال (حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، قال: حدثني مالك، عن محمد بن المنكدر، وعن أبي النضر، مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد، ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير الطبري: ٩٥٤.

(٢) تفسير الطبري: ج ٢ / ١٧٣.

(٣) روح المعاني: ١ / ٢٨٣.

وسلم: الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا، فرارا منه قال أبو النضر: لا يخرجكم إلا فرارا منه^(١).

والشاهد أن الطاعون أرسله الله تعالى على سائر من يخرج عن سبيله، ويقصم الله تعالى به ظهر من تنكب هداه. وذلك بدلالة قوله صلى الله عليه وسلم (الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض) لأن الخبر شمل بني اسرائيل ومن كان قبله وفيه إشارة إلى المخاطبين من أمته صلى الله عليه وسلم.

وتلك عظة وعبرة وتلك آية يجب التفطن لها وأخذها بعين الاعتبار، ذلك لأنه يمكن أن يتبعها ما شاء الله تعالى له أن يكون تابعا من أخذ واستصال وتدمير، بل إن ما يوهن منها أقرب للاعتبار وأدنى للاتعاظ.

فإني أكتب كلامي هذا إبان إصابة العالم كله في بدايات العام ٢٠٢٠ ميلادية بفيروس اصطلاح على تسميته (كوفيد-١٩) وينال العالم منه وبال منتشر، وشر مستطير، فدل على أن تبعات الطاعون وما يستتبعه من خسائر كان أدعى لمراجعة كل حسب مكانه، لعله أن يتقي، ولعله أن يؤب قبل الإهلاك العام والأخذ الشامل، والله المستعان. وقد توعده الله تعالى بذلكم العصاة من الأمم، وهذا حق.

وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما (يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط ؛ حتى يعلنوا بها ؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة

(١) صحيح البخاري: (٣٣١٤)

المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم ينعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم^(١).

وصدق الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَّالٍ﴾ [الرعد: ١١].

قال القرطبي (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال - صلى الله عليه وسلم - : وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث. والله أعلم^(٢).

ومن عجب أن نفرا لم ينعوا، ومن نكد أن قوما لم يعتبروا). ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ومن خيبة أنك تجدهم يقفون على سبب مادي بحت لذلك الداء أو غيره، ولا يكادون ينظرون إلى كونه ربما كان نذير هلاك، ولربما كان سبب تدمير. ذلك لأن قوما قد شردوا، وذلك لأن الأغلبية قد انحرفت، وكانت إذن بحاجة إلى ابتلاء من مثل هذا لعله أن يوقظ ما تبقى من ضمير، وعساه أن يحرك ما بقي من ساكن، والله المستعان .

(١) صحيح الجامع: ٧٩٧٨

(٢) تفسير القرطبي ١٩٣/٥

وإنك لتعجب أيما عجب أن يوجد في الأمة من أمثال الحجارة قلوبهم، ومن أمثال
الصخور عقولهم.

ففي أوج هذه الأزمة، وإبان عنفوان تلکم الجائحة، جاءني أحدهم يسأل هذا السؤال:
رجل لا يصلي ولا يصوم فهل عليه زكاة الفطر!

الفصل التاسع

أسباب الصلاح وموجبات الفلاح

وإنه لمن حسن الطالع أن نبدأ قولنا ههنا من منطوق قول الله تعالى ربنا الرحمن ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

فبان أن الله تعالى منزّه أن يهلك أحداً إلا بذنب، وتؤكد أنه تعالى لا ينجي إلا بصدق توحيد ويقين فيه مناف لشك، قائم على محبة منافية لبغض، وانقياد مناف لترك، وعلم مناف لجهل، وقبول مناف لرد، وإخلاص مناف لشرك، وعمل مناف لترك، وبصحيح عقيدة في الله سبحانه، كونه الأحد الفر الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ومنه يتأكد أن الصلاح عموماً هو سبب الفلاح العظيم، ومنه يتبين أن التوحيد هو قوام الخير وسببه وأصله وفرعه!

وأجول جولات عديدة في بيان أسباب نجاة الأفراد والأمم والجماعات بشيء من تفصيل غير ممل، وبقدر من إيجاز غير مخل بإذن الله تعالى.

والتزم في ذلك بنص القرآن المجيد، وبصحيح حديث سيد المرسلين، لأن ذلكم هو من صدق دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن المجيد، فينحنا نحوه، ويقتفى أثره.

وسوف يكون ذلك من خلال عرض بإيجاز في عشرة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول

الإيمان بالله تعالى

وعندما يذكر اسم الايمان بالله تعالى ههنا فإنما كان المقصود منه التوحيد، وبالأخص منه توحيد الألوهية، ذلك لأنه القاسم الأوحد الذي يمكن أن تبنى عليه عقيدة صحيحة، وذلك لأنه العماد الذي يمكن أن يقام عليه بناء.

وذلك أيضا لأن الناس ربما كان القاسم المشترك بينهم في توحيد الربوبية قائما، وتكاد تتفق عليه الأمم والجماعات، إلا فيما ندر من منكري الرب الإله الأعظم سبحانه.

وإنما كان الفصل في توحيد الألوهية، وإن مدار السعادة والشقاء إنما كان عليه، ذلك لأنه الله تعالى قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وهي آية عظيمة - عظم القرآن كله -، وهي آية محكمة، نزلت في أهل الشرك إذا ماتوا على الشرك، فإن من مات مشركا فالله تعالى لا يغفر له، ولهذا قال سبحانه في هذه الآية في موضعين من سورة النساء (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ). يعني لا يغفر له ذنوبه بل يدخله بها النار، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وهو مخلد في النار أبدا، والجنة عليه حرام، ذلك لأنه تعالى قال ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

والله تعالى يغفر ما دون شرك به تعالى لأن ذلكم من مقتضى رحمته ولطفه، ولأن ذلكم من موجبات عفوه ومنه وكرمه سبحانه. ولد فإنه تعالى قال (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). يعني ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي كالزنا، والعقوق، والخمر ونحو ذلك فإنها

تكون تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء الله غفر لصاحبه يوم القيامة بأعماله الصالحة الأخرى، وبجسنته الأخرى، فضلا من الله وجودا وكرما.

ولهذا جاء في الحديث أنه ﷺ قال من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)^(١).

ومن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨]. وقوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ٥٠ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ٥١﴾ [النساء: ١١٦]. فإن المشرك قد جمع بين موجبي الهلاك، من كونه ضالا ضلالا بعيدا، ومن كونه قد افترى على الله إثما عظيما حين ظن أن الله يجيز شركا به ويرضاه، فعبد الأنداد والأصنام من دون الله، يظن أن هذا مرض لله، وهو زعم بالغ في البطلان، وصاحبه قد افترى على الله إثما عظيما بهذا الظن السيئ. فإنه تعالى قال ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٢﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ومن شرك مشرك أنه شرع شرعا غير شرعه تعالى أو بدله أو غيره. ذلك لأنه تعالى قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٣﴾ [الشورى: ٢١].

ومن شرك مشرك أنه حكم بغير ما أنزل الله تعالى، ذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٥٤﴾ [المائدة: ٤٤].

وتحقق الإيمان باطنا كيما لا يكون في عداد المنافقين، كما أن تحققه ظاهرا لأنها شارة أهل الصف، ولأنها علامة أهل القبلة. وذلك لحديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى حيث قال (حدثنا عمرو بن عباس، قال: حدثنا ابن المهدي، قال: حدثنا منصور بن

(١) صحيح البخاري: ٦٧٨٢

سعد، عن ميمون بن سياه، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته^(١).

وثمره توحيد هي الجنان، ونتاجه نصر الرحمن، وغراسه رضا المنان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝﴾ [غافر: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الروم: ٤٧].

استراحة!

القول المبين في بيان حقيقة دين المرسلين

وقول فصل ههنا:

إذ يجب تحقيق الشهادتين في الواقع بشروطهما المعروفة سلفا، وإذ يجب أن ينضاف إلى ذلكم انتفاء موانع التوحيد كلها، كيما يكون العبد موحدا بصدق وكيما يكون المرء حنيفيا بإخلاص.

والقول بغير ذلكم لا ينهض أن يقيم مجتمعا عدلا موحدا، يرقى إلى السمو، ويسعد بالإيمان الذي جاءت به أنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٥]. قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى: «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، كلاهما عن إسماعيل بن إبراهيم، قال أبو بكر: حدثنا ابن علية، عن خالد، قال: حدثني الوليد بن مسلم، عن همران، عن عثمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري: ٣٨٧

وسلم: من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا خالد الحذاء، عن الوليد أبي بشر، قال: سمعت حمران، يقول: سمعت عثمان، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: مثله سواء»^(١).

الأصول الثلاثة التي يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمها هي^(٢):

معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمدا صلى الله عليه وسلم.

معرفة العبد ربه: الله الذي ربانا ورب جميع العالمين بنعمته وهو: معبودنا. ليس لنا معبود سواه.

معرفة العبد دينه: والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

معرفة العبد نبيه: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وأصل الدين وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والحرص على ذلك والمولاة فيه وتكفير من تركه.

الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه.

(١) صحيح مسلم: ٦٧

(٢) مستفاد من رسالة الأصول الثلاثة، للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

شروط لا إله إلا الله:

١ - العلم: بمعناها نفياً وإثباتاً: بحيث يعلم القلب ما ينطق به اللسان. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله سبحانه ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١). ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، والعبادة: هي كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

٢ - اليقين: هو كمال العلم بها المنافي للشك والريب. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وعن أبي هريرة، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير، قال: فنفتد أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببرة، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال حتى ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال

(١) سبق تخريجه

عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة^(١).

وعن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افعلوا، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة^(٢).

وعن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي، عن عمير بن هانئ، في هذا الإسناد بمثله، غير أنه قال: أدخله الله الجنة على ما كان من عمل، ولم يذكر من أي أبواب الجنة الثمانية شاء^(٣).

(١) صحيح مسلم: ٦٨

(٢) صحيح مسلم: ٦٩

(٣) صحيح مسلم: ٧٠

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال: دخلت عليه وهو في الموت، فبكيت، فقال: مهلا، لم تبكي؟ فوالله لئن استشهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك، ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير إلا حدثكموه، إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم، وقد احيط بنفسي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، حرم الله عليه النار^(١).

وعن معاذ بن جبل، قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله، وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله، وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم^(٢).

وعن معاذ بن جبل، قال: كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار، يقال له: عفير، قال: فقال: يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا، قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس، قال: لا تبشرهم فيتكلوا^(٣).

(١) صحيح مسلم: ٧١

(٢) صحيح مسلم: ٧٢

(٣) صحيح مسلم: ٧٣

وعن عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبد الله ولا يشرك به شيء، قال: أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم حدثنا القاسم بن زكرياء، حدثنا حسين، عن زائدة، عن أبي حصين، عن الأسود بن هلال، قال: سمعت معاذاً، يقول: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجبتة، فقال: هل تدري ما حق الله على الناس؟ نحو حديثهم^(١).

وعن أبي هريرة، قال: كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، معنا أبو بكر، وعمر في نفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت حائطاً للأَنْصار لبني النجار، فدرت به هل أجد له باباً؟ فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة - والربيع الجدول - فاحتفزت، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبو هريرة فقلت: نعم يا رسول الله، قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا، فقامت فأبطأت علينا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: يا أبا هريرة وأعطاني نعليه، قال: اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، بشرته بالجنة، فضرب عمر بيده بين ثديي فخررت لاستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهشت بكاءً، وركبني عمر، فإذا هو على أثري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لك يا أبا هريرة؟ قلت: لقيت عمر، فأخبرته بالذي بعثني به، فضرب بين ثديي ضربة خررت لاستي،

(١) صحيح مسلم: ٧٤

قال: ارجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله، بأبي أنت، وأمي، أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: نعم، قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فخلهم^(١).

٣- لإخلاص المنافي للشرك: قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ [البينة: ٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصا من قبل نفسه^(٢).

٤- المحبة: لهذه الكلمة ولما دلت عليه، والسرور بذلك. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُجْبُوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝﴾ [البقرة: ١٦٥].

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار^(٣).

(١) صحيح مسلم ٧٥

(٢) صحيح البخاري: ٦٢٢٩

(٣) صحيح مسلم: ٨٩

٥ - الصدق: المنافي للكذب المانع من النفاق.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه (أبشروا وبشروا الناس؛ من قال: لا إله إلا الله، صادقاً بها دخل الجنة، فخرجوا يبشرون الناس، فلقيهم عمر رضي الله عنه فبشروه، فردهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ردكم؟ قالوا: عمر، قال: لم رددتهم يا عمر؟ قال: إذن يتكل الناس يا رسول الله) (١).

٦ - الانقياد لحقوقها: وهي الأعمال الواجبة إخلاصاً لله وطلباً لمرضاته.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

٧ - القبول: المنافي للرد. فقد يقوّلها من يعرفها لكن لا يقبلها ممن دعاه إليها تعصبا أو

تكبرا. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصفّات: ٣٥].

(١) تخريج المسند، شعيب الأرنؤوط: ١٩٦٨٩

نواقض الإسلام

نواقض الإسلام عشرة:

الأول: الشرك في عبادة الله تعالى: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] ، ومنه الذبح لغير الله.. كمن يذبح للجن أو القبر.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم.

الثالث: من لم يكفر المشركين أو يشك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر.

الرابع: من اعتقد أن غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه، فهو كافر.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو عمل به كفر.

السادس: من استهزأ بشيء من الدين أو بثوابه أو بعقابه، كفر. قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

السابع: السحر: فمن فعله أو رضي به. كفر. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كافر.

العاشر: الإعراض عن دين الله. لا يتعلمه ولا يعمل به. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف. إلا المكره.

المبحث الثاني

الصبر

وهو الصبر على الطاعات بإتيانها، وهو الصبر على المعاصي باجتنابها، وهو الصبر على أقدره تعالى إيماناً ورضاً بها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه، صبر على أداء الفرائض، وصبر عن محارم الله، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى.

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وإن كان نصر مع الصبر فإن حرماناً مع المعصية.

ودلك على صدق ما أقول كيف تحول حال المؤمنين يوم أحد وفيهم رسول الله ﷺ،
على حد وصف القرآن الكريم لذلكم وضع كيما يكون عالقا بالأذهان أبدا. ذلك لأن
سننه تعالى لا تعرف المحابة ولا يدركها الإفلات.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا
فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ومنه ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى حيث قال (حدثنا عبيد الله بن موسى،
عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه، قال: لقينا المشركين يومئذ،
وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله، وقال: لا
تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا
فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، قد بدت
خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي صلى الله
عليه وسلم أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلا،
وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تحييه فقال: أفي القوم ابن أبي
قحافة؟ قال: لا تحييه فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا
أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما
يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجيئوه قالوا: ما
نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال
النبي صلى الله عليه وسلم: أجيئوه قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا الله مولانا، ولا مولى

لكم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله، لم آمر بها ولم تسؤني^(١).

فدل على أن صبرا عن معصية أمر رسول الله ﷺ مؤذن بثواب، وإن طاعته سبيل رفع العذاب، ودل على أن جنس معصيته تعالى موجب لدفع نصره، كما أنه سبب لحلول نقمه، والله المستعان.

وإن لم تكن من مندوحته إلا أجرا بغير حساب لكفى!

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ﴾ [الزمر: ١٠]. وقال سبحانه ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

(روى شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما ما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلي من يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكن أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون اهـ

قال العراقي: وروى ابن عبد البر في كتاب العلم من حديث معاذ رفعه^(١).

(١) صحيح البخاري: ٣٨٤٧

وإن من أشرف مراتبه، حبس نفس عن أغراضها، من إضرار مخلوق، وهضم قدره،
ونيل من حقه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [هود: ٨٥].

وصبر على إعطاء أهل الحقوق حقوقهم، دقت أو جلت الحقوق، قرب أو بعد أهل
الحقوق!

ومن صبر أن تحتل أذى من غير، وهو مقام من مقامات أولى النهى، وهو وصف لمن
تسامت بهم الأخلاق، وهو نعت لمن تسامقت بهم القيم والمروءات.

وكان من شأن الصابرين أن مدحوا، وكان من وصفهم أن قد أثنى عليهم ربهم الرحمن
سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْنُونَا وَعَلَىٰ
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [إبراهيم: ١٢].

وصبر على غنى وعافية، فلا يستعان بهما أحدهما أو كلاهما على ارتكاب إثم، أو
مقارفة ذنب.

قال أحدهم: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، والصبر على الغنى أشد
من الصبر على الفقر^(١).

عن عبد الرحمن بن عوف قال ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء
فصبرنا، ثم ابتلينا بعده بالسراء فلم نصبر^(٢).

(١) كتاب تخریج أحادیث إحياء علوم الدين، العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ)، ابن السبكي (٧٢٧ - ٧٧١ هـ)، الزبيدي (١١٤٥ -
١٢٠٥ هـ): [٢١١].

(٢) الصبر في القرآن، يوسف القرضاوي: ٣٤

وكان من أمرهم أن عظموا شأن الاختبار بالسراء على الاختبار بالضراء.

قال الله تعالى ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (الصبر في ثلاث، الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله خيرته وشره)^(١).

روى صهيب بن سنان الرومي رضي الله تعالى عنه (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له)^(٢).

قال الإمام أبو داود رحمه الله تعالى (حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور، عن عمه، قال: حدثني عمي، عن عامر الرام أخى الخضر، قال أبو داود، قال النفيلي: هو الخضر، ولكن كذا قال، قال: إني لبلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته، وهو تحت شجرة قد بسط له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسقام، فقال: " إن المؤمن إذا أصابه السقم، ثم أعفاه الله منه، كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير، عقله أهله، ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه، فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضت قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنا، فلست منا، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء

(١) سنن الترمذي: ٢٤٦٤

(٢) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، أبي الفيض محمد بن محمد الحسيني/ مرتضى الزبيدي، ج ١١/ ٥٧

(٣) صحيح مسلم: ٢٩٩٩

قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيته أقبلت إليك، فمررت بغیضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي، فهن أولاء معي، قال: ضعهن عنك، فوضعتهن، وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن، فرجع بهن^(١).

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى (حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا زهير بن محمد، عن محمد بن عمرو بن حلحلة، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها)^(٢).

والصبر على سائر ما يقع لعبد هو تمام أدب، وإحسان دين، لأن من كان شأنه أنه قد صبر فأمره ظفر!

وصابر تكلؤه عناية مولاه، وتحفه رحمته، ويناله أجر بمنته، وكرم بفضله العظيم، وإذا قد صار من أهل المعية، وكفى بها من مزية.

وإن لم يكن ثمة صابرا فمتصبرا. ليدخل في عداد الصابرين، فينال ما نالهم من الفضل والجود والكرم والرضوان.

(١) سنن أبي داود: ٢٦٨٧

(٢) صحيح البخاري: ٥٣٤٢

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتى نفذ ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر^(١).
وأفضله ما كان عند الصدمة الأولى.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى^(٢).

المبحث الثالث

الإخلاص في العمل

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (الإخلاص هو إفرااد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة)^(٣).
وقال ابن رجب رحمه الله تعالى (الإخلاص في اللغة ترك الرياء، وفي الاصطلاح: تخلص القلب عن شائبة الرياء المكدر لصفائه)^(٤).

وقال ابن القيم: نبه سبحانه بقوله ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]. على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى؛ بخلاف من تصور نعم المخلوقين ومنهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم ويترك لأجلهم، ولهذا

(١) صحيح البخاري: ١٤١١

(٢) صحيح البخاري: ١٢٣٦

(٣) مدارج السالكين: ٩١ / ٢

(٤) القواعد: ١٦٥ / ١

كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس؛ لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب فهذا الطريق أقصر الطرق إليه وأقربها وأقومها^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ١١٠].

(فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته (فليعمل عملاً صالحاً) يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية)^(٢).

ومنه أن يكون قصد مسلم نصر نفسه بإيمانها، ونصر الملة بإعمالها، وإقامة دينه تعالى في نفسه، وإعلاء قيمه، وإنفاذ شرعه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَضُرُّوهُ ۖ اللَّهُ يَضُرُّكُمْ وَيَدْنِيْكُمْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾ [محمد: ٧].

ومنه حديث (أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة، البيهقي في الدلائل من حديث جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن الحسين، ومن حديث من لم يسم عن ابن أبي هالة كلاهما عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي - وكان وصافا - عن حلية النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر حديثاً طويلاً، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول: ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، وذكره، وهو من الوجه الأول عندنا في مشيخة ابن شاذان الصغرى، ومن الوجه الثاني في المعجم الكبير للطبراني. وكذا في الشمائل النبوية للترمذي، لكن بدون القصد منه هنا، وأخرجه البغوي وابن منده وآخرون،

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٤٥

(٢) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ١٦ / ٥٠.

ورواه الفقيه نصر في فوائده من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً: أبلغوني. وذكره بزيادة على الصراط، وفي الباب عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهما، وهما بلفظ: من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في تبليغ بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط عند دحض الأقدام، وهما عند الطبراني، وصحح ثانيهما الحاكم، وابن حبان، ووهب الديلمي في عزوة لفظ الترجمة للطبراني عن أبي الدرداء، فالذي فيه حديث عائشة وابن عمر، ولكن بلفظ: رفعه الله في الدرجات العلى من الجنة. (١).

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صَوْمُوعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَاةٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

والشاهد من الآية الكريمة قوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). فإن نصره تعالى يكون بالعمل بشرعه، وعلى وفقه، وعلى إخلاص من العبد في ذلك كله لربه.

ذلك لأنه تعالى قد جعل من منته انتصار العبيد لملته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. وهو العمل بلا ارتياب، وهو الانقياد بلا التباس.

وهو أصل من ديننا، وهو مسك القلوب، وعماد الأرواح، وعليه يكون مدار الفلاح، وعلمه خير علم، لأن فيه رضا الرحمن، وراحة الأفئدة، ونجاة النفوس، وهو ركن العمل وأساسه وأسه معا.

(١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الباب الأول: الأحاديث بحسب ترتيب الأحرف، حرف الهمزة، حديث رقم ١١

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال سبحانه ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وقال تبارك وعز ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

وإذ كان الإخلاص هو لب الأعمال ونقاءها، وإذ كان هو أصل المسائل وفرعها، فكان شعارا للمخلصين، وكان دثارا للمختبين، إذ لا يرجون بعملهم سوى ربهم، وإذ لا يبتغون رضوانا من سواه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [الإنسان: ٩].

ويفسده رياء وإن دق، ويحبطه شرك وإن خفي. إذ بانعدامه تراءد الرياسات، وابتغى الجاه، ويتعبد الدرهم والدينار، وتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الدينار!

ويقين عبيد أن الله سبحانه هو خالقه ورازقه، وهو ربه المحيي المميت المعبود بحق دون سواه، ومنه تصرف العبادة كلها إليه وحده دون سواه أيضا، فكل حركة وسكنة إنما مبتغاها رضوانه، وإنما روحة أو غدوة مرساها هداه.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿

ومن جميله أن أشار إليه الذكر الحكيم أول الكتاب، في أم الكتاب كيما يكون منهجا، وكيما يصبح سبيلا، يجري في ابن آدم، كما يجري دم في عرق!

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاحة: ٥].

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (الأعمال بالنية، ولا مرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)^(٢).

وتلزم معه متابعة، وبهما معا يتحقق شرطاً قبول الأعمال، وبانحسار أحدهما أو كليهما فكان مكمناً للخطر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد رواه عبد الله بن جعفر المخرمي، وعبد الواحد بن أبي عون، عن سعد بن إبراهيم)^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وبالجملية فمعنا أصلاً عظيماً؛ أحدهما: أن لا نعبد إلا الله. والثاني: أن لا نعبد إلا بما شرع. لا نعبد بعبادة مبتدعة. وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الملة: ٢] ^(٤).

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قالوا. يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

(١) صحيح البخاري: ٥٤

(٢) صحيح مسلم: ٥٤٣٤

(٣) صحيح البخاري: ٢٥٧٨

(٤) كتاب قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، ابن تيمية: ١١٧

وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ^(١).

وحسبك أن إخلاصا له تعالى وحده، ودونك أنه بغيره فشكل وضلال وكفر وبهتان، والله تعالى غني بلا حد، وعزيز بلا قيد، سبحانه!

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (حدثنا محمد بن المثنى، وابن بشار، واللفظ لابن المثنى، قالوا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا وائل، قال: حدثنا أبو موسى الأشعري، أن رجلا أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله أعلیٰ، فهو في سبيل الله) ^(٢).

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أرايت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله: لا شيء له ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغي به وجهه) ^(٣).

وابتغاء أجر منه تعالى وحده علامته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]

وقال الإمام الشافعي رحمه الله (وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نسب إلي شيء منه) ^(٣).

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٣١٤٠

(٢) صحيح مسلم: ٣٦٣٥

(٣) إكمال تهذيب الكمال (١/ ١٨٥)

وسره من دلالة وتبين منه علانيته.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه^(١).

وانعدام عجب من شارته.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وعن عائشة أنها قالت يا رسول الله في هذه الآية: والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله^(٢).

واستواء مدح وذم من بينته.

التوبة منه أن يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرا مما يظنون^(٣).

وتفريج كربته، وإزاحة غمة من أثره

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت

(١) صحيح البخاري ٦٤٠

(٢) المسند للإمام أحمد: ج ١٧/٢٥١٣٩

(٣) الجامع لشعب الإيمان؛ البيهقي: ج ٦/٥٠٤، رقم: ٤٥٣٤

صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا، ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج، قال النبي صلى الله عليه وسلم: وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجرا، فأعطيتهم أجرا غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون^(١).

وروى أيضا من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال (يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم قالت: قلت:

(١) صحيح البخاري: ٢٢٧٢

يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم^(١).

وسكينة نفس واطمئنانها من نتيجته.

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له)^(٢).

و«(همه) أي قصده ونيته. (جعل الله غناه في قلبه) أي جعله قانعا بالكفاف والكفاية كي لا يتعب في طلب الزيادة، (وجمع له شمله) أي أموره المتفرقة بأن جعله مجموع الخاطر بتهيئة أسبابه من حيث لا يشعر به، (وأتته الدنيا) أي ما قدر وقسم له منها، (وهي راغمة) أي ذليلة حقيرة تابعة له لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير بل تأتيه هينة لينة على رغم أنفها وأنف أربابها.

(ومن كانت الدنيا همه) وفي المشكاة: ومن كانت نيته طلب الدنيا، (جعل الله فقره بين عينيه) الاحتياج إلى الخلق كالأمر المحسوم منصوبا بين عينيه، (وفرقت عليه شمله) أي أموره المجتمعة. قال الطيبي: يقال جمع الله شمله أي ما تشئت من أمره.

وفرقت الله شمله أي ما اجتمع من أمره، فهو من الأضداد، (ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له) أي وهو راغم، فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه^(٣).

حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد. فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتح الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الأذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء.

(١) صحيح البخاري: ٢١١٨

(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٤٦٥

(٣) تحفة الأحوذى، شرح سنن الترمذي، المباركفوري: ١٣٩ / ٧

فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه في صحيفة "إلى الخليفة" ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدهم صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب^(١).

المبحث الرابع

الإعداد في الأعداد والعتاد، ورفع علم الجهاد

وإنما كان الجهاد نصير الدين، وإنما كان الجهاد إعلاء له، وإنما كان الجهاد ذروة سنامه، وإنما كان فريضة عدها جمع غفير من فرائض الملة، وإنما هو سبيل عزة وكرامة، وإنما هو سبب رفعة وإكبار، وإنما هو موجب رزق وجنان، وإنما هو طاعة لله تعالى ربنا العظيم المتان.

وبه أمر الله تعالى ومنه فلا مناص من إعماله وعليه فلا مفر من إزكائه في النفوس ومن تفعيله في القلوب طاعة الأمر وابتغاء الرضا.

وأجره عظيم وأثره نصر مبین. لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧].

وهو من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض، وما ذاك إلا لما ترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين

(١) عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري: ٧٣/١

العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين.

وقد ورد من فضله وفضل المجاهدين ما يحفز الهمم العالية، ويحرك كوامن النفوس إلى المشاركة في هذا السبيل، والصدق في جهاد أعداء رب العالمين، وهو فرض كفاية على المسلمين إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي، ويكون حيناً فرض عين، ولا يجوز عنده لمسلم أن يتخلف عنه إلا بعذر أذن به الشارع الحكيم وضمنته أحكام الملة، كما لو استنفره الإمام أو حصر بلده العدو أو كان حاضراً بين الصنفين.

قال الله تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤١ ﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٤٢ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ٤٣ لَا يَسْتَنْدُوكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ٤٤ إِنَّمَا يَسْتَنْدُوكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥ ﴾ [التوبة: ٤١-٤٥].

فالله تعالى يأمر المؤمنين نفرة إلى الجهاد خفافاً وثقالاً، شيباً وشباباً، وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وذلك خير لهم في الدارين.

وحين يتناقل قوم عنه نفاقاً أو بسوء قصد، فذاك نذير هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ٤٢ ﴾ [التوبة: ٤٢].

وعتابه تعالى للنبي ﷺ عتاباً لطيفاً مألوفاً حين يلقي ربنا الرحمن التبعة على رسوله في لطف معهود، وفي قول معروف لا تعرفه نكارة، وفي أدب مألوف تدركه حفاوة به وتنويه له!

وذلك إنما يكون من سببه إذنه لطالب تخلفا عن جهاد عدو الله وعدو منهجه ودينه ورسوله وعباده المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وعدم إذن لهؤلاء تبينا لصادق وفضيحة لكاذب.

لكن مؤمنا بالله واليوم الآخر لا يستأذن في ترك الجهاد بغير عذر شرعي؛ فإيمان صادق به تعالى واليوم الآخر مانع من ذلك تماما.

وتحفيز مؤمن مبادرة إلى الجهاد ونفيرا، هو ما قامت عليه الدلائل، وهو ما أبانته الآيات البيّنات والأحاديث الصحيحة.

وإنما كان من هو شأنه الاعتذار، وإنما كان من كانت سيرته التخاذل باستئذان خبيث ينبئ عن طوية أشد منه نكارة أن كان عديم الإيمان مرتابا شاكا ليدوق وبال أمره!

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

وترغيب العظيم فيه عظيم، وبيان لفضله أن مؤمن قد باع نفسه وماله على الله عز وجل، وأنه سبحانه متقبل عقدا هذا سنده! ومنه فقد كان من ثمنه الجنة، ذلك لأنهم (يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ).

وهو ذكر حسن متواتر لدى كافة العصور الرسالية وفي جميع أزمنة الديانات السماوية دليل رفعة منزلة وشارة قمة سامية للجهاد! ذلك لأنه تعالى ذكر أن (وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ).

ووعده الله تعالى قمن أن يوفي به وحسبنا أنه الله تعالى الذي وعد ووعد الصديق المبين (وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ). وذلكم موجب مجد ذاته أن يطمئن باذل وأن يوقن

مجاهد وأن يطمئن مؤمن إلى وعد ربه ومولاه باذلاً غالياً ونفيساً هو منه وله، نفساً كانت أو مالا والجميع حقه تعالى، لكنها الكرامة حين يشتريها ربها بثمن عظيم هو الجنة، فتأمل!

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُم عَلَىٰ تَجَرَّعِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ ۖ أَلِيمٍ ۝ تَوَّمنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الصف: ١٠-١٣].

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها^(١).

وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله، بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة^(٢).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مكلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى، اللون لون دم، والريح ريح مسك^(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألستكم)^(٤).

(١) صحيح البخاري: ٢٧٦٤

(٢) صحيح البخاري: رقم ٢٦٦٠

(٣) صحيح البخاري: ٥٢٣٧

(٤) صحيح أبي داود: ٢٥٠٤

قال الوليد بن العيزار: أخبرني قال: سمعت أبا عمرو الشيباني، يقول: حدثنا صاحب - هذه الدار وأشار إلى دار - عبد الله، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزدني^(١).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق، قال ابن سهم: قال عبد الله بن المبارك: فترى أن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وعن ابن عمر، قال: إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم^(٣).

والجهاد جهادان: جهاد طلب، وجهاد دفاع، ومقصودهما جميعا هو تبليغ دين الله، ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإعلاء دين الله في أرضه، وأن يكون الدين كله لله وحده.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وقال تعالى أيضا ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وقال سبحانه ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

عن أبي مالك، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله، ودمه، وحسابه على الله وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر، ح وحدثني زهير بن حرب، حدثنا يزيد

(١) صحيح البخاري: ٥١٣

(٢) صحيح مسلم: ٣٦٤٤

(٣) صحيح أبي داود: الألباني: ٣٤٦٢

بن هارون، كلاهما عن أبي مالك، عن أبيه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من وحد الله، ثم ذكر بمثله^(١).

وقال الله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

مراحل الجهاد الثلاثة:

المرحلة الأولى: إذن به للمسلمين دون إلزام لهم. كما قال تعالى: ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

المرحلة الثانية: الأمر بقتال من قاتل المسلمين والكف عمن كف عنهم، كما قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وكما قال سبحانه ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [٨٩] إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلقَتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٩-٩٠].

المرحلة الثالثة: جهاد المشركين مطلقا وغزوهم في بلادهم حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله ليعم الخير أهل الأرض وتتسع رقعة الإسلام ويزول من طريق الدعوة

(١) صحيح مسلم: ٦٣

دعاة الكفر والإلحاد، وينعم العباد بحكم الشريعة العادل، وتعاليمها السمحة، وليخرجوا بهذا الدين القويم من ضيق الدنيا إلى سعة الإسلام، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق سبحانه، ومن ظلم الجبابة إلى عدل الشريعة وأحكامها الرشيدة، وهذا هو الذي استقر عليه أمر الإسلام وتوفي عليه نبينا محمد ﷺ.

وأُنزل الله قرآنا يتلى إلى يوم الدين من سورة براءة وهي من آخر ما نزل.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وجوب الإعداد لمجابهة الأعداء:

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١].

وهو أخذ بسبب وهو واجب، وهو أخذ حذر من المعاندين وهو واجب أيضا.

ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد المتعلقة بالأسلحة والأبدان، كما يدخل في ذلك إعداد جميع الوسائل المعنوية والحسية وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة وكيفية استعمالها، وتوجيههم إلى كل ما يعينهم على جهاد عدوهم والسلامة من مكائده في الكر والفر والأرض والجو والبحر وفي سائر الأحوال، لأن الله سبحانه أطلق الأمر بالإعداد وأخذ الحذر ولم يذكر نوعا دون نوع ولا حالا دون حال، وما ذلك إلا لأن الأوقات تختلف والأسلحة تتنوع، والعدو يقل ويكثر ويضعف ويقوى، والجهاد قد يكون ابتداء وقد يكون دفاعا، فلهذه الأمور وغيرها أطلق الله سبحانه الأمر بالإعداد وأخذ الحذر ليجتهد قادة المسلمين وأعيانهم ومفكروهم في إعداد ما يستطيعون من القوة لقتال أعدائهم وما يرونه من المكيدة في ذلك.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة^(١).

فيمكن للخصم أن يدرك من عدوه بال المكر والخديعة في الحرب ما لا يدركه بالقوة والعدد.

ومنه ما وقع يوم الأحزاب من خداع للمشركين ويهود ومن كيد لهم على يد نعيم بن مسعود رضي الله عنه بإذن النبي ﷺ وما نتج عنه من خذلان الكافرين وتفريق شملهم واختلاف كلمتهم، وإعزاز المسلمين ونصرهم عليهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقصد إعلاء دينه تعالى قرين وعد بنصر.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَصْرُكُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَصُرُهُٗٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الذين: ٤] إِنَّ مَكَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ [الحج: ٤٠-٤١]. وقال سبحانه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال سبحانه ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [وما جعله الله إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

وصبر في جهاد وصدق فيه جهاد موجب تأييد وسبب نصر وتمكين وشارة عاقبة حسنى، وإن قل عددهم، أو قلت عدتهم، أو كثرت أعدائهم.

(١) صحيح مسلم: ٣٣٧٧

قال الله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال سبحانه ﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. وتغيير سننه تعالى موجب خذلان، وإيذان بانهزام أمام أخط المعاندين، وداعية ضعة أمام أراذل المذنبين فتأمل!

قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَأْنُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال سبحانه ﴿ ظَهَرَ أَلْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وقد حدث نظيره يوم أحد لما حدث من الرماة من نزاع في الأوامر، واختلاف في التصور، وإخلال بالشعر الذي أمرهم النبي ﷺ بلزومه، وعدم تعديه إلا بأمر مثله، فقد حدث بسبب ما أصابهم من قتل وجراح وانهزام ما الله تعالى به عليهم!

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَبْتُكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وهو درس و بيان، وهو إنذار وابتلاء، وهو تمحيص واختبار، ولزم حدوثه كيما يشعر المسلمون بدالة الخير عندهم، وكيما يوقنوا بعامل الفوز لديهم. وكيما يسترشدوا بأمر ربهم سبحانه، وكيما يترسموا طاعة نبيهم ﷺ.

وقد سبق شرح في ذلك وبيان في ذكر سنن التاريخ وموجباته.

فضل المراقبة في سبيل الله:

الرباط هو: الإقامة في الثغور.

والثغور هي: الأماكن التي يخاف على أهلها أعداء الإسلام

والمرباط هو: المقيم فيها المعد نفسه للجهاد في سبيل الله والدفاع عن دينه وإخوانه المسلمين.

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها^(١).

وعن سلمان، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان، حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شريح، عن عبد الكريم بن الحارث، عن أبي عبيدة بن عقبة، عن شرحبيل بن السمط، عن سلمان الخير، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى حديث الليث، عن أيوب بن موسى^(٢).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (كل الميت يختم على عمله إلا المرباط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر)^(٣).

وعن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ (كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات؛ إلا المرباط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله، ويجري عليه رزقه إلى يوم القيامة)^(٤).

(١) صحيح البخاري: ٢٧٦٤

(٢) صحيح مسلم: ٣٦٤٨

(٣) صحيح أبي داود: ٢٥٠٠

(٤) صحيح الترغيب، الألباني: ١٢٢٠

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من فتنة القبر ويبعثه الله آمنا من الفزع الأكبر^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: عينا لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله^(٢).

وقد مر بنا ذكر طرف من أولاء المؤمنين في مواجعتهم لملك الفرس رستم، وكيف أطلعنا ذلكم على عزة منقطعة النظر، إلا في أمثال هذا الجمع الطيب المستنير بنور الهدى، و يقين الحق، ليدفعه إيمانه دفعا إلى تضحية يبتغي من ورائها رضا ربه وعفوه وإكرامه ونصر دينه وإعلاء كلمته.

وأسوق طرفا منه مرة أخرى تذكرة، وبياناً:

عن جبير بن حية، قال: بعث عمر الناس في أفناء الأمصار، يقاتلون المشركين، فأسلم الهرمزان، فقال: إني مستشيرك في مغازي هذه؟ قال: نعم مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان، فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس، فإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، وإن شدخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس، فالرأس كسرى، والجناح قيصر، والجناح الآخر فارس، فمر المسلمين، فلينفروا إلى كسرى، - وقال بكر، وزياد جميعا عن جبير بن حية - قال: فندبنا عمر، واستعمل علينا النعمان بن مقرن، حتى إذا كنا بأرض العدو، وخرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفا، فقام ترجمان، فقال: ليكلمني رجل منكم، فقال المغيرة: سل عما شئت؟ قال: ما أنتم؟ قال: نحن أناس من العرب، كنا في

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٥٠٠

(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ١٦٣٩

شقاء شديد وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر، فبينما نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين - تعالى ذكره وجلت عظمتة - إلينا نبيا من أنفسنا نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن رسالة ربنا، أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم، فقال النعمان: ربما أشهدك الله مثلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يندمك، ولم يخزك، ولكني شهدت القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا لم يقاتل في أول النهار، انتظر حتى تهب الأرواح، وتحضر الصلوات^(١).

ويوم أن يتحقق وجود أمثال أولاء في دنيا الناس في حقبة من حقب التاريخ، فلا خوف على دين الله تعالى - ولا خوف أصلا - لأنه تعالى هو حامي حمى دينه، فيتشأ جيل هذا عهده، ويتألف مجتمع هذا خلقه، ويتكون نفر هذا قدره، ويتربى فصيل هذا سبيله، يرى الحياة الأبدية طريقه، وينظر الجنان من ورائها حليفه، ذلك لأنه يعلم علم اليقين قول الله تعالى رب العالمين ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. ومنه قوله ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبسبب تركه صار الناس مطمعا لكل غاز، وأصبح القوم مرتعا لكل طامع. ومنه إذن وجب الأخذ بأسباب القوة الذاتية النابعة من استقلال القرار في إعداد العدة والعتاد الذين بهما نكون قد حققنا سببا لمواجهة أعداء الديانة، وأدعياء الملة، إعزازا للدين، وقياما بحق واجب الوفاء لهذا الدين.

(١) صحيح البخاري: ٣٠١٦

ومنه كان شحذ همهم المؤمنين للقتال، ومنه كان نداء الرب الرحمن لهم أن يقاتلوا عدو الله تعالى وعدوهم، ومنه كان النعي على من تكاسل، ومنه كان النكير على من تباطأ، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٧٥ ﴾ [النساء: ٧٥]. ومنه الإقدام وفداء الدين بالنفس والنفيس، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ غَلِبَتُمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٢٣ ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولعل الانغماس في صفوف العدو يعد من درجات الجهاد العالية، وذلك لما يحمله من مخاطرة الجود بالنفس في سبيل الله تعالى.

وهو بذلك يعد ذا قيمة من حيث ما يكتنفه كذلك من رفع لمعنويات المجاهدين في سبيله تعالى وشحذ لهممهم، وتقوية عزائم المرابطين في سبيل الله سبحانه. ومن قيمته أيضا ما يتخرج عليه من تحطيم لمعنويات الأعداء، وتفريق لشملهم وفت في عضدهم، وفي عقر ديارهم فتأمل!

وقد مر بنا ذكر حديث الصحابي الكريم حذيفة بن اليمان في غزوة الأحزاب، ويحسن ذكره ههنا مرة أخرى، لأنه إنما ذكر هناك لسبب، وإنه ليذكر ههنا لمناسبة التخذيل.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، أن الناس تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الأحزاب، فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا جاثي من البرد، وقال: " يا ابن اليمان، قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب فانظر إلى حالهم "، قلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما قمت إليك إلا حياء منك من البرد، قال: " فابرز الحرة وبرد الصبح، انطلق يا ابن اليمان، ولا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلي "، قال: فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا

سفيان يوقد النار في عصبة حوله قد تفرق الأحزاب عنه، قال: حتى إذا جلست فيهم، قال: فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال: فضربت بيدي على الذي، عن يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي، عن يساري فأخذت بيده فلبثت فيهم هنية، ثم قمت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قائم يصلي، فأومأ إلي بيده أن ادن فدنوت، ثم أومأ إلي أيضا أن ادن فدنوت حتى أسبل علي من الثوب الذي كان عليه وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته، قال: " ابن اليمان اقعد، ما الخبر؟ " قلت: يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلا عصبة توقد النار قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجو^(١).

وهذا إقدام، وهذه تضحية، وذلكم جهاد، وإنما كان ذلكم ابتغاء مرضاته تعالى، لأن ذلكم الجليل كان قد تربى على مائدة القرآن الكريم، وكان قد تشرب الحق من في رسول الله ﷺ، رخيصة نفسه في سبيل مولاه، بائعا ذات نفسه بثمن عظيم، هو قول الله ﷻ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

وفي المقابل من ذلك حرم التولي يوم الزحف، وصار من السبع الموبقات، لما يسببه من الهزيمة والتثييط، وتخيل صفوف المسلمين، ورفع معنويات العدو.

و عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم: ٤٢٥٨

بالحق، وأكل مال اليتيم وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات^(١).

وأمتنا تحمل تاريخنا في الجهاد لأعداء الله تعالى يعرفه أعداؤها ربما أكثر مما يعرفه أهلها! ذلك لأنها لم تكن لتفتح عالما هذا اتساعه في عهودها المختلفة إلا من باب الحرص على نشر دينه تعالى باذلة كل غال ورخيص في سبيل إعلاء الشهادتين، ومن ثم تكون قد فعلت ما هو واجب عليها أن تقوم به دينا وإخلاصا ونهجا وسبيلا فيه السعادة وفيه الرضا وفيه الفلاح وبه الصلاح ومن أثره الفلاح السؤدد والعلو والعزة الكرامة والإباء! وهي أمة مازال رصيدها غنيا بالخير، مفعما بالعطاء والبذل والتضحية، وورودها زكية، وزهورها ندية، وإن أصابها بعض تعثر، لكنها تحمل شعلة الخير ومنازة الهدى للناس كافة، كيما يخرجوا من ظلمات الغي والتهيه والإغلاق إلى نور الهدى والإسلام والرشاد والانفتاح، والانطلاق إلى آفاق الإشراق في ظل منهج الله تعالى ربنا الرحمن، ذلك المنهج الذي كان من وصفه أنه رحمة للعالمين - كل العالمين - مبتغيا لهم عيشا هنيا، ومريدا لهم سواء سويا، والله غالب على أمره!

المبحث الخامس

الاتلاف وعدم الخلاف

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال تعالى أيضا ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٣].

(١) صحيح مسلم: ١٥٨

فإن من طاعته تعالى الائتلاف، وإن من سنته ﷺ الاتحاد، وإن من معصيته تعالى الخلاف، وإن من سنته ﷺ التنافر والتباعد والتشردم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياكم و الظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً^(١).

وما ظنك بقول مولانا الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ؟

وما يحمله من استدعاء كريم لقيمة الأخوة الإيمانية الصادقة، وما ينم به عن متانة الآصرة الدينية والاجتماعية السامية، وما يشي به من تنويه بالوشائج الروحية والخلقية النامية، وما حثت عليها تعاليمه القاصدة، وأكدتها أحكامه ومقاصده الخالدة.

واعتصام بحبله تعالى واسترشاد بأمره، إنما كان في لا اختلاف، وسد ذرائع الخلاف، وفي غيرهما من لزوم المحبة والائتلاف، ووجوب الألفة والاصطفاف.

قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وحدثنا شيبان بن فروخ، أخبرنا أبو عوانة، عن سهيل، بهذا الإسناد مثله، غير أنه قال: ويسخط لكم ثلاثاً، ولم يذكر: ولا تفرقوا^(٢).

(١) صحيح البخاري: ٥٧٤٢

(٢) صحيح مسلم: ٣٣٣٨

وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه (ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول: إنها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)^(١).

وإنما كان الاختلاف من سننه تعالى في ملكوته الواسع الفسيح، وإنما يكون نوع تنوع لا تضاد، إذ كان الأول سيلا لمحبة، وإذ كان الثاني سببا لبغضاء. وإذ كان الأول محمودا، وإذ كان الثاني مذموما. وإذ كان الأول موجب ائتلاف، وإذ كان الثاني داعية اختلاف.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. ولذلك خلقهم؛ أي: خلقهم للاختلاف، ولكن الخلاف هو الشر الذي يؤدي إلى النزاعات والخصومات، والفساد والإفساد^(٢).

وكان فرقا بين خلاف مذموم، واختلاف بعضه مذموم كمثلته، إذا كان تضادا، ومن جنسه، وآخر محمود، إذا كان تنوعا، وليس من نوعه!

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله المؤمنين في هذه الآية بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر، وهم العلماء والأمراء^(٣).

وحصول الاختلاف ضرورة جبلية، وطبيعة فطرية، لكن ضبطه واجب، ولكن حسمه إلف.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

(١) غاية المرام، الألباني: ٤١٤، وقال: صحيح.

(٢) تفسير القرطبي عند هذه الآية.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٤٥/٢

واستنباط حكم ضابط في المسائل، حسما لمادة الشقاق والغوائل.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

وتفهم الله تعالى لأحدهم إيمان، والقول به مندوحة، ولا يسع أحدهم كبرا لما أوتيته، ولا يسع آخر غمطا لأخيه، لأن ذلكم غمطا ولأن ذلكم كبرا ذميم بئس لأنه من سوء الأخلاق، ولا أعده من أدب المروءات. ولست أحسبه من شيم القامات، ولست أظنه من كرم السمو وجزيل الهبات، ولا أخاله من تيك المنح ولا العطاءات!

وإنما سعة الآخر، والتماس عذر، يشير إلى أدب جميل، وينبئ عن حسن خلق، وقرين دماثة أدب، وشارة علو قيمة، وسمو مرتبة، كما أنه دال على بهاء الطلعة وملح الطلة! وهو دليل شيم الفضلاء، وموجب صفات الأدباء، ومزية من سمات الحكماء.

قال الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكٍ ٤ يَوْمَ الدِّينِ ٥ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٦ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ ٧ ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (فهذان نبيان كريمان حكما في حكومة واحدة فخص الله أحدهما بفهمها مع ثنائه على كل منهما بأنه آتاه الله حكما وعلمًا، فكذلك العلماء المجتهدون رضي الله عنهم للمصيب منهم أجران، وللآخر أجر، وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته، لا يكلفه الله ما عجز عن علمه)^(١).

والمسائل الاجتهادية هي التي ليس فيها نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع، أو فيها نصوص متعارضة في الظاهر، أو سنة مختلف في ثبوتها^(٢)

(١) مجموع الفتاوى: ٤١/٣٣

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية: ١٦٠/٣، وأعلام الموقعين لابن القيم: ٢٥٢/٣

ويختلف أهل العلم في المسائل الاجتهادية وكل له أجر. فمصيبهم له أجران ومخطئهم له أجر، ويسع أحدهم أخاه فلا يحقره ولا يخذله، كما أن ذلك من تمام حق العلم، وهو من رعاية حق الأخ على أخيه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال تعالى أيضا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس، مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر، وحدثني إسحاق بن إبراهيم، ومحمد بن أبي عمر، كلاهما عن عبد العزيز بن محمد، بهذا الإسناد مثله، وزاد في عقب الحديث،

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. ودعاء عبيد صالح قمن بإجابته، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ بُدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا

تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴿ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت ﴿ وَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ﴿ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت^(١).

وسؤال أهل الذكر واجب لما يجهل من حكم، ولما يعضل من مسألة، ولما يشتبه من دليل، ولما يشتبه فيه من أمر، وهي مندوحة علم، وهو مسلك العباد الصالحين.

قال الله تعالى ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [النحل: ٤٣].

ومسائل الاجتهاد واسعة سعة ديننا، وهي دليل يسره، وهي من كمال تيسيره تعالى على العبيد، ومنه فينبغي القيام عليها من ذلكم باب، لا أن تكون موجبا لاختلاف، أو سببا لخلاف، أو داعية مذمة.

قال شيخ الإسلام (الحاكم ليس له أن ينقض حكم غيره في مثل هذه المسائل ولا للعالم والمفتي أن يلزم الناس باتباعه في مثل هذه المسائل. . وكذلك قال غير واحد من الأئمة: ليس للفقهاء أن يحمل الناس على مذهبه، ولهذا قال العلماء: إن مثل هذه المسائل الاجتهادية لا تنكر باليد وليس لأحد أن يلزم الناس باتباعه فيها، ولكن يتكلم فيها بالحجج العلمية، فمن تبين له صحة أحد القولين تبعه، ومن قلد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه^(٢).

وغير مسائل الاجتهاد وجب الاتفاق فيها كمسائل الاعتقاد، وسلامة دين امرئ من شرك، ونزاهة لب عبد من كفران.

قال شيخ الإسلام رحمه الله (وقولهم مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعا قديما وجب إنكاره وفاقا، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند

(١) صحيح مسلم: ٢٠٩

(٢) مجموع الفتاوى: ٧٩/٣٠

من يقول: المصيب واحد، وهم عامة السلف والفقهاء، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب درجات الإنكار. وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوبا ظاهرا مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه؛ فيسوغ إذا عدم ذلك فيها الاجتهاد لتعارض الأدلة المتقاربة أو خفاء الأدلة فيها، وليس في ذكر كون المسألة قطيعة طعن على من خالفها من المجتهدين كسائر المسائل التي اختلف فيها السلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها^(١).

وقول بغيره طريق للشحناء، وهو درب وعر للبغضاء، وينبغي تركه، ويجب إهماله، حفظا لمودة، ورعاية لمحبة، وقول بغيره مساءة.

ونهج في غيره ولغ في حق المؤمنين، وفتح لباب إبليس اللعين، لما فيه من أذية الإخوان، ولما يعتريه من نقص في الأديان.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٥٨﴾ [الأحزاب: ٥٨].

عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها (ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى، قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى، قال: المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون البراء العنت)^(٢).

وعن أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه (يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ج ٦/ ٩٦

(٢) صحيح الأدب المفرد: ٢٤٦

يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار^(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله (ليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون)^(٢).

وقال أيضا رحمه الله تعالى (فصل: فأما صفة الصلاة: فمن شعائرها: مسألة البسملة. فإن الناس اضطربوا فيها نفيا وإثباتا: في كونها آية من القرآن وفي قراءتها، وصنفت من الطرفين مصنفات، يظهر في بعض كلامها نوع من جهل وظلم، مع أن الخطب فيها يسير. وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرق والاختلاف الذي نهينا عنه، إذ الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المفرقة بين الأمة، وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جدا، لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار شعار الفرق).

فأما كونها آية من القرآن: فقالت طائفة، كمالك: ليست من القرآن إلا في سورة النمل، والتزموا أن الصحابة أودعت المصحف ما ليس من كلام الله على سبيل التبرك^(٣).

ومن يسر شرعتنا أن مسألة اجتهادية لا يقطع فيها بصواب، بل بغلبة ظن، وإنما يبنى بيقين إذا ما دل الدليل صراحة عليها.

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أبي سلمة، عن أم سلمة، قالت: قال رسول

(١) الترغيب والترهيب للمنذري: ١٠٥/١

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج ١١/٧٥

(٣) كتاب القواعد النورانية، ابن تيمية: ٤٤

الله صلى الله عليه وسلم: إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار، وحدثناه أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، ح وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن نمير، كلاهما عن هشام، بهذا الإسناد مثله^(١).

قال ابن نجيم (إذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفتنا في الفروع، يجب علينا أن نجيب بأن مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب مخالفتنا خطأ يحتمل الصواب؛ لأنك لو قطعت القول لما صح قولنا إن المجتهد يخطئ ويصيب).

وإذا سئلنا عن معتقدا ومعتقد خصومنا في العقائد يجب علينا أن نقول: الحق ما نحن عليه والباطل ما عليه خصومنا^(٢).

وقد يقع الاشتباه والتردد في باب المصالح والمفاسد، والعالم المنصف لا يستهين بغيره من العلماء وأهل الخبرة، بل يحرص على معرفة أقوالهم، ويطلب مشاورتهم، فإن خالفوه في تقدير المصالح والمفاسد عذرهم. قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وهذا الباب واسع جداً لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون ينظرون للأمرين وقد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة

(١) صحيح مسلم: ٣٣٣٣

(٢) الأشباه والنظائر، ابن نجيم: ٣٣٠

والمضرة أو يتبين لهم ولا يجدون من يعينهم على العمل بالحسنات وترك السيئات،
لكون الأهواء قارنت الآراء، فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل^(١).

قال بعض العلماء: العلم ثلاثة أشبار: فمن دخل في الشبر الأول تكبر، ومن دخل
في الشبر الثاني تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث علم أنه لا يعلم^(٢).

وقال بعض السلف: من لم يسمع الاختلاف فلا تعدوه عالماً^(٣).

وعن محمد بن طلحة: عن الأعمش، قال (أدركت أشياخنا؛ زرا، وأبا وائل، فمنهم:
من عثمان أحب إليه من علي، ومنهم: من علي أحب إليه من عثمان، وكانوا أشد
شيء تحاباً وتواداً)^(٤).

قال الشاطبي (الابتداع من المجتهد لا يقع إلا فلتة، وبالعرض لا بالذات، وإنما تسمى
غلطة أو زلة، لأن صاحبها لم يقصد اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل
الكتاب، أي لم يتبع هواه ولا جعله عمدة، والدليل عليه أنه إذا ظهر له الحق أذعن
له وأقر به)^(٥).

المبحث السادس

إحسان التوكل على الله، وإتقان التضرع دعاء واستغاثة به وحده

وذلك لأنه تعالى يحب المتوكلين، كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا
غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُونَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) مجموع الفتاوى: ٢٥٧/٢٠

(٢) حلية طالب العلم، بكر عبد الله أبو زيد: ٧٩

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: ٢٠٦/٢

(٤) سير أعلام النبلاء: صفحة ٣٣٢٢

(٥) الاعتصام: ٤٩٨/١

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وذلك لأنه تعالى قد أمر بالتوكل عليه وحده وجعله سببا لنيل نصره، وفوزا برضاه. كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ودعاؤه تعالى قمن أن يجيب؛ ورجاؤه سبحانه موجب أن يهب. ويعطي ويمنح.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. ومنه فعندما يقرأ مسلم، فيدعو بدعائه تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (حدثني محمد بن منهال الضرير، وأميه بن بسطام العيشي، واللفظ لأمية، قالوا: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا روح وهو ابن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ {لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير}، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا

أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ، فلما
فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: نعم
﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: نعم ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال: نعم (١).

والله تعالى وعده صدق، وقوله يقين. ذلك لأنه سبحانه علمنا وأمرنا من مقتضى نص
الذكر الحكيم والقرآن العظيم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. واستغاثته تعالى مأمور بها، ومرغب
فيها، ذلك لأنها دليل صدق انطراح بين يديه، وذلك لأنها موجب إجابة، ومسوغ نصر،
وباعث تأييد، وثمرتها مرجوة. ونتيجتها حتمية.

وهي موجب لأن يدفع الله تعالى بها النقم، كما أنها سبب لأن يمنح الله تعالى بها النعم!
وهي سبب لتجلي معاني الرحمات، وهي وعاء لتوالي أصول البركات، وهي معنى
سائع لتدارك الهفوات، وهي مانع من حلول البليات!

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ
﴿٩﴾ [الأنفال: ٩].

عن طارق بن شهاب، قال: سمعت ابن مسعود، يقول: شهدت من المقداد بن الأسود
مشهدا، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو

(١) صحيح مسلم: ٢٠٨

يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعني: قوله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ٩ وما جعله الله إلا بشرى ولطمين به فلوبكم وما ألصق إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ١٠ إذ يغشاكم الغاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ١١ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فأضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان ١٢ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴿[الأنفال: ٩-١٣]﴾ (١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر، قال: نظر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم القبلة، ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبدا. قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك. وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ٩ [الأنفال: ٩].. فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبا بكر وعلياً وعمر رضي الله عنهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون

(١) صحيح البخاري: ٣٧٦٨

ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان - قريباً لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً رضي الله عنه من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه؛ حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما قال أبو بكر رضي الله عنه، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإذا هو قاعد وأبو بكر رضي الله عنه، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. قال: فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: الذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة، وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧]. إلى قوله: ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٨] من الفداء، ثم أحل الله لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكسرت ربايعته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَبْتُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء. الراوي: عمر بن الخطاب^(١).

(١) صحيح أسباب النزول: ٦١

وهذان حديثان شريهان يعالجان آية من القرآن الحكيم تحكي لنا سيرة ركب كريم لما أحسنوا توجههم إلى الله تعالى مولانا ومولاهم، أفاض عليهم بركاته، وأسبغ عليهم نعماءه وهباته.

ومنه فصدق عبيد الله تعالى مع ربهم الحق سبحانه، سبب لمنحه وموجب لعطائه، وداع ملده.

ولست أطيل كلاما أمامهما، كما أنني لست براغب طوفا حولهما، كيما لا أخسف نورا قد سطع من قمرهما، وكيما لا أكسف ضوء قد أشرق من شمسهما!

خاصة وأنهما يبنيان بنيانا سامقا من المعاني، وخاصة أنهما يرقيان فوق سلاسل الشرح كلها، ويبين منهما ما بان بين سماءين من نور، وينبع منهما ما ينبع في الأرضين من ضياء الهدى والتفسير والإيضاح والبيان!

قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

المبحث السابع

الشورى

وذلك إنما يكون بمشاورة القائد أو الإمام أو الرئيس لمؤوسيه، من أصحاب الرأي والمشورة، من أهل الحل والعقد وغيرهم، ممن يملكون حنكة وخبرة ودراية كل حسب فنه، وإشراكهم في صناعة القرار، فتطيب النفوس وتقوى العزائم، ويسدد القول والرأي. ويكونون جميعا والأمر كذلك سنداً لقائدهم في الملمات، وعونا لأمرهم في

المواقف والأزمات، لأن القرار كان قرارهم جميعا فينافحون من أجله لتحقيق الإيجابيات، ويكافحون من سببه في دفع السلبيات، لأنهم جميعا أمام ربهم مسؤولون بما قد أشاروا، ولأنهم جميعا عند ربهم لمؤاخذون بما قد اختاروا.

ولعظمها جاء الأمر بها من حيث قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى أيضا مادحا صنفا قد أشاروا، ومثنيا على فريق قد كان قرارهم جميعا ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨].

وليس يقال إن الشورى واجبة في مجال دون أخيه. فإنها والحال أن مجتمعا يريد الرفعة سواء في جميع شؤونه واختلاف أموره. ومنه كانت شاملة، ومنه كانت عامة في الأمور كلها. وذلك لأن عينا واحدة لا ترى كل شيء، وذلك لأن عقلا واحدا لا يحيط بكل أمر. وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أمته درسها العملي في الشورى، كيما لا تشطط، وكيما لا تزيع. وكيما تهتدي، ولا يضلها طريقها من حيث قد كان رأي الجماعة هو السائد على رشد من الله تعالى وعلى نور من هداه وتوفيقه ورعايته وإكلائه لعباده الذين اصطفاهم لقيادة البشرية إلى نور الهدى والتقوى والصلاح والرشاد.

وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا، وكيف رأيناه يعود إلى قول القوم يوم أن لم يكن وحيا، ويوم أن كان رأيا منه صلى الله عليه وسلم، وهو ما يؤكد مرة أخرى كيف يكون قائد مع مرؤوسيه؟ مرنا حيثما تجب المرونة، سلسا أينما كانت مواردها، يسيرا حينما تورد مسائلها، فلا اعتساف في رأي، ولا جهود في قول، ولا استشعار حرج أن يمتطي جواد الحق حيث يكون به المسير أن يسير به إلى مواطن الخير والفلاح والصلاح والسعادة.

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى (حدثنا عبد الله بن الرومي اليمامي، وعباس بن عبد العظيم العنبري، وأحمد بن جعفر المعقري، قالوا: حدثنا النضر بن محمد، حدثنا عكرمة وهو ابن عمار، حدثنا أبو النجاشي، حدثني رافع بن خديج، قال: قدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يأبرون النخل، يقولون يلحقون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال فذكروا ذلك له فقال: إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر قال عكرمة: أو نحو هذا. قال المعقري: فنفضت ولم يشك^(١).

وليست تكون أمة قائمة إلا بذلكم هدي، وليست تكون أمة لها القوام على ما عداها ما لم يكن نبراس حياتها أن أمرهم شورى بينهم، فلا شطط ولا استحواذ ولا كلمة أولى ولا رأيا واحدا! فليس به تنشأ أمم رائدة، وليس به قوام فئام سائدة.

قال ابن حبان رحمه الله تعالى (ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين فقال هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها وبعث الله السماء فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ماء لبدلهم الأرض وأصاب قريشا ماء لم يقدرُوا أن يرتحلوا معه ثم رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين وقال لهم سيروا على بركة الله فإنه قد وعدني إحدى الطائفتين فكأنني أنظر إلى مصارع القوم ثم مضى يبادر قريشا إلى الماء إذا جاء أدنى من ماء بدر نزل به فقال حباب بن المنذر بن الجموح أحد بنى سلمة يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة قال بل هو الحرب والرأي والمكيد قال فان هذا ليس بمنزل فانهض حتى نأتي أدنى قلب القوم فنزله ثم نغور

(١) صحيح مسلم: ٤٤٨٣

ما سواه من القلب ثم نبني حوضاً فتملأه ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرت بالرأي...^(١).

المبحث الثامن

الطاعة في المعروف

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله سبحانه أيضاً ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٦٢﴾ [النور: ٦٢].

وإنما قلت: الطاعة في المعروف، وإنما نخوت في ذلك حيث نحا الحق، وحيث أراد الخالق العظيم سبحانه، ونبه الكريم ﷺ.

وإنما كان ذلكم عنواناً على عزة أمة لا يقاد أبناؤها بالعصي، أو يساق أعضاؤها بالأذنان، تحقيقاً لمعاني العزة التي خلق الله تعالى عبده عليها، وإعمالاً لمراده تعالى يوم أن أكرم عبده، وتأكيداً لقوله الحكيم ولخبره الصدق اليقين، يوم أن قال ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

عن علي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً، وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً، وقال: ادخلوها، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر

(١) الثقات، ابن حبان: ج ١ / ١٦١، ١٦٢

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين قولا حسنا، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف^(١).

وهو درس للفئة المؤمنة جميعها أن تعرف أن أمر قائدها ليس صوابا كله، ولتدرك أن قرار رئيسها ليس معروفا كله، ومنه كان الأخذ على الجماعة المسلمة بعضها على أيدي بعض، ليخرج مجتمع مسلم كامل البنیان، في سلمه وفي حربه معا.

وقد مر بنا حديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وأسوقه مرة أخرى لمناسبة القول وجميل البيان.

عن أبي هريرة، قال: كنا قعودا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، معنا أبو بكر، وعمر في نفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار، فدرت به هل أجد له باباً؟ فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة - والربيع الجدول - فاحتفزت، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبو هريرة فقلت: نعم يا رسول الله، قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا، فقامت فأبطأت علينا، فخشينا أن تقتطع دوننا، وفزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط، فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: يا أبا هريرة وأعطاني نعليه، قال: اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلتا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، بشرته بالجنة، فضرب عمر بيده بين ثديي فخررت لاستي، فقال: ارجع

(١) صحيح مسلم: ٣٥٣٣

يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهشت بكاء، وركبني عمر، فإذا هو على أثري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لك يا أبا هريرة؟ قلت: لقيت عمر، فأخبرته بالذي بعثني به، فضرب بين ثديي ضربة خررت لاسي، قال: ارجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله، بأبي أنت، وأمي، أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: نعم، قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فخلهم^(١).

والشاهد قوله عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ: فلا تفعل!

وهذا موقف يكتب بمداد الذهب بل هو أرخص للقياس!

فهذا هو الفاروق يمثل رعية رباها رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، نعم!

ورباها أن تقول الحق الذي تراه، نعم!

وبلا خوف ولا وجل، نعم!

ومنه أخرجت أمة قال الله تعالى عنها ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهي أمة الوسط والعدل والاستقامة والقسطاس المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهي أمة رباها قرآنها، وعلمها نبيها أصول الشورى،

(١) صحيح مسلم: ٧٥

والرأي والرأي الآخر، فكان من مدحتها، وكان من مناقبها ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى (حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، قال: سمعت الزهري، حين حدث هذا الحديث، حفظت بعضه، وثبتني معمر، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، يزيد أحدهما على صاحبه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمره، وبعث عينا له من خزاعة، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إن قريشا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، ومانعوك، فقال: أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محرويين، قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله)^(١).

عن عروة بن الزبير، وحدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله ابن أبي بكر، وغيرهم من علمائنا، فبعضهم قد حدث بما لم يحدث به بعض، وقد اجتمع حديثهم فيما ذكرت لك من يوم بدر، قالوا: ". فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله ؛ منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك،

(١) [صحيح البخاري: ٣٩٧١]

ثم غور كل قلب بها إلا قليلا واحدا، ثم احفر عليه حوضا فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: قد أشرت بالرأي^(١).

قال ابن بطال (وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه اجتهد في أمر الحروب وتنفيذ الجيوش، وقدر الإعطاء للمؤلفة قلوبهم وأمر بنصب العرش يوم بدر في موضع، فقال له الحباب بن المنذر: أبوحى نصبته هنا أم برأيك؟ فقال: بل برأى. قال: الصواب نصبه بموضع كذا. فسماه النبي - صلى الله عليه وسلم - : ذا الرأيين)^(٢).

وهذه رواية نشتم منها سبب تسميته رضي الله تعالى عنه بذى الرأيين:

روى ابن شاهين بإسناد ضعيف من طريق أبي الطفيل، قال: أخبرني الحباب بن المنذر، قال: أشرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم برأين، فقبل مني: خرجت معه في غزاة بدر.. فذكر نحو ما تقدم. قال: وخير عند موته فاستشار أصحابه فقالوا: تعيش معنا، فاستشارني فقلت: اختر يا رسول الله حيث اختارك ربك، فقبل ذلك مني^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/٣١)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (١/٦٦٥)، من طريق محمد بن إسحاق

(٢) شرح البخاري لابن بطال: ٤٧١ / ١٩

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: ٩ / ٢

المبحث التاسع

تقريب أهل المروءة والصالح وإبعاد ذوي الفساد والعناد

[هود: ١١٣] . أنموذج

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢] . وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] . وحذر سبحانه من بطانة السوء فقال ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣] . هذه الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه^(١).

ويقول الإمام الألوسي في هذه الآية (ذهب أكثر المفسرين، قالوا: وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس الناس النار فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم كل الميل)^(٢).

وهذا نهى في كتاب الله تعالى عن الركون إلى الظلم، ومن فقه أنه لم يتأت في القرآن العظيم إلا في هذا الموضع وحسب، وذلك بعد ذكر أصناف الظلم والظالمين من عتاة

(١) روح البيان في تفسير القرآن، أبو الفداء إسماعيل حقي: ج ٤ / ٢٤٠

(٢) تفسير الألوسي: ج ١٢ / ١٥٤

الجبابرة والمجرمين الذين ناهضوا الدعوات وأصحابها، حتى كان من نصيبهم الخزي والبور، وحتى كان من جزائهم الانهزام والخسار، أمام جبروته تعالى وقوته وسلطانه، ذلكم السلطان الذي ما فتيء قوم يجهلونه، وذلكم الجبروت الذي ما زال قوم يتجاهلونه! وذلك أن سورة هود قد استعرضت كافة مشاهد الظلم والطغيان، باختلاف تركيبة السلطة وهيكلية الاستبداد المتعلقة بكل قوم. مما كان منه نذير ومما كان منه منذرون كثر وبما يناسب كون الظلم فادح أثره على مستوى الأفراد والجماعات، ذلك أن مجتمعا قوامه الظلم فبقاؤه في عداد الزمان قصير، وإن تطاول وجوده في جزء منه يحسبه أهله خلودا، والله المستعان.

وضم الظالمين وما حدث لهم في سورة واحدة كيما تتأكد أمام الأذهان سننه تعالى في المدبرين، وكيما تتيقن الصورة شاخصة أما المعبرين، وذلكم عكس ما لو أنها جاءت في مقاطع متباعدة من كل سورة من سورته، وفي بضع من آياته وعبره، مما سيكون لها أثر ولا شك، لكنه لن يكون ذلكم الأثر فيما لو جاءت متراسة هكذا في ماعون واحد، ينظر إليه هذا بحسرة، ويعتبر هذا به في ندامة، ويتمنى ذاك أن لم يكن معهم على كل حال، والله المستعان!

وتركيبة الفعل (تركبوا) جاءت هكذا بمعنى الركوب وهو الميل. لتشمل أنواعه قلبا وقالبا وجنانا وجارحة وعمل قلب وعمل جوارح في آن.

وعمل جنان منها كما لو كان ميلا أو محبة أو رضا بفعلهم ويتمنى أن لو كان مثلهم. ومن مثل سكون بهم.

وعمل جوارح من مثل الاشتراك في فعلهم والعمل بعملهم، وتزيين ظلمهم، ومداينة القوم طمعا فيما عندهم وانتهازا لما عندهم من متاع قال الله تعالى عنه ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ

ثُمَّ يَهَيِّجُ فَرَكُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: (والنهي متناول للانحطاط في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيتهم، ومد العين إلى زهرتهم. وذكرهم بما فيه تعظيم لهم. وتأمل قوله ولا تركنوا فإن الركون هو الميل اليسير)^(١).

وقوله تعالى (ظلموا) لتحقيق ظلمهم، وذلكم كيما لا يدع قولاً لقائل، وكيما لا يترك شبهة لمائل، وكيما لا يخلي زعماً لزاعم، أنه لو كان ظالماً إلا أنه يبقى وصفاً خالياً عن البرهان والدليل، فجاء الفعل (ظلموا) قاطعاً على كل مدخله!

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام فقراً بهذه الآية فغشى عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم^(٢).

وعن الحسن رحمه الله: جعل الله الدين بين لاءين: ولا تطغوا، ولا تركنوا

ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه ﴿لَتَبَيِّنَنَّهٗ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ^(٣).

فإن قيل: وما نجاة؟!!

(١) تفسير الكشاف، الزمخشري: (٢/ ٤٣٣)

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٤٣٣

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٤٣٣

قلت: بنقيض ميل، وهو النفرة القلبية والعملية معا، كيما لا تبقى بقية من ميل وإن دق لظالم وما ظلم!

وهو من البغض في الله تعالى. وهو أصل من أصول الإيمان، كما أنه باب من أبواب الاعتقاد.

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم منزّه عن ميل لظالم، فضلا عن براءته عن ميل لظلم، لذا فقد جاء النظم متضمنا لمعاني الأدب والتلطف في الخطاب، إذ لم يوجه إلى النبي كما يتوجه إليه الخطاب في غيره من المواقف والمعاني التي تدل على عظم شأنه والتنويه بأمره صلى الله عليه وسلم.

والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا فيه تشنيع عليهم بفعلهم، كما أن فيه تبييتا لهم بشأنهم، إذ عليه مدار فساد المجتمعات، وإذ به يقع موجب التدمير والأخذ والاستئصال، وذلكم لأن ضرره متعدد، وذلكم لأنه خطره لا فردي ولا شخصي، لا كمن عصي الله تعالى في نفسه، فإثمه عليه، ووباله عائد إليه! كصيام يوم تركه أو بظلم بينه وبين ربه، فذلكم الديوان الذي لا يعبأ الله تعالى به رحمة منه تعالى وفضلا!

عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الظلم ثلاثة فظلم لا يغفره الله وظلم يغفره الله وظلم لا يتركه الله فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال الله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض^(١).

(١) مسند البزار، ٦٤٩١

والظلم قرين الفساد، وكلاهما متلازمان، فوقوع أحدهما يستلزم وقوع الآخر، وهو من التلازم المقيت، وهو من التضامن المرعب، ذلك لأنه لا تبقى معه بقية من إصلاح، وذلك لأن لا يرجى لمن تأبطهما فلاح، وليس يبتغى من وراء عمله نجاح ولا يغرنك!

فأنت ترى قوما غرتهم الأماني عن منهج الله تعالى ربنا الرحمن، ويروحون يمينه عنه كثيرا، ويتيهون يسرة عنه كثيرا، ولست ترى من وراء طحنهم طحيناً! فلا ثمة له من أثر غير التعب والجهد والنصب الذي قد اكتالوه، وغير ذلكم البوار الذي قد حصدوه!

وذاك نتاج طبيعي لأن منهج الله تعالى أمامهم، وذلك لأن سبيل الله تعالى من خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وتراهم عنه غافلين، وتحسبهم عنه راغبين، وتراهم عنه مدبرين. ولم يكلفوا أنفسهم يوماً أن يجربوه حتى مجرد التجربة!

ومنه فلا بكاء ولا أنين ولا نحيب على من أدبر، ولا عويل ولا نشيج ولا نواح على من تولى، ولا إستعبار ولا صياح على من نبذ الكتاب، ونسي الحساب. وصدق الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. قال الله تعالى ربنا الرحمن أيضاً ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

وسبب الفلاح هو الإصلاح.

وبه يدفع الهلاك كله رحمة منه تعالى وفضلا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

ولما كان من شأن أمم وألا تأخذ على أيدي الظالمين فيها وبشرطه وإنما يكون هلاكهم معا ولما كانت عبلة ذلك ومن خحديث النبي محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب

بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً^(١).

ولا شك أن القائمين على حدود الله تعالى هم صمام الأمم من الانحراف، وهم سدها المنيع لصد هجمات أو رياح عاتية جاءت من ههنا أو من هنالك.

ومجرد ركون إلى الذين ظلموا هو جزاؤه ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

و(قوله: {فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} بسبب الركون إليهم، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار، أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار)^(٢).

وليس يستقل مسلم نفحة من عذاب، وليس يستصغر حفيف مسا من نار.

ولئن جاء النظم به (فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) فإنما هو على سبيل مجازاة القوم فحتى لو كان الركون إلى الذين ظلموا يسيراً وبالتالي فجزاؤه يسير كمس بنار! فهي أرونا إمساسه للنار لنعرف مدى صدقه من حقيقة كذبه!

ولما لم يفعل فدل على خيبة من ركن إلى ظالم، ودل على إمساس للنار به، وهو غير قادر، وهو غير متحمل لذلك عذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

(١) صحيح البخاري: ٢٤٩٣

(٢) فتح القدير، الشوكاني: هود، آية: ١١٤

كتب بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين فقال له (واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت إنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا، حين أدناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحي باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم وسلما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجاهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصُرُونَ﴾ [هود: ١١٣] ^(١).

ويقول تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

المبحث العاشر

في رحاب آية

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وإن عظم شأن التهليل، ونكرر أن التهليل، هو قولنا، وقول غيرنا، من عباد الله

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش: ٣ / ٤٩٦

المؤمنين، الصالحين، الراجين رحمة ربهم، وعفوه، ورضاه، سبحانه وتعالى، وهو قول الناس أجمعين، ممن آمن بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

وأقول: هو قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي، ويميت، وهو على كل شيء قدير.

ونحن بين يدين مقدمات حول هذا التوحيد، وهذه المقدمات، وتلك الطرف، وهذا البيان، ربما كان أهم؛ ولأننا إذا عرفنا ربنا سبحانه وتعالى، حق المعرفة، وحين قَدَرْنَاهُ تعالى، وقَدَرْنَاهُ، حق قدره، فإن الأمر من بعد ذلك منته تماماً.

ولعله يقود أحدنا إلى قنوته لربه تعالى، ومن ثم يستشعر عظمة هذا الرب، العظيم، القهار، الغلاب، التواب، الوهاب، سبحانه.

ومن ثم أيضاً يسوقه سوقاً إلى الاتباع، والانقياد، وإسلاس القياد لهذا الرب العظيم، سبحانه وتعالى.

ولربما بعدت بعيداً، ورحت سحيقاً، عميقاً، وقلت مرة أخرى: إذا استشعر العبد عظمة هذا الرب، ومنها هكذا دالات هذا الخلق، والإعجاز، والانبهار، والاندعاش، مما خلق ربنا الرحمن، ولربما كان سبباً في إعلانهِ إسلاس قياده لربه، ودون سلطة، ضابطة، حاکمة، أمرة، له.

وهذا قول ربما يكون في الآفاق غير معقول! وإنما أقوله: إنه لمعقول؛ والسبب مرة أخرى، أن لو عقلنا عن ربنا، لأطعنا.

وأن لو علمنا عن ربنا، لقبلنا، وكان من مقتضى قبولنا هذا، هو ذلكم الانقياد، بلا قيد، وهو ذلكم الإخبات، بلا شرط، ولا حد.

قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى في علاه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وهذه آية، فيها العظمة كلها، وفيها الإحاطة كلها؛ ولأنها تضمنت منظومة عظمى، وهالة كبرى، من هذه الهيمنة الربانية المطلقة، على هذا الكون الذي نراه، ما علمنا منه، وما لم نعلم.

وهذه الآية من سورة الأنعام، فيها من التحدي، وكما أنف، والإعجاز، ما تنبهر أمامه العقول، وتندesh عند الافهام.

وعندما اختص ربنا الرحمن، العظيم، الكريم، السميع، البصير، المؤمن، السلام، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، وعندما خص نفسه، وأكرر، تحديا، بهذه مفاتيح الغيب، وإذا كان يمكن لمتحد أن يدعي، وأن يزعم، أن من ملكته إظهار شيء، من هذا التحدي، فيقول: أنت قلت: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].. وها أنا ذا- البعيد- يتججج، ويكأنه هو ذلكم التائه، الحيران، وإذا ليس لديه ثمة شيء من علم الغيب؛ لأن الله تحدى، ومن كتابه، وأنه ليس يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، في علاه.

هذه المقدمة، في هذه الآية، فيها عبر، وبقطع النظر عن تفسيرها، وتأويلها، ونحن نحوم حول معطيات هذا القرآن العظيم، وبما أودع فيه ربنا العظيم، الحليم، من أصول البلاغة، وفنون البيان، وإطراءات الفصاحة، ودالات الخير.

﴿وَعِنْدَهُ﴾: وحين قدم ربك الرحمن شبه الجملة، ﴿وَعِنْدَهُ﴾؛ إمعانا في التحدي أيضا، فليس يكون مفتاح واحد من مفاتيح الغيب، بل كلها، وأجمعها، بعضها، وجزؤها،

وتفاصيلها، ومضابطها، ولما كان سرها عند خالقها سبحانه وتعالى، وعند فقط، ليس عند أحد غيره سبحانه وتعالى.

هذا من إعجازات، وانبهارات، واندعاشات، وعطاءات، هذا الكتاب العظيم.

﴿وَعِنْدَهُ﴾ (هو)، ثم يشمل، ويتبعه ربنا بضمير الغيبة، (الهاء)، فعند الهاء هذه، وبما فيها من اختصاص، عظيم، كبير الشأن، ألا يعلم أحد مفاتيح الغيب كلها، أو بعضها، إلا ربها الخالق، الباري، المصور، العزيز، التواب، العظيم، الوهاب، سبحانه وتعالى، في علاه.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾. وإذ هاهنا لدينا أيضا أسلوب حصر وقصر، زاد المعنى إجلالا، وأوضح البيان أيضا سحرا، وبيانا، ولما كان لا يعلمها هذه المفاتيح الغيب الا هو، (لَا، وَإِلَّا) فيقصر ربنا تبارك وتعالى علم مفاتيح الغيب عليه، وعنده، دون ما سواه، من عبد، أو حر، ذكر، أو أنثى، حاضر، أو غائب، أحد كائنا من كان، من عاقل، أو غير عاقل أيضا، وحين استأثر الله تعالى، وحده تعالى، وأمام هذا الكون كله، وبهذه مفاتيح الغيب!

وهذا دليل الهيمنة، والعظمة، والأبهة، والسلطان القوي، القديم، لربك الرحمن، سبحانه وتعالى.

هذه المقدمة، بين يدي هذه الآية، والحق أقول: كانت كافيته لانبهارنا، واندعاشنا، وخضوعنا، وخشوعنا، وقنوتنا، وإخباتنا، ورضوانا لهذا الرب، العظيم، التواب، القهار، الوهاب.

ولما كان من مكنته تعالى هذه الهيمنة، وهذه العظمة، وهذا السلطان الأقوم، له وحده، دون ما، أو من سواه.

﴿وَعِنْدَهُ﴾. الهاء: ضمير متصل في شبه الجملة، عنده ، ﴿إِلَّا هُوَ﴾. (هو): ضمير منفصل، في ختم مقدمة الآية.

واجتماع الضميرين، المتصل والمنفصل معا، في بدء مقدمة الآية، وانتهاء مقدمة الآية، وأكرر؛ مقدمة الآية؛ لأن هذه المقدمة كانت كافية، وإنما جاء ما بعدها تفصيل من بعد إجمال، ليس أكثر ولا أقل، بل بعض تفصيل من إجمال وفير كثير عظيم الدهشة، من خالق السماوات والأرض ومبدعهما وصانعهما ومتقنهما، على وجه تراه أعجزك وأبهرك وأوقفك عند حدك؛ لأنك لا تملك ثمة شيء في تغيير نظام هذا الملك، الذي قد رأيته أمامك مصنوعا مخلوقا على خير صنعة، وعلى أتقن خلقه خلقها الخالق.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو: ويأتينا قائل ويقول: وما هذه مفاتيح الغيب التي تزعمونها وتدعونها؟! لأسرع وأقول قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه هي مفاتيح الغيب التي استأثرها ربك بعلمه؛ دلالة قيوميته وسلطانه وجبروته، وأيضا رحمته، فإن السلطان دالة على الرحمة قبل النعمة، السلطان دليل وبرهان صفة الرحمانية والعطاء والبذل، وليس صفة الكبراج وإعلاء الصوت، وشهر السيف.

وإن قلت: ما دليلك؟ قلت: قول ربنا الرحمن: الرحمن على العرش استوى. فاستواؤه تبارك وتعالى على العرش، دليل هيمنة وسلطان وجبروت وهالة، لا يمكننا وصفها، وإلا أنه أمام هذه الهالة، هالة أخرى عظيمة أيضا، وحين كان ولما كان من سلطانه وعظمته وقدرته سبحانه وتعالى، وإلا أنه أيضا الرحمن. علم عليه سبحانه وتعالى في علاه.

بل لست أروح بعيدا، وأقول: الرحمن جاءت هنا على المصدرية؛ إثباتا. على العرش استوى، صحيح فيها معنى الاستواء، ولكنه لم يأت مصدرا تأدبا من هذا الإعلان الرباني والسلطان العظيم الرحمن الرحيم.

وحين يهبطنا هذه الهالات وتلك الدلالات؛ ليرحم بعضنا بعضا، ولا يشهرن أحدنا سيفه على رقبة أخيه. فإن الكون فان! وإن الموت قادم! وإن القبر قادم! وإن الكفن قادم! وإن الحشر قادم! وإن وقوف العبد بين يديه ربه قادم، لمن الملك اليوم؟! فلا يغترن أحدنا بقوته، وعنفوانه، وسلطانه، ومن حيث قد مُنَحَ، فإن منحك ربك وإنما هو ابتداء ابتلاء.

وإن عظم شأن التهليل، والتهليل هو قولنا وقول غيرنا من عباد الله المحتاجين الأذلاء لربهم الأعزاء على من طغى، وتجبر، وأبى، واستدبر، واستنكف، والمحبين لربهم، وشرعه، ونهجه، وطريقه، وسبيله، وأمره، والمتتهين، أو المحاولين جهدهم أن ينتهوا عما حرم ربهم، واجتباهم لذلك، إليه كانوا دعاة، أوابين، يأملون بالمعروف، وينهون عن المنكر، بالحكمة، والموعظة الحسنة، ولما كان ذلك هو أمر ربهم الرحمن سبحانه.

التهليل وقولنا لا اله الا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقلنا ونؤكد ونكرر تكرارا ومرارا وأبدا إن تقرير قاعده التوحيد في القلوب يسبقها تقرير معرفة الناس بربهم تبارك وتعالى؛ ولأنهم إذا عرفوا ربهم سبحانه، وقفوا على أمره إتيانا، وانتهوا عما عنه نهى انتهاء. تقريراً فصلاً.

ولأن عباد الله المؤمنين، وحين يعرفون ربهم حق معرفته، ويعلمونه تبارك وتعالى حق علمه.

وبما قد سجل التاريخ، نحن لا نقول كلاما لم يسجله التاريخ، ولا نقول كلاما عافانا الله وغيرنا عبثا. فإن التاريخ قد سجل كثيرا وعديدا من أولئك الصحب الكرام والتابعين، وعلى مر التاريخ أيضا وتابعي التابعين وغيرهم، وغيرهم، وإلى أن تقوم الساعة.

سجل التاريخ لهم وانهم وحين يقولون أو حين يفعلون وإنما ليسوا يحسبون لأحد حسابا. وإنهم حين يفعلون أو يتتهون، وإنما يديرون وراء ظهورهم كل كائن إلا رب العزة والجلال سبحانه؛ ولأنه قد جاءت مدحه قوم كانوا من هذا الصنف، وهذا الوصف، وهذا النعت، وحين قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وما جاء من نعتهم في كثير من آي القرآن الحكيم، والذكر العظيم المبين، في نعته القرآن لأولئك الصحب الكرام، لنيي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وحينما قال ربك الرحمن أيضا: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَطْرُهُ فَفَازَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ... ﴾.

الحاصل أن هذا التوحيد، وعندما يغرث في القلوب غرسا، ويزرع في الأفئدة زرعا، ويثبت عند أولي النهى ثبنا، وإنما تكون هنالك قيادة ذاتية، ينخلع عنها الفؤاد، ولا طاقة له في ردها، نحو ربها الرحمن سبحانه وتعالى. وهذا هو قول الناس: تحقيق منتهى العبودية لله تبارك وتعالى، وهو قول الناس أيضا، وحين كان من تحقيق هذه العبودية لله العلي الأعز الأكرم، أن لها جناحين: جناح المحبة كله، وجناح الذل كله.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه إلا لا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: وحين أنف البيان أن مفاتيح الغيب خمس، وكما جاء في نهاية واختتام سورة لقمان، من قول ربنا

الرحمن سبحانه وتعالى، إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير.

ولست أريد أيضا أن أقف كثيرا عند هذه الآية، وبقدر ما أريد أن أبين شيئا، وتشعره، وتذكره، وتعرفه، وتقف عليه، ويثبت لديك، أن هيئات الأرصاد الجوية، على اختلاف مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، بجهاتها الأصلية والفرعية معها، وما بين هذا وذاك! وحينما يعلنون، وعندما يكون لدى هذه الجهات من الأدب والوقار مع ربها أن تقول: تشير التوقعات الجوية أو الطقس أو المناخ، أنه سوف تسقط أمطار في المكان الفلاني كذا كذا وهكذا، أو إنه سوف تهب رياح على المنطقة الجنوبية الغربية من كذا وكذا، ثم إنني ألاحظ وأنتم تلاحظون معي أيها الكرام.

سبحان الله! ويأتي الجو صفوا! والمناخ عدلا! والطقس جميلا! والشمس ساطعة! في ضحاها! وفي ظهرها! وفي عصرها! الى مغربها وعشائها! وأين ما أشارت إليه التوقعات؟!

لا؛ لأن هذا استئثار علم الغيب بالله العزيز الحكيم المهيمن الرقيب الحميد المجيد الغفار القهار التواب سبحانه.

نحن لا اعتراض لدينا أن تقول وأن تشير التوقعات. هذا لاعتراض لنا عليه أبدا. ولكني أقول فقط: مهما توقعوا إلا أن الله تعالى يأتي من غيبه بما لم يتوقعه أحد؛ طلاقة ربانية لقدرة مطلقة أن هذا الغيب ليس يعلمه إلا الله تبارك وتعالى في علاه.

فقط هذا الذي أريده أن أبينه لنفسي؛ لأخضع وأخضع وأقشعر وأخبت وأطاطى وأركع وأسجد لهذا الرب الخلاق، المنان، العظيم، ذو السلطان القديم سبحانه وتعالى.

ويعلم ما في الأرحام: ولست أريد أيضا، وكذلك أن نهيج مع الهيجان، أو أن نثور مع الثوران، أو أن نفور مع الفوران، وحين يقال لك: إن العلم اكتشف معرفه الجنين ذكرا أو أنثى!

والمعتبر أليس هذا هو المقصود من قول ربك ويعلم ما في الأرحام! لأنك عندك الحديث الآخر وعندما قال نبيك صلى الله عليه وسلم، حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق المصدوق- قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة^(١).

موضوع الأرزاق علم غيب مطلق، السعادة علم غيب مطلق، شقاء علم غيب مطلق، وغير ذلك، إن الله عنده علم الساعة، الساعة علم غيب مطلق.

ولهذا كان جبريل الملك الحبيب الكريم البار عليه صلوات الله وسلامه يسأل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، يقول له أخبرنا عن الساعة، ويكأنه يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالك يا أخي يا جبريل، عليك سلام الله، أنا محمد بن عبد الله، ابن امرأة كانت تأكل القديد، والذي رعت الغنم في بطحاء مكة! أفأنا هذا العبد أعرف ما لا تعرفه أنت! وأنت قادم من فوق! من عند الملكوت الأعلى! من قرب سدره المنتهى؟! ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

وحين ذلك قالوا له: قل لي علامة منها، نعم وهذه أنا-أي الرسول صلى الله عليه وسلم- أقدر عليها! أستطيع أوافيك علامة! ومنه فإن استثثار ربنا بعلم الغيب، من

(١) صحيح البخاري: ٣٢٠٨

طلاقتي القدرة الربانية، وعظمة الهيمنة الإلهية، وموجب القيومية، ودليل السلطان، وبرهان القوامة، لله سبحانه وتعالى في علاه.

ويعلم ما في الارحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا: وإن هذه حكمة ربانية، فإن الله تعالى لو فتح خزائنه، وضمن كل رزقه، لفقدت العبودية! وما وجد أحد عبدا؛ لأننا مقهورون، مأمورون، مغلوبون، أن نرفع أكف الضراعة إليه تعالى أبدا، أن يرزقنا، أن يتحننا، أن يبسط لنا رزقنا، وأن يبارك لنا فيما رزقنا، وأن يرزقنا حلالا طيبا زكيا كثيرا طاهرا مباركا فيه.

ولولا إخفاء وتغيب هذا الرزق عنا معاشر البشر، لفقدنا عقيدة التوكل، ولغاب عنا رفع اليدين إلى باسط يديه بالرحمة، ربي الرحمن سبحانه.

وما تدري نفس بأي أرض تموت: وهذا حجاج أن الله عليم وحده، خبير وحده، فلا يعلم الغيب الا الله، وأؤكد وأكرر أن إطلاق هذا الغيب واختصاصه بربنا الرحمن سبحانه وتعالى، دليل قدرته وعظمته وسلطانه وقدمه وأزله وأبديته ورحمته وجوده ومنه ولطفه وكرمه وإحسانه وفضله علينا، وإلا فقدنا أساسات العبودية لله تبارك وتعالى، فكان هذا تعظيما لربنا من جانب، واهتماما بنا نحن المعاشر المساكين من جانب آخر.

نحن نريد أن نشعر بلذة العبودية لربنا، وحينما نحسن توكلنا عليه تعالى، وحينما نضطر أن نرفع إليه أكف ضراعتنا، أن يبسط لنا من جوده وفضله وكرمه وإحسانه.

إن عظم شأن التهليل، ونكرر أن التهليل هو قولنا وقول غيرنا من عباد الله المؤمنين الصالحين، الراجين رحمة ربهم وعفوه ورضاه سبحانه وتعالى، هو قول الناس أجمعين ممن آمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

ونحن بين يدين مقدمات حول هذا التوحيد، وهذه المقدمات، وتلك الطرف، وهذا البيان، ربما كان أهمه؛ ولأننا إذا عرفنا ربنا سبحانه وتعالى حق المعرفة، وحين قدرناه تعالى وقدرناه حق قدره، فالأمر من بعد ذلك منته تماما.

ولعله يقود أحدنا إلى إخبائه لربه، ومن ثم يستشعر عظمة هذا الرب العظيم القهار الغلاب التواب الوهاب سبحانه، ومن ثم أيضا يسوقه سوقا إلى الاتباع والانقياد وإسلاس القياد لهذا الرب العظيم سبحانه وتعالى.

ولربما بعدت بعيدا ورحت سحيقا عميقا، وقلت مرة أخرى: إنه إذا استشعر العبد عظمة هذا الرب، ومنها دالات هذا الخلق، والإعجاز، والانبهار، والاندھاش، مما خلق ربنا الرحمن، ولربما كان سببا في إعلانة إسلاس قياده لربه، ودون سلطة ضابطة حاکمة آمرة له!

هذا قول، ربما يكون في الآفاق غير معقول، وإنما أقوله إنه معقول؛ والسبب مرة أخرى أن لو عقلنا عن ربنا لأطعنا، وأن لو علمنا عن ربنا لقبلنا، وكان من مقتضى قبولنا هذا هو ذلكم الانقياد بلا قيد، وهو ذلكم الإخبات بلا شرط ولا حد.

و مرة أخرى، وحين قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى في علاه: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: وإن هذه الآية فيها العظمة كلها وفيها الاحاطة كلها؛ ولأنها تضمنت منظومة عظمى وهالة كبرى من هذه الهيمنة الربانية المطلقة على هذا الكون الذي نراه ما علمنا منه وما لم نعلم.

وهذه الآية من سورة الأنعام فيها من التحدي وكما أنف، ومن الإعجاز ما تنبهر أمامه العقول، وتندھش عنده الأفهام، وعندما خص ربنا الرحمن وربكم العظيم الكريم السميع البصير المؤمن السلام المهيمن العزيز الجبار المتكبر وعندما - خص - نفسه،

وأكرر تحدياً بهذه مفاتيح الغيب، وإذ كان يمكن لمُتحدٍّ أن يدعي وأن يزعم، أن من ملكته إظهار شيء من هذا التحدي، فيقول: أنت قلت: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وها أنا ذا- البعيد- يتبجح، ويقول إنه عنده بعض هذا العلم الغيبي!

وأقول: ليس لديك ثمة شيء من الغيب! لأن الله تحدى في كتابه، وأنه ليس يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى في علاه، وحين قال: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو. في هذه المقدمة في هذه الآية والتي فيها من العبر وبقطع النظر عن تفسيرها وتأويلها.

نحن نحوم حول معطيات هذا القرآن العظيم، وبما أودع فيه ربنا العظيم الحليم من أصول البلاغة وفنون البيان وإطراءات الفصاحة ودلالات الخير والتبغات العظام.

وعندما قدم ربك الرحمن شبه الجملة: وعنده؛ إمعانا في التحدي أيضاً، فليس يكون مفتاح واحد من مفاتيح الغيب بل كلها وأجمعها بعضها وجزؤها وتفصيلها ومضابطها وسرها عند خالقها سبحانه وتعالى.

وعنده فقط ليس عند أحد غيره سبحانه وتعالى. هذا من إعجازات وانبهارات واندعاشات وعطاءات هذا الكتاب العظيم.

(وعنده) هو، ثم يشمل ويبتعه ربنا بضمير الغيبة هو، عند الهاء هذه أيضاً فيها اختصاص عظيم كبير الشأن، ألا يعلم أحد مفاتيح الغيب كلها أو بعضها إلا ربها الخالق البارئ المصور العزيز التواب العظيم الوهاب سبحانه وتعالى في علاه.

وعنده مفاتيح الغيب إلا يعلمها إلا هو: عندك أيضاً هنا أسلوب حصر وقصر، زاد المعنى إجلالا، وأوضح البيان أيضاً سحرا وبيانا.

لا يعلمها هذه المفاتيح الغيب إلا هو، (ما وإلا)، لا يعلمها إلا، أسلوب الآية الحصر، فيقصر ربنا تبارك وتعالى علم مفاتيح الغيب عليه وحده، وعنده دون ما سواه، من عبد

أو حر، ذكر أو أنثى، حاضر أو غائب، أحد كائنا من كان، من عاقل أو غير عاقل
أيضاً استأثر الله أمام هذا الكون كله، بهذه مفاتيح الغيب.

وهذا دليل الهيمنة والعظمة والسلطان القويم القديم لربك الرحمن سبحانه وتعالى، هذه
المقدمة بين يدي الآية، والحق أقول كانت كافية لانبهارنا واندھاشنا وخضوعنا
وخشوعنا وقنوتنا وإخباتنا ورضوانا لهذا الرب العظيم التواب القهار الوهاب، ولما كان
من مكتته هذه الهيمنة وهذه العظمة وهذا السلطان الأقوم له وحده، دون ما أو من
سواه.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو: عنده ضمير متصل في شبه الجملة عنده، إلا هو
ضمير منفصل، في ختم مقدمة الآية، واجتماع الضميرين المتصل والمنفصل معا في بدء
مقدمة الآية وانتهاء مقدمة الآية، وأكرر مقدمة الآية؛ لأن هذه المقدمة كانت كافية، وإنما
جاء ما بعدها تفصيل من بعد إجمال، ليس أكثر ولا أقل، بل بعض تفصيل من إجمال،
وفير، كثير، عظيم الدهشة، من هكذا قدرة خالق السماوات والأرض ومبدعهما
وصانعهما ومتقنهما على وجه تراه أعجزك وأبهرك وأوقفك عند حدك؛ لأنك لا تملك
ثمة شيء في تغيير نظام هذا الملك، الذي قد رأيته أمامك مصنوعاً مخلوقاً على خير
صنعة، وعلى أتقن خلقة، خلقها الخالق.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو: ويأتينا قائل ويقول: وما هذه مفاتيح الغيب التي
تزعمونها وتدعونها؟! لأسرع وأقول: قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى: إن الله عنده علم
الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله
عليم خبير: هذه مفاتيح الغيب التي استأثرها ربك بعلمه دلالة قيوميته وسلطانه
وجبروته.

وأيضاً رحمته فإن السلطان دالة على الرحمة قبل النعمة، السلطان دليل وبرهان صفة
الرحمانية والعطاء والبذل، وليس صفة الكبراج وإعلاء الصوت وشهر السيف.

وإن قلت: ما دليلك؟ قلت: قول ربنا الرحمن على العرش استوى فاستواؤه تبارك وتعالى على العرش دليل هيمنة وسلطان وجبروت وهالة لا يمكننا وصفها، وإلا أننا أمام هذه الهالة، هالة أخرى عظيمة أيضا، وحين كان ولما كان من سلطانه وعظمته وقدرته سبحانه وتعالى، وإلا أنه أيضا الرحمن علم عليه سبحانه وتعالى في علاه.

بل لست أروح بعيدا وأقول: الرحمن جاءت هنا على المصدرية إثباتا، على العرش استوى صحيح، فيها معنى الاستواء، ولكنه لم يأت مصدرا تأدبا من هذا الاعلان الرباني والسلطان العظيم الرحمن الرحيم.

وحين يهبنا هذه الهالات، وتلك الدلالات؛ ليرحم بعضنا بعضا، ولا يشهرن أحدنا سيفه على رقبة أخيه.

ومرة أخرى: إن عظم شأن التهليل والتهليل هو قولنا لا إله الا الله وحده يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وهذه الحقيقة المطلقة، وهي توحيد ربنا الرحمن سبحانه وتعالى، وإنما يكون العباد عليها قائمين، وحين يعرفون ربهم حق معرفته، سينقادون ويطيعون ويتبعون ويأتمرون ويتنهون وينزجرون، وعن ذوات من أنفسهم التي بين قلوبهم، ولسنا نجد طريقا حسنا طيبا زكيا لتعريفنا نحن معاشر البشر المساكين بربنا سبحانه وتعالى وأفضل من هذا القرآن العظيم الذكر الحكيم؛ ولأنه قد حوى من المفردات والمعطيات ومن البراهين والدلالات القاطعات، أن هذا الرب العظيم سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد لم يكن له كفوا أحد سبحانه وتعالى في علاه.

وحين قال ربنا الرحمن سبحانه وتعالى: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

هنا وقفات نسأل الله العون والتوفيق عليها: وعنده مفاتيح الغيب، هذا شأن معنوي ليس تجسيميا إحساسيا، فكيف كان يمكن الجمع بين ما ليس حسيا بل معنويا، وهو هذا الغيب، وما هو حسي مادي، وهو هذا المفتاح؟ قالوا إن ذلك من باب الاستعارة، وهذا من بلاغة قرآننا ولتقريب الأمر إلى أذهاننا هذا أولا.

وثانيا: دل على إحكام القبضة الربانية على خزائن غيبه، دلالة أنه جعل له مفتاحا بل مفاتيح وجمع مفتاح أتت أيضا برهنة ودليلا وموجبا لعظم شأن هذا الغيب كله.

ولذا كان من طلاقة قدرة ربنا الرحمن سبحانه وتعالى أنه لا يعلم الله الغيب كله لا يعلمه سواه، ونكرر هذا مطلق السلطان والعظمة، ومن حيث تبارك وتعالى ولأن ربك الرحمن قال إن علم شيء من هذا الغيب لا يعلمها إلا هو، ومن حيث كان ربك الرحمن هو الذي يعلم الغيب وحده، فإن من ادعى علم شيء من هذا الغيب فكان كافرا بربه تبارك وتعالى؛ ولأن ربك الرحمن قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب^(١). أي أن من يؤمن بالكواكب والنجوم والأبراج اعتقادا ويقينا منه بما يسمى بالأبراج وما سواها فإن ذلك من باب ادعاء علم الغيب الذي استأثر ربنا تبارك وتعالى بعلمه.

وأراد ربك أن يأخذك إلى بر الأمن والأمان والسلم والسلام، ولا تعتقدن، أو لا تعتقدن أحدا أن هذا التأديب الرباني وإنما هو من إلف وحنو إلهيين علينا معاشر البشر، وحين يعلمنا ويهذبنا ويخلقنا ويرينا سبحانه وتعالى على مائدة الالتجاء إليه تعالى وحده؛ ولأنه ليس يملك نفعا سواه وليس يملك ضرا إلا إياه تبارك وتعالى.

(١) صحيح البخاري: ٨٤٦

وهذه حقيقة وحيثية يكون حسن ظننا بربنا أمامها؛ ولذا فقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: من أتى عرافا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة^(١).

وإذا أتى العراف أحد وسأله واعتقد ما قاله فهو ذلكم المشرك الكافر، لماذا؟

لأن ربك أراد أن يربينا على مائدة الالتجاء إليه وحدهن والالتجاء إليه وحده هو هذه العبودية المطلقة لله وحده، وفيها إعزاز لنا معاشر البشر المساكين وإكرام لنا منه سبحانه وتعالى في علاه. فمن ذا الذي يملك لك من الله شيئاً؟

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر: البر هو هذه الكرة الأرضية بأبعادها السحيقة من البر والبحر، من المخلوقات العظام والعجائب، ما يوجد ما يوجب الاندهاش والانبهار أمام قدرة ربك الرحمن سبحانه وتعالى.

وانظر كيف قال علماء الأحياء شيئاً واحداً، علماء الأحياء وعندنا علماء البيولوجيا وعلماء الفيزياء وعلماء الكيمياء والرياضيات والفلك. قالوا فقط أهل الأحياء عما يسمى بالبكتيريا هذه الكائنات الدقيقة بارك الله فيك، وعندما كنت أقرأ بقرا في كتاب علم الأحياء أن عدد أعداد الكائنات من البكتيريا - مملكة البكتيريا - بارك الله فيك وضع تحتها: وتعيش في الجو، تعيش في البحر، وتعيش في الأماكن العذبة، والأماكن الرطبة، والأماكن المالحة، وما جمعت بين هذا وهذا! لا إله إلا الله! هذا خلق واحد تعداده (٢٠٠, ٠٠٠) مائتا ألف!

وحيال ذلك وغيره، اعلم أنك ما أوتيت من العلم إلا قليلاً، وجمعا بين هذه الآيات وغيرها، ومما قال ربنا الرحمن ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ ويعلم ما في البر والبحر، هذا إجمال، ثم يأتي ربنا فيفصل قليلاً من هذا الإجمال، وما تسقط من ورقه الا يعلمها، ورقة واحدة! ليست

(١) صحيح مسلم: ٢٢٣٠

تسقط، وليست تنبت، وليست تظهر، وليست تورق، وليست تخضر، وليست تحمر،
وليس تزرق، وليست تصفر، إلا بعلمه.

وهذه الآية التي بين أيدينا من سورة الأنعام كثر فيها أسلوب الحصر:

١- وعنده مفاتيح الغيب ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا﴾

٢- وهنا ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

هذا الأسلوب الحصري القصري يحكم الآية ويضمها، ويمكنها، ويقويها، ويجعل بعضها
مؤتلفا مع بعض، منسجما مع بعض، مترابطا مع بعض لتحكي كلا عظيما شأنه،
موجبا للإخبارات والقنوت والخضوع والسكون والخشوع لرب كان هذا خلقه سبحانه
وتعالى.

وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في
كتاب مبين: أحصى ربك كل شيء عددا، وهذا كذلکم برهان الهيمنة والعظمة
والسلطان القويم القديم الأزلي الأبدي لربنا الرحمن.

فمن ذا الذي يحصي ما في البر والبحر؟ وقفت مرة وأنا أقرأ في سمكه البلطي كما قلنا
في البكتيريا مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠). فكذلك هذه نوع سمكة واحدة من عائلة المملكة
السمكية اسمها سمكه البلطي، يعرفها كلنا، ولما كان منها مائة نوع! وكذا خمسة عشر
ألفا ومن أنواع الدودة الأرضية! وغيره وسواه أيضا!

وإحاطته تعالى أن يكتب، ولماذا قال كل في كتاب؟ هذا من باب السبب؛ ولإعلامنا نحن
معاشر البشر، لأننا ننسى، وربك ليس ينسى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿٦٤﴾
[مريم: ٦٤]. إنه سبحانه وتعالى ليس ينسى؛ من قدرته وعزته وجبروته وسلطته وقيوميته
سبحانه وتعالى في علاه.

وكما قالوا إن العلم صيد وإن الكتب قيد؛ لأننا ننسى، ولكن ربك ليس ينسى.

ويظل السؤال موجود: ولم في كتاب مبین؟ ولعله أيضا من باب، وعندما تتخيل أن قدرة كان بإمكانها أن تحصى وتحفظ وتكتب، هذا الكم الهائل الخطير الذي نعجز عن إحصائه وعده عددا، فإنما ذلك كان موجبا لإخباتنا أكثر، وخشوعنا أعظم، وإدراكنا أوفر، نحو هذه القدرة، التي ليس يقيدوها قيد ولو شيئا، وليس يحدها شيء ولو شيئا أيضا.

إلا في كتاب المبین، هذا من أساليب الحصر والقصر، التي اغتنت بها هذه الآية واتسمت بها أيضا:

الأول: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا.

والثاني: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها.

والثالث: ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا.

ثلاثة أساليب إحكاما وضبطا وتقوية وتمتينا لهذا الأداء القرآني السامي العالي السامق الرفيع. وليدلك وليوقفك على هكذا قدرة وحكمة تميز بها هذا الرب العظيم، واختص بها وانفرد، وتفرد؛ ليجبرك إجبارا أن تتخذة ربا واحدا وإلها واحدا فلا تأتمرن إلا من أمره ولا تنتهين الا عن نهيه.

وهذه هي خلاصه ديننا الاتمار بأمر الله والانتهاه عما نهى عنه الله، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه قال: ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب

من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه ، فإن لم يقرؤه فله أن يعقبهم بمثل قراه^(١).

ولأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ ﴾ [النساء: ٦٩].

جمع ربك بين طاعته وطاعة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحين قال أيضا: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

ونحن ولا زلنا بين يدي هذه الآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام، وهذه الآية، والحق يقال حوت وتضمنت من أوجه البلاغة والإعجاز، وكما أنف أيضا، ما تنبهر عنده وأمامه العقول والأفهام، وهذه آية من آي القرآن الحكيم كله، وكل آي القرآن العظيم، وإنما عند الوقوف أمامها اعتبارا وتدبرا وتفكرا وتذكرا، وإنما يكون هذا أيضا من موجه الإخبات والخشوع والمعرفة والعلم بهذا الرب العظيم المتعال سبحانه وتعالى في علاه.

ومنه يكون موجب الانقياد، ولما كانت هذه الآية ومن إعجازها واندھاشها وانبهارها وقوتها وعظمتها وبلاغتها وفصاحتها ومن سياجها وظلها الوارف ومعانيها المختلفة المتضامة المتضامنة المنسجمة المتسمة؛ ولأنه من إنزال وتنزيل رب العزة والجلال سبحانه وتعالى.

هذه الآية نزل يزفها إلى معاشر أهل الارض اثنا عشر ألف ملك! أفلا يدلنا هذا على خصيصة لهذه الآية الكريمة؟ وأكرر وعندما ينزل اثنا عشر ألف ملك، يزفونها إلى أهل الأرض!

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٤

والحق أقول أيضا وهي جديرة بهذا الاعتبار، ما علمنا منها وما لم نعلم، وإنما نحن ندور في فلكها، ونلف حول سياجها، ولعلنا بعد دعائه تبارك وتعالى واستمطار منّهِ وجوده بعلم وفضل ورزق حسن؛ لندلي به لنا ولغيرنا يكون زادا على الطريق، وعرفانا بهذا الرب العظيم المتكبر الجبار القهار الغلاب الوهاب سبحانه وتعالى.

قال ربنا الرحمن سبحانه: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: وعند: العندية ها هنا عندية استئثار وتفرد وانفراد وليست عندية الحيز والمكان؛ ولأن ربنا الرحمن سبحانه وتعالى في عقيدة أهل البيان والجود والعلم والفضل والإحسان، وإنما ليس يحده مكان ولا يحوطه زمان سبحانه وتعالى. والله عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن والقباض والباسط والمحبي والمميت والمجيد والحميد والرقيب، له الأسماء الحسنى وله الصفات العلا، بلا كيف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تشبيه.

فعندما نقرأ قوله تبارك وتعالى: وعنده: يتبادر إلى أذهاننا أمران:

الأمر الأول: هو نفى الحيز والمكان عن ربنا الرحمن. هو الوقوف عند هذه العندية وأن نؤولها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا بحيث يدخلنا إلى ما هو المقصود منها وهو إحاطة ربك الرحمن بهذا الكون العظيم كله؛ ولقول ربك الرحمن أيضا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُكَلِّمُ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وعنده مفاتيح: وقف الناس عند كلمة مفاتيح، وقالوا هل المقصود من مفاتيح هذه أن أصلها مفتاح وهو الخزائن، أو مفتاح وهو ما يفتح به الخزائن؟

والواقع أنني لست أريد أن أجول في هذه الدائرة كثيرا ولا اعتبار أن من ملك المفاتيح فإنما يملك خزائنها، وكذا فإن من يملك الخزائن وإنما أيضا يملك ما تفتح به هذه الخزائن.

وبه ذلك على الإحاطة المطلقة لمن ملك الخزائن، وما تفتح به هذه الخزائن.

وعنده مفاتيح الغيب: مفاتيح الغيب؛ تشريفا لهذا الغيب، وتقديرا للذي خلق الغيب، تقنت له النفوس، وتستشرف تداعياته وعظماته وأخباره ودلائله ودالاته وآلائه وآياته ومعانيه، وما يتضافر حولها من نسيج يؤهلنا للخشية والاعتبار والعظة والتذكر والخضوع والاستكانة والركوع لهذا الرب العظيم المنان.

ولكن هذا الغيب، وكما أنف؛ ولأنه أمر معنوي غير محسوس، فكان شرفا وتشريفا له، ولمن خلقه واستأثر به، وهو الله ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

ولكنه هنا وقفة: ولما كان الغيب بهذه المثابة، وحين ننجز بأفهامنا إلى قول ربنا: ﴿إِنَّ قَدَرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَأَتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [القصص: ٧٦-٧٧]

وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ: وهذا شأن البشر ضعف وخور! وهذا شأن رب البشر، وعنده مفاتيح الغيب، قوة قاهرة وسلطان غلاب لهذا الرب الوهاب سبحانه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى، ومفاتيح قارون لمال زائل أدى به إلى أن يخسف الله به وبداره الأرض ويكنوزه وبمفاته! يخسف الله تعالى كل هذا؛ ولأن القلوب قد تعلقت بهذا المتاع الزائل، ولم تسند ولم تشكر ربها الذي تفضل بهذا المتاع على عبيد الله.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر: تقديم البر على البحر في سياق القرآن الحكيم أمر مقصود ربانيا ولا ينبغي الوقوف فقط عند قول الناس إن حرف الواو العاطف يفيد المشاركة وحدها.

لا هو يفيد المشاركة والترتيب أيضا، ويعلم ما في البر والبحر؛ ولما ولأن أذهان الناس ومعرفتهم بالبر أوسع؛ ولأنه مكشوف عادة، أو جزء منه، حتى نكون منصفين أمامك من حبه وورقه ويابسه ورطبه، ما هو مكشوف منه جزء كبير، لك الاطلاع عليه رحمة ومنة.

أما البحر فغائر سحيق عميق في ظلمات ثلاث، لا يدركه إلا من عاجله، فكان أيضا هذا من استحقاق ربنا العظمة والجبروت والقوة والتفرد سبحانه وتعالى؛ ولذكر البر أولا ولذكر البحر ثانيا.

وهناك ضبط وربط وإحكام بين طرفي الآية: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وبين قوله تعالى: ويعلم ما في البر والبحر، هذه العلاقة تحكي صورة من تقريب المعلوم الذي ربما كان عند العقل شيئا بعيدا فيقربه ربك الرحمن يسيرا؛ للتقريب إلى الأفهام.

فلما كان ربنا الرحمن سبحانه وتعالى قد أطلعك على شيء مما في البر، ومما في البحر، وقد أدركت هذا وأحطت به علما، ووقفت عليه بنفسك، دلالة أنك الذي اخترعت واكتشفت وأزلت الستار عما كان عنك مخفيا من عطاءات ربك في البر، ومن منح ربك في البحر، فلما قد أحطت من ذلك بعض علم؛ لأنك لا تحيط بكل علم، فكذا لا تستغربن ولا تحيلن على عقلك أن يستوعب قدرة ربك الرحمن تبارك وتعالى في علاه أن يستأثر بعلم غيب مطلق لديه وعنده وحده.

ولا شأن لك بهذا العلم الغيب؛ لأنك إذا أردت أن تحوم حول دائرة الغيب الذي لا طاقة لك في استيعابه، فلربما ضللت، بل ضللت؛ ولأن الله تبارك وتعالى له العظمة والقيومية والقهر والغلبة سبحانه وتعالى.

فكان حريا أن يستأثر بشيء عنده أسماء علم الغيب؛ دلالة مرة أخرى أنه قد أطلعك على ما أراد أن يطلعك عليه، وأن يوقفك عنده؛ لتخر ساجدا لله قانتا راهبا راغبا ساعيا جاهدا، أن ترضي هذا الرب الخلاق، بأن تقف عند أمره آتيا، وعند نهيه منهيا.

وهذا هو مطلق عبوديتنا لربنا الرحمن تبارك وتعالى في علاه، وهذه وشيجة الربط والاحكام والضبط بين كونه تعالى يعلم الغيب.

وإذا كان قد أحيل عند عقلك فلا يحال عند استحضار أنه قد فتح لك آفاقا واسعة.

وأكرر ليست كل الآفاق الواسعة آفاقا واسعة رحبة تستطيع من خلالها أن تحقق سعادة يومك ومعاشك؛ لأنك حين تستحضر هذا، أو شيئا من هذا الذي منحك ربك إياه تبارك وتعالى، ومن كون هائل عظيم من بره وبحره وسمائه وأرضه ومناخه وطقسه وقعره وسحيقه وعميقه، فإنك لتشعرن بجلال الهيبة وجمال الرب العظيم المتعال وجلاله معا.

وحين قد أطلعك على شيء من هذا الذي أنف؛ ليتفرد ربنا الرحمن تبارك بكل آيات الجلال وبكل سحائب الجمال تبارك وتعالى في علاه.

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر: إن البر والبحر آيتان من آيات ربك الرحمن، وانظر إلى البحر حين وصفه ربنا الرحمن تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُوهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]: أو كظلمات في بحر لجي هائج مائج وليس فحسب أنه ظلمات وخلاص! لا وهو لجي! وانظر إلى التضعيف

والتشديد في بحر لجي، وقد أتاكَ ومنحك هالة عظمى يخبت أمامها قلبك قبل بصرك
لهذا الرب الذي كان من مكنته أن يخلق بحرا موجا يغشاه موج!

وأدر بالك: موج جمع موجة! يا الله! لا إله إلا الله، أليس كان يكفي موجة؟! فأتى لك
بالموج يغشاه موج، من فوقه ماء، وهذا جمع لموجة أخرى! إذا أخرج يده، من البحر،
وهو عميق، وتحت هذا العمق السحيق العميق لم يكد يراها!

والذي لا يؤمن بهذا الذي حكيناه وطرحناه وذكرناه ونسخناه! ومن لم يجعل الله له نورا
فما له من نور!

طفت مع هذه الآية في سياحة كبيرة جليلة فضيلة، وكان قد استراح فؤادي أن ربك
الخالق العظيم قد أرانا من عجائب قدرته ما تطمئن به قلوبنا، وما يستقر به يقيننا، بك
يا ربنا ربا واحدا أحدا فردا صمدا لم تلد ولم تولد ولم يكن لك سبحانك كفوا أحد
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا صلى الله عليه وسلم.

النتائج والتوصيات

أولا: النتائج

الاعتبار بالتذكّار بما ورد من قصص في القرآن وأخبار

إن أهم ما يلفت النظر، وإن أول ما يستثير البصر، هو ذلكم الربط المحكم بين ذكر
قصصه تعالى في القرآن المجيد وبين توحيده تعالى.

وذلك لأنني قد أشبعت ذلكم الأمر حثيثا أثناء دراسة أيقونات البحث الزاهرة العديدة.
وعلى طول ساحته المديدة.

وكان من شأن ذلكم أن أثني لها ذكرا حصيفا، وأن أثلت بها مقاما متقنا، وأن أربع بها بياننا منيعا وطيدا، ولا أكاد أسكت!

ذلك لأن ربطا وثيقا حريزا بين ذكر أمره تعالى بالاعتبار بسننه التي أجراها في ملكوته سبحانه، وبين كونه رب هذا الكون كله، فلا رب سواه، وهو سبحانه إله العالمين، ومنه فلا يسع أحد أن يخرج عما شرع، أو أن يغير أو يبدل فيما حكم.

وهذا هو شأن الرباط الوثيق بين دراسة أمره تعالى لتاريخ قد أورده في القرآن، لإحقاق حق مقتضاه أنه إله العالمين، كما أنه تعالى رب العالمين!

وتلك خلاصة بدهية، وهي مسلمة تعبدية، ولولا ما قد رأيناه من خروج عن سبيلها - وغيرنا - لما كان لذكرها من موجب!

ولكنه الاعتبار، ولكنه الاستبصار، ولكنه التذكار.

وهو سبحانه قد أفاض بياننا في كتابه الحكيم وذكره العظيم القرآن الكريم ما يشي أن تكون هذه كلية الكليات، وأصول الخيرات، وينايع الهدايات، وكنوز الرشد والإرشادات، إلى خالق الأرضين والسموات، بحيث لا يكون ثمة ما تتعلق به القلوب سواه، وبحيث لا يوجد من تهفو إليه الأفئدة غيره.

وما ذاك إلا لأنه هو الله تعالى ربنا، وهو الله تعالى خالقنا، وهو الله تعالى رازقنا، وهو الله تعالى ترنيمتنا أبدا ما حيينا، وهو الله تعالى أبدا ما بقي فينا عرق ينبض، أو نفس تجود بين الأضلاع، وما بقيت فينا روح تسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار!

وذلكم كائن، لأنه هو أوجب الواجبات، وذلكم لأن ذلكم هو أحق الحقوق، وذلكم لأنه موجب الشكر، وسند الحمد، وغاية الخلق، إذ كما قال الله تعالى ربنا الرحمن ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومنه أكون قد قلت صوابا، أن ربطا متينا بين قضية الألوهية وبين سائر ما حفل به الذكر المجيد هو غاية مراده تعالى منا نحن العبيد الضعفاء المساكين إلى منه وفضله وجوده وكرمه وعطائه وإنعامه، وذلكم هو أيضا من مقتضى علمنا به عنه سبحانه أنه هو البر الرحيم، لأن ذلك هو مقتضى قوله الصدق المبين أن ألهم عبيدا له كان ظنهم فيه خيرا فقالوا عنه سبحانه بما هو تعالى أهله ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٨].

وأن بما قد كان من وصفه لنفسه موجبا على ذات نفسه كرما منه تعالى وفضلا كان من شأنه إحسانه، ومن لطف بيانه، كيما يستشعر أحدنا رغبة إلى فضله، وكيما يطمع أحدنا رجاء منه وجوده وكرمه، ولطفه وهداه، وذلكم حين قد نعت نفسه الكريمة نعتا هو حقها، ووصفا هو يقينها، فتراه قد أفاض علينا من آثارها، وتراه قد أغدق علينا من عطائها، فقال سبحانه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وأنه هو الرحمن الرحيم، وأنه هو سبحانه هو الرؤف الرحيم، فتلك بعض من صفاته، وتلك خصلة من نعوته، الهادرة بالخيرات المفعمات بالإحسان، والفائضة بالرحمات، والمفعمة بالرفقات، حيثما حلت معانيها، وبالمغفرة حيثما فاضت مقاديرها، وبالبر أينما كانت آثاره، وبالكرم وقد أينعت ثماره!

والقول بذلك أمر واجب، وحتم أراه ربطا ضروريا بين كونه تعالى قد أمر، وبين كونه تعالى قد ذكر، وبين كونه تعالى قد غمر، بأفضاله السابعة، وبأنواره البارقة المشرقة النيرة الفضفاضة، بكل ما هو جميل يريح متعبا، ويطمئن مرجفا، ويؤمن خائفا!

وذكره تعالى وأمره حيثما نظر إليه من ذلكم جانب حقت السعادة، ووجبت الريادة، واستحقت السيادة، على سائر أممه، وعلى كل خلقه.

وذلكم هو مقتضى تمكينه لمن انتصب أمام أمره، وذلكم هو أثر إعماله لمن حالف منهجه وذكره وأمره ونهيه. وذلك أفهمه من فيوضات ذكره، وذلك أعلمه من معاني قوله ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

بحيث قد كان الاستغراق في الدين، وبحيث قد كان الاسترواح بذكر ذي القوة المتين، وهو من حيثيات الملة، شأنها وأصلها وفرعها، فجرت في القلوب جريها في الأوردة، كما هو جريان دمها فيها، حتى كان الثمر البهيح، أنتج عبدا منيبا منيفا، ربه الله تعالى وحده، ومعبوده الرحمن الرحيم وحده، ومحبه له وحده، حتى قد أجاد عليه من بركاته، وحتى قد أفاض عليه من هباته، ومنحه وأفضاله ومنه وجوده وكرمه!

ولا تسألن عن ناكص، ولا تسألن عن مدبر، ولا تسألن عن مستكبر، فهذا كان شأنه الإغراق والطوفان، وذاك كان حظه الحاصب، وآخر كان نصيبه الإهلاك، وأخوه قد كان حليفه مسخ، ونظيره قد كان عذابه خسفا، ومثله قد كان هلاكه صيحة، وخلفه قد كان من هلكته الإعصار بريح صرصر عاتية تدمر كل شيء بأمر ربها ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغْرَظُوا فِي سَحَابٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وذلكم من مقتضى غيرته تعالى أن تنتهك له حرمة، فتراه تعالى منتقما جبارا كبيرا متعاليا، يهلك بعدل، ويدمر بموجب، ويستأصل بسبب، ويغرق بميعاد، ويخسف بقدر، لأنه تعالى هو العزيز الجبار المنتقم المقتدر، إذ كان من جبروته، وإذ كان من قهره أنه أخبر عن نفسه أخذا باقتدار، لكل مكذب كفار، وإهلاكا بانتقام لكل عتل زنيم جواظ! فقال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢].

وأكرر، وهذا فهمي لسر أمره، وهذا إدراكي لسبب خبره قصصا واعتبارا وإيجابا ونهيا واختبارا!

ومنه فلا حد لقدرته النافذة، إن أراد بهذا خيرا أعطاه، أو قد أراد بهذا أخذاً فأَمْضاه! رحمة ورأفة واستحقاقا لموجبات رحمته، وعدلا وقسطاسا من عظام جبروته، حينما يكيد له العبيد! ومن ذا الذي له يكيد؟! ومن ذا الذي يغره كيد هو في الكيد لا من معنى الكيد؟! وهو الذي قال عن نفسه ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦].

ذلكم الكيد كله إذا أراده، وذلكم الأخذ كله حين أوقعه، وذلكم النكال جميعه إذا أَمْضاه، فأخذه أليم شديد، وعقابه موجه عظيم.

كما أن جزاءه ماء بارد سائغ سلسبيل عذب فرات، يروى ظمآنًا، ويغيث عطشانًا، كما أن رحمته تعالى قد سبقت غضبه، حينما كان لها استحقاق، فتراه رحمانا رحيمًا، على قدر ما تكون الرحمة واجبة، وعلى قدر ما تكون الرأفة مستحقة، ففيضهما منهما، وظلّهما وارف ظليل!

ثانياً: التوصيات

عودة صادقة وأوبة مخلصه

وإن كان من إيذاء، فموجه قد أذن، وسببه قد حل!

إذ يجب علينا معاشر الناس أن نعود، ويحرم علينا معاشر البشر أن ندبر!

فهذا كتاب الله تعالى بين أيدينا، فنعمله إن أردنا السعادة، ونحكمه إن ابتغينا الريادة!

وبغير ذلكم أمر، فلا يلومن أحد إلا نفسه، يوم أن اختار سييلاً لم يحله مولاه، ويوم أن سلك طريقاً قد حرمه الله!

وإذ يحسن ذلكم قبل عض أنامل الندم، فيؤخذ أحدنا فجأة، أو أن يغتال أحدنا غرة، أو أن يذهب القرآن من صدور من قد حل عليهم ذلك، والكل عندها سوف يستجمع

قواه وأفكاره وأحاسيسه ومشاعره، تراه شاخصاً في حسرة، وتحسبه سكرًا في غفوة! ثبات في رقاد، وكأنه لأول مرة يقرأ قول ربنا الرحمن سبحانه ﴿ كَرِهَ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَكَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣].

وإذ لزم علينا معاشر العبيد أن نعيد قراءتنا لأخبار مولانا الله، فيما قص علينا من قصص، أو أخبرنا من أخبار، فنعمل أوامره، ونقف عند زواجه، وأن نعتبر بما قص، وأن نتعظ بما أخبر، فلا نمر مرور الحيارى حين له يقرؤون، ولا نحل عليه حلول المتذمرين حين له يتلون، فإن تلاوة خطابه بإمعان، والوقوف عند أمره بإذعان، وعند نهيه انتهاء وانزجاراً، هو من صدق قولنا أننا مسلمون، وهو من أثر قولنا إنا مؤمنون!

وبغير ما ذكر فمراجعة لأصل الدين فينا محكمة!

إذ لماذا أخذ الله تعالى من أخذ؟!

وإذ لماذا أهلك الله تعالى من أهلك؟!

وإن كان من جوابنا أن خبراً قد ذكره القرآن العظيم، أو أن قصصاً قد قصه الذكر الحكيم لغير العظة والاعتبار لقمن أن نعاود تفكيرنا، ولموجب أن نعيد قراءتنا لتاريخ من مضوا من الأسلاف، كيما نراجع أنفسنا معاشر الأخلاف، فلعلهم يتتهون أو يحدث لهم ذكراً!

وهذا هو قول الله تعالى أماننا، وحري بنا أن يكون إمامنا!

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

ومنه فلا نمر على ما نقرأ مرور الكرام - كما قد قيل - بلا تذكرة، ومنه فلا نكاد نقف عند أوامره ائتماراً لها، أو عند نواهيها وكأنها ليست لنا!

قال الله تعالى مولانا الرحمن سبحانه ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [طه: ٩٩].

المراجع والمصادر

وهذه قائمة بأهم المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها في الدراسة، وهي مرتبة حسب ورودها في البحث.

١. القرآن الكريم.
٢. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (المتوفى ٥٠٢ هـ).
٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: ١٣٦٧ هـ).
٤. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩ هـ).
٥. جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بـ ﴿تفسير الطبري﴾ للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣ م).
٦. بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي، أبو الحسن ابن القطان (المتوفى: ٦٢٨ هـ).
٧. كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام، الإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢ هـ).
٨. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ).
٩. المحصول، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦ هـ).
١٠. الرسالة، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤ هـ).

١١. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ).
١٢. مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ).
١٣. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع (ط. العلمية): الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن جلال الدين.
١٤. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ).
١٥. المستصفي في علم الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ).
١٦. رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ).
١٧. التقرير والتحجير، أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج، ويقال له ابن الموقت الحنفي (المتوفى: ٨٧٩هـ).
١٨. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ).
١٩. التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي.
٢٠. حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي (المتوفى: ١٢٥٠هـ).
٢١. الإبهاج في شرح المنهاج على منهج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، لشيخ الإسلام علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦ هـ).
٢٢. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري؛ (١٩٤ هـ - ٢٥٦ هـ).

٢٣. الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ).

٢٤. المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ).

٢٥. كتاب دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م).

٢٦. البداية والنهاية، ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ.
٢٧. الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان). الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ.
٢٨. سنن الترمذي (الجامع الكبير) (ت: معروف).

٢٩. المؤلف سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاک، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).

٣٠. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ).

٣١. الرد على الجهمية، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ).

٣٢. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).

٣٣. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).

٣٤. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج (٢٠٦هـ - ٢٦١هـ).

٣٥. صحيح سنن أبي داود، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ).
٣٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري (ط. السلفية) (ط. ١)، المؤلف: ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر.
٣٧. رياض الصالحين المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ).
٣٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ هـ).
٣٩. صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ).
٤٠. فتح البيان في مقاصد القرآن المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧ هـ).
٤١. فتح البيان في مقاصد القرآن المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: ١٣٠٧ هـ).
٤٢. سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ).
٤٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ).
٤٤. قصر الأمل المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١ هـ).

٤٥. هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، المؤلف: ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر - محمد ناصر الدين الألباني.
٤٦. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. تأليف: الحافظ السخاوي.
٤٧. صلاح الأمة في علو الهمة، د. حسين بن حسين عفاني.
٤٨. تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).
٤٩. فتح القدير المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ).
٥٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيتمي (المتوفى: ٨٠٧هـ).
٥١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ).
٥٢. مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون.
٥٣. المعجم الأوسط للطبراني (معجم الطبراني الأوسط) المؤلف: الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٦٠هـ).
٥٤. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).

٥٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ).

٥٦. صحيح الجامع الصغير وزياداته المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ).

٥٧. إحياء علوم الدين المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ).

٥٨. سلسلة الأحاديث الصحيحة، المؤلف: ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ).

٥٩. سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ).

٦٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ).

٦١. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته

٦٢. المؤلف: محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ).

٦٣. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ).

٦٤. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي المعروف (٩ أكتوبر ١٩٠٦م - ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م).

٦٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ).

٦٦. زاد المعاد في هدي خير العباد. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).
٦٧. المعاني الجامع.
٦٨. مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه. المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (المتوفى: ٨٤٠هـ).
٦٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ).
٧٠. كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ)، ابن السبكي (٧٢٧ - ٧٧١ هـ)، الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ).
٧١. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، أبي الفيض محمد بن محمد الحسيني / مرتضى الزبيدي.
٧٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).
٧٣. القواعد لابن رجب. المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ).
٧٤. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ).
٧٥. شعب الإيمان. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجدي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ).
٧٦. لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ).

٧٧. عيون الأخبار المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).

٧٨. صحيح الترغيب والترهيب المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني.

٧٩. لتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ).

٨٠. إعلام الموقعين عن رب العالمين المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

٨١. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري. المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ).

٨٢. حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني.

٨٣. القواعد النورانية الفقهية. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ).

٨٤. الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان المؤلف: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى: ٩٧٠هـ).

٨٥. طالب العلم، بكر عبد الله أبو زيد، مطبعة اليمامة.

٨٦. جامع بيان العلم وفضله. المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ).

٨٧. سير أعلام النبلاء شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ).

٨٨. الاعتصام المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ).

٨٩. الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).
٩٠. شرح صحيح البخاري لابن بطلال المؤلف: ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ).
٩١. شرح صحيح البخاري لابن بطلال المؤلف: ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ).
٩٢. روح البيان في تفسير القرآن، أبو الفداء إسماعيل حقي بن الشيخ مصطفى الإستانبولي الأيدوسي الحنفي الجلوتي.
٩٣. تفسير الزمخشري، الزمخشري؛ محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم (ت ٥٣٨ هـ).
٩٤. إعراب القرآن الكريم وبيانه. المؤلف: محي الدين الدرويش.
٩٥. معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية، عادل عبد الجبار زاير.
٩٦. الأصول الثلاثة وأدلتها، ويليها: شروط الصلاة وواجباتها وأركانها، والقواعد الأربع، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب.

الفهرس

٢	شكر وتقدير.....
٤	إقرار.....
٧	ملخص البحث.....
٩	المقدمة.....
١٣	عملي في هذا البحث.....
١٥	أهداف البحث.....
١٦	أهمية البحث.....
١٧	مشكلة البحث.....
١٨	الدراسات السابقة.....
٢٠	مصادر البحث.....
٢٢	منهج البحث.....
٢٢	خطة البحث.....
٢٧	المبحث الأول: مفهوم الوحي.....
٢٨	المعنى الاصطلاحي:.....
٢٩	المبحث الثاني: نوعا الوحي.....
٢٩	المطلب الأول: القرآن الكريم.....
٣٢	المطلب الثاني: السنة النبوية الشريفة.....
٣٤	المبحث الثالث: موقف الناس تجاه الوحي.....

المبحث الرابع: وجوب الالتزام بالوحيين	٣٥
المبحث الأول: دلالة الأمر في القرآن الكريم	٣٧
مدخل للمسألة:	٣٧
مفهوم الدلالة	٤١
المطلب الأول: تعريف الأمر	٤٣
الأمر الحاضر والأمر الاعتباري:	٤٦
المطلب الثاني: صيغ الأمر	٤٧
المبحث الثاني: مدلول التاريخ	٥٠
المطلب الأول: مفهوم التاريخ	٥٠
المطلب الثاني: التاريخ في القرآن الكريم	٥٢
المبحث الأول: الاضطراب	٥٦
المبحث الثاني: عدم المحابة	٥٨
المبحث الثالث: الربانية	٦٠
المبحث الرابع: السنن الربانية للتاريخ ليست رهينة الصدفة	٦٣
المبحث الخامس: مشيئة الرحمن، ومشيئة الإنسان	٦٧
المبحث السادس: الإيمان سبب للعيش الرغيد	٧٨
المبحث السابع: الكفر سبب للعيش النكد	٨١
المبحث الثامن: التقليد حرمان التسديد	٨١
المبحث التاسع: الترف سبب للطغيان	٩١
أولا: تحريم الأكل في أواني الذهب والفضة:	٩٨

٩٨	 ثانيا: تحريم لبس الحرير والديبا:ج
٩٨	 ثالثا: تحريم حلي الذهب وملابس الحرير للرجال
٩٩	 المبحث العاشر: الاستخلاف
٩٩	 (آية البقرة: ٣٠ أنموذج)
١٠٦	 المبحث الحادي عشر: عموم العقاب الدنيوي، وخصوص العذاب الأخروي
١١٤	 المبحث الثاني عشر: عالمية القرآن وخاتمية الإسلام
١١٨	 المبحث الأول: فعل المأمور وترك المحذور
١١٨	 (موقف الصحابة مع رستم أنموذج)
١٢٢	 الحاشية تفتن ملكها:
١٢٣	 المبحث الثاني: الفصام النكد
١٢٤	 لكن المسألة لها تاريخ:
١٢٧	 المبحث الثالث: قضية الألوهية
١٣١	 الفصل الخامس: ثمرات دراسة الأمر بالتاريخ في القرآن الكريم
١٣٢	 المبحث الأول: تثبيت قلوب المؤمنين
١٣٩	 المبحث الثاني: دراسة سير الأولين اقتداء بهدي المهتدين
١٤١	 المبحث الثالث: العبرة والعظة
	 المبحث الرابع: معرفة سنن الله تعالى الكونية من نصره وتمكينه للمؤمنين، وهزيمته
١٤٣	 وخذلانه للكافرين، ولو بعد حين
١٤٧	 المبحث الخامس: تحقق نصر الله للفئة المؤمنة
١٤٧	 (غزوة الأحزاب أنموذج)

١٦٢	الفصل السادس: القصص القرآني أحسن القصص:
١٦٢	المبحث الأول: التعريف والأهمية
١٦٢	المطلب الأول: تعريف القصص القرآني وأهميته
١٦٦	المطلب الثاني: أنواع القصص القرآني
١٦٧	المطلب الثالث: تكرار القصص القرآني
١٦٨	المبحث الثاني: خصائص القصص القرآني المجيد
١٦٨	المطلب الأول: إنها نبأ حق وخبر صدق
١٧٧	المطلب الثاني: قيامها على العلم اليقين
١٨١	المطلب الثالث: تناولها علاج قضية العبودية
١٩٧	المبحث الأول: الظلم والكفر ومنه التكذيب
٢٠٦	المبحث الثاني: انتشار الخطيئات، وفشو المنكرات، وقلة الجزاءات والعقوبات
٢١٧	المبحث الثالث: التنافس في الدنيا والشح بما فيها
٢١٩	المبحث الرابع: الترف و انتشار الفساد
٢٢١	المبحث الخامس: ترك الجهاد والإخلاد إلى الأرض
٢٢٢	المبحث السادس: مخالفة أمر النبي ﷺ
٢٢٥	الفصل الثامن: صور العذاب على وفق موجبها من الأسباب
٢٢٥	مدخل إلى المسألة
٢٢٨	المبحث الأول: الغرق والطوفان
٢٣٠	المبحث الثاني: الريح
٢٣٧	المبحث الثالث: الحاصب

المبحث الرابع: الصيحة	٢٤١
المبحث الخامس: الخسف	٢٤٩
الزلازل:	٢٥٨
المبحث السادس: الجوع والعطش وضيق الأرزاق	٢٦٤
المبحث السابع: الخوف والفرقة وتسليط الأعداء والذل وكثرة القتل والحروب....	٢٧١
المبحث الثامن: المسخ	٢٧٤
المبحث التاسع: الأمراض والبلايا والطواعين	٢٨٣
الفصل التاسع: أسباب الصلاح وموجبات الفلاح	٢٨٧
المبحث الأول: الإيمان بالله تعالى	٢٨٨
المبحث الثاني: الصبر	٢٩٩
المبحث الثالث: الإخلاص في العمل	٣٠٥
المبحث الرابع: الإعداد في الأعداد والعتاد، ورفع علم الجهاد	٣١٤
وجوب الإعداد لمجابهة الأعداء:	٣٢٠
فضل المراقبة في سبيل الله:	٣٢٢
وأسوق طرفاً منه مرة أخرى تذكراً، وبياناً:	٣٢٤
المبحث الخامس: الائتلاف وعدم الخلاف	٣٢٨
المبحث السادس: إحسان التوكل على الله، وإتقان التضرع دعاء وإستغاثة به وحده.....	٣٣٧
المبحث السابع: الشورى	٣٤٢
المبحث الثامن: الطاعة في المعروف	٣٤٥
المبحث التاسع: تقريب أهل المروءة والصلاح وإبعاد ذوي الفساد والعناد.....	٣٥٠

٣٥٠	[هود: ١١٣]. أنموذج
٣٥٦	المبحث العاشر: في رحاب آية
٣٧٩	النتائج والتوصيات
٣٧٩	أولاً: النتائج
٣٨٣	ثانياً: التوصيات
٣٨٦	المراجع والمصادر